

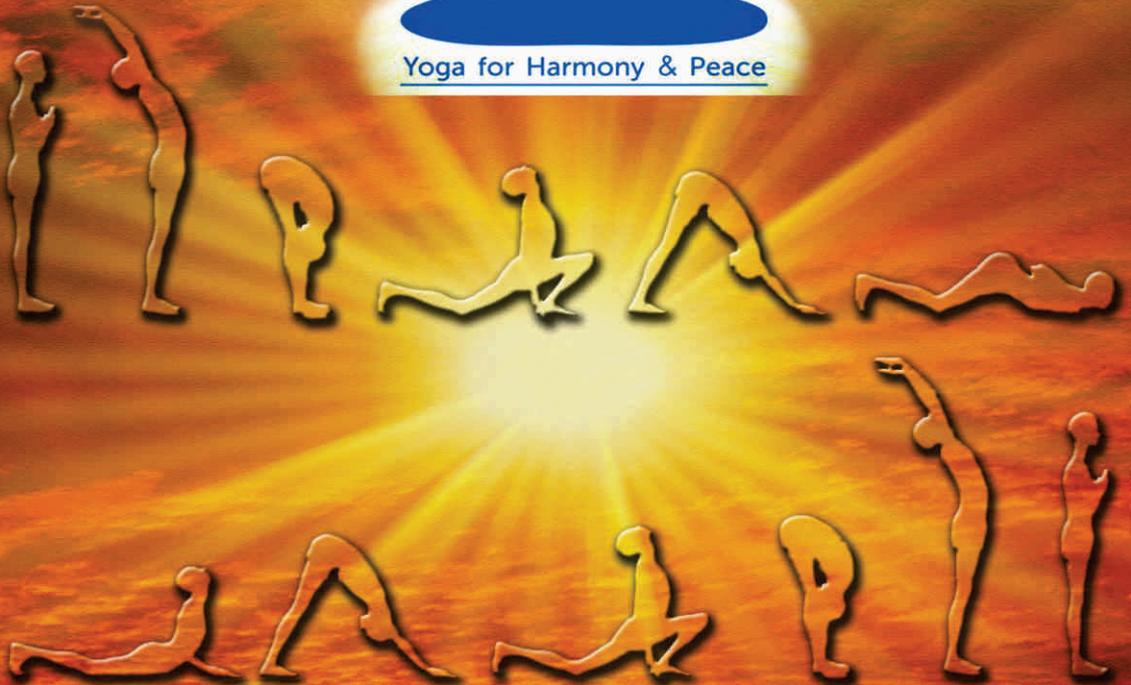
ثقافة العند

Volume 66 No. 2, 2015

المجلد ٦٦، العدد ٢، ٢٠١٥



Yoga for Harmony & Peace



ISSN 0970-3713

ثقافة الهدى

مجلة علمية ثقافية جامعة فصلية

2015 2 66

رئيس التحرير
سيد إحسان الرحمن

مساعد التحرير
. محمد قطب الدين



المجاس الهدى للعلاقات الثقافية

المجلس الهندي للعلاقات الثقافية منظمة حرة لوزارة الشؤون الخارجية في حكومة الهند أنشئت عام 1950م لإيجاد وتنمية العلاقات الثقافية والتفاهم المتبادل بين الهند والبلدان الأخرى، وضمن برنامج مطبوعاته ينشر المجلس، بين ما ينشر، عدة مجلات، ففي العربية "ثقافة الهند" وفي الإنكليزية "Indian Horizons" و "Africa Quarterly" وفي الفرنسية "Rencontre Avec L'Inde" وفي الأسبانية "Papeles de la India" وفي الهندية "Gagananchal" وكلها يصدر أربع مرات في السنة. والمراسلات المتعلقة بالاشتراك في الطباعة والنشر توجه إلى:

EDITOR, Thaqfatul Hind
The Programme Director (Pub.)
Indian Council for Cultural Relations
Azad Bhavan , Indraprastha Estate
New Delhi-110002 (India)
E-mail: editor.thaqafatulhind@gmail.com

ويدفع الثمن لـ:

The Programme Director (Pub.)
Indian Council for Cultural Relations
Azad Bhavan , Indraprastha Estate
New Delhi-110002 (India)

حقوق جميع المقالات المنشورة في ثقافة الهند محفوظة فلا يجوز نشرها بدون الإذن الخطي، والآراء التي تحويها المقالات هي آراء شخصية للمساهمين والكتاب ولا تعكس سياسة المجلس بالضرورة. بدل الاشتراك للمجلات الصادرة عن المجلس:

اشترك ثلاثة أعوام	الاشتراك السنوي	ثمن النسخة
250 روبية	100 روبية	25 روبية
100 دولار	40 دولارا	10 دولارات
40 جنيها	16 جنيها	4 جنيها

نشرها وطبعها السيد ستيتش ميها، المدير العام للمجلس الهندي للعلاقات الثقافية - آزاد بهوان، نيودلهي، الهند.

ثقافة الهند

2015 2 66

-
- كلمة إدارة التحرير
 - 1 • فلسفة اليوغا عند باتانجالي
رام ناث جها
ترجمة: أ.د. مجيب الرحمن
 - 15 • الاحتفال باليوم الدولي لليوغا
أ. د. حبيب الله خان
 - 28 • الراج يوغا و أوجه الشبه بينه و بين التصوف الإسلامي
أ. د/ محمد ثناء الله الندوي
 - 52 • اليوجا: مفتاح الحياة السعيدة
د. مظفر عالم
 - 65 • رياضة اليوغا في المشهد الثقافي الهندي
فرحان أنصاري
 - 89 • رابندرانات طاغور في ضوء الكتابات العربية
د. محمد بديع الرحمن
 - 108 • مولانا أبو الكلام آزاد والتضامن القومي
د. هيفاء شاكري
 - 127 • عبقرية العلامة عبد الحي الفرنجي محلي
د. محامد حسين
 - 155 • الثقافة الهندية: تنوعها وشمولها وعالميتها
شميم أحمد نظامي

- الدكتور محمد اجتباء الندوي من أعلام القرن العشرين في الهند
د. محمد قاسم العادل
163
- تاريخ وجيز لإنشاء المدارس العربية - الإسلامية في الهند
عبد الرحمن
181
- العلامة عبد الحي الحسني الذي عرف الهند إلى العالم العربي
غياث الإسلام الصديقي الندوي
قصة قصيرة
193
- اللحاف
عصمت شغتاي
ترجمة: محمد علي أختر
211

كلمة إدارة التحرير

تعتبر الهند من أقدم الحضارات العالمية بحيث يرجع تاريخها إلى آلاف السنين قبل الميلاد. والحضارة كما يعرفها العلماء عبارة عن مرور شعب من مختلف مراحل التطور في مدة من الزمن محددة حتى تتوصل إلى مظاهر الرقي في العلوم والفنون والآداب والحياة الاجتماعية. يوجد للشعب الهندي تاريخ حضاري طويل مليء بالإنجازات في مختلف المجالات المعرفية ولنا التراث الثقافي الغني. يتم عداد الهند بين الحضارات التي قدمت للبشرية عبر العصور معظم ما احتاجت إليه من علوم ومعارف ومنها اليوغا.

وما هي اليوغا؟

قيل إن اليوغا عبارة عن تمارينات بدنية وعقلية وجذورها تضرب في أعماق الماضي بحيث يرجع تاريخ وجودها إلى العصور الفيديّة إلا أنه تمّ تجميع أسسها ومبادئها قبل حوالي قرنين من بداية التاريخ الميلادي. لقد أحيّاها الحكيم الفيلسوف الهندي باتانجلي وأخرجها في شكل رسائل أطلق عليها "اليوغا سوترا" أي حكمة اليوغا. وكما يرى باتانجلي أن ممارسة تمارينات اليوغا توجد التوازن و التنسيق الكامل بين جميع قابليات الإنسان البدنية والعقلية والروحية. هي علاج للأمراض الجسمانية حتى العضال. هي عبادة تقرب الإنسان روحانيا إلى خالقه بحيث أنها تشجع النظافة الخارجية والباطنية. إن تمارينات اليوغا تنمي العقل بحيث أنها تسبب

كلمة إدارة التحرير

الهدوء النفسي وتخلص الإنسان من التوتر الذهني ومن ينكر ان استرخاء العقل مصدر الطاقة لجميع حواس الإنسان.

لقد عرف العالم إفادية التمرينات اليوغية عبر العصور. إن اليوغا في الوقت الحاضر تتمتع بالشعبية في عدد من دول العالم ويلزم الاستفادة منها بدون ارجاع أصولها إلى الديانة الهندوسية. ربما هي التي توفر العلاج البديل لمختلف الأمراض الجسمانية والروحانية والاجتماعية مستقبلا ومن المؤكد إنما هي إفادية تمرينات اليوغا التي جعلت هيئة الأمم المتحدة تعترف بها كرياضة بدنية مفيدة وقبلت باحتفال اليوم الحادي والعشرين من شهر يونيو كل عام كيوم اليوغا.

وبهذه المناسبة نقدم لكم مجموعة من المقالات البحثية والترشيدية عن اليوغا لإفادة القراء الكرام بالإضافة إلى مقالات في شتى الموضوعات .

إدارة التحرير

فلسفة الـ يوغا عند باتانجالي

رام ناث جها*

ترجمة: أ.د. مجيب الرحمن**

يُحاول هذا البحث التركيز على أهمية وعلاقية الـ يوغا في حياتنا اليومية بعرض وجهة نظر عالمية خاصة بها من خلال الميتافيزيقيا وعلم المعرفة وعلم الأخلاق المتوفرة في تقليد الـ يوغا. تؤمن الـ يوغا بالإدراك المباشر على كافة مستويات شخصية الفرد، وعليه فإن عملية المعرفة اليوغية وطريقها المشهور المتألف من ثمان خطوات قد تم شرحها حسب كتاب "يوغا سوترا" لمؤلفه باتانجالي.

خلفية:

لازال المفهوم الفلسفي وجوانب ممارسات اليوغا محور نقاش ومناظرة بالنسبة إلى طبيعة البشر، والكون والعلاقة بينهما. فمنذ عصر ريغفيدا وصف الحكماء اليوغا بعامل محوري يلعب دورا مهما جدا في صوغ الشخصية التي تخص جميع جوانب الحياة. سواء أكانت الميتافيزيقيا أو علم المعرفة أو علم الأخلاق أو أي قضية من القضايا الأخرى المتعلقة بالتفكير فإن اليوغا تهيئ المرء للوصول إلى أعلى درجة فيه.

* الأستاذ المشارك، المركز الخاص بالدراسات السنسكريتية، جامعة جواهر لال نهرو،

نيودلهي، الهند، rnj12@hotmail.com.

** رئيس مركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهر لال نهرو، نيودلهي، الهند.

فلسفة الـ يوغا عند باتانجالي

تعتبر اليوغا التي هي اكتشاف عظيم جاء به "الريشيون" (الحكماء) من العصر الفيدي هدية فريدة للبشرية. وقد باتت من الحقائق المعروفة والمسلمة أن اليوغا ليست مفيدة للتأمل والروحانية فقط بل هي مفيدة أيضا لتلبية كافة أنواع الحوائج الدنياوية كالصحة والنجاح في الأعمال والمبادرات التجارية والتميز في الإدارة والتنمية في العلوم والتكنولوجيا وإقامة المجتمع المستدام، وصقل المعرفة من خلال الدراسة والبحث، وتحقيق الحق وغيرها الكثير من الجوانب المهمة في الحياة. يتحدث الأدب اليوغي كثيرا عن اليوغا ويصفها بأسمى جوهر الأفراد والكون وأحيانا يصفها بأكثر الطرق والوسائل العلمية تأثيرا وفعالية من أجل تحقيق ذلك الجوهر إلى جانب تحقيق جميع أنواع الأهداف المادية في الحياة. تعرف "بهاغوات غيتا" التي تمثل حصيلة الأدب الفيدي بأكمله بـ "شاسترا" أي المصدر الأساسي لعلم اليوغا لأنها تدرب النوع البشري على الخروج بنجاح من تعقيدات شبكة المشاكل المادية وتحقيق النجاح في كافة مجالات الحياة من خلال ممارسة اليوغا. يبلغ التقليد اليوغي إلى أسمى منزلته ويظهر كنظام دقيق في كتاب "يوغاسوترا" لمؤلفه باتانجالي حيث ورد بيان وشرح طبيعة "سمادهي" بوصفه عملية إدراكية، وطريق اليوغا المشهور بثمان خطوات، وتحقيق الأهداف الدنيوية والوصول إلى الحقيقة السامية. ووفقا لـ يوغاسوترا الوعي مبدأ موحد وسائد يؤدي بشكل جذري إلى تحقيق كل أنواع التنمية المادية والروحانية.

مفهوم الـ "دارشانانا" (الفلسفة)

لفظة *دارشانانا* مشتقة من أصل دريشير دارشان (*drishir darshane*) التي تعني الرؤية وذلك بإضافة لاحقة "ليوت" (*lyut*) في سياق الأداة. وعلى هذا، فمن الناحية الاشتقاقية يرمز مصطلح *Drishyate anena iti darshanam* إلى الأداة التي يمكن بواسطتها رؤية شيء خاص. ويمكن تصنيف الرؤية إلى ثلاث مراحل: الأولى، من قبل العارف بحد ذاته والثانية بواسطة العضو الداخلي الذي يرتبط بالحواس كالعين وغيرها. العارف فريد ويفوق الوصف. يرى العارف الحاسة

الداخلية والحاسة الداخلية ترى العالم الخارجي والداخلي أيضا بمساعدة الحواس كما ورد في "بيرها دارارنياكا أوبنيشاد" (*Birhadarayaka Upanishad*) (IV.III.23):

Na hi drashtudrishterviparilopo vidayate'vinashitvat

ويعني أن ملكة الرؤية أو البصارة لدى العارف لن تزول عنه لأنها أبدية.

وقد ورد تفصيل ذلك في تعليقه (بهاشيا):

Drishti dvididha bhavati laukiki parmardhiki ceti. Thatra laukik cakshuhsamyukta antahkaranavrittih sa krudyata iti jayate vinashyati ca. Ya svatmano dristih/ agnyushnaprakashadivat sa drashtuh svarupatvanna jayate vinasahyati ca. (Brihadaranyaka Upanishd Shankarabhashya III.IV.2)

وبعبارة أخرى، فإن عمل الرؤية لدى العارف هو أبدي في حين عمل رؤية العضو الداخلي مؤقت. الرؤية نوعان: دنيوية وعابرة لحدود الزمان والمكان. النوع الدنيوي للرؤية عبارة عما تدركه حاسة العين مثلا، وهي تعتبر عملا لأن لها بداية ونهاية. ولكن رؤية العارف مثل " بورشا" (*Purusha*) و " آتمان" (*Atman*) أو الوعي فليس لها بداية أو نهاية كمثل الضوء والحرارة اللذان هما من الطبيعة الأساسية للنار فلا يبدآن ولا ينتهيان ولا يفارقانها، وبنفس الطريقة، وحسب الاشتقاق، فإن عمل رؤية العارف إلى جانب عمل العضو الداخلي (*antahkrana*) المرتبط بالحاسة (*janedriya*) يمكن أن يعتبر "دارشانا" (*darshana*). وقد بين فياسا هذا الأمر أيضا في تعليقه (*Bhashya*) على يوغاسوترا لباتانجالي:

Ekameva darshanam khyatireva darshanam.(Yogasutra-vyasabhashya 1.4)

ومع ذلك، يمكننا أن نوضح مزيدا أن المعرفة المدونة بالكلمات للباحث عن الحق الآتي لاحقا على أساس عمل العارف المرتبط بالعضو الداخلي والحاسة تعرف أيضا بـ "دارشانا". وحيث أن التقليد الفكري الهندي يعتبر المعنى التقليدي معنى أوليا أو أساسيا فإن مصطلح دارشانا يرمز حاليا إلى النص الديني.

فلسفة اليوغا عند باتانجالي

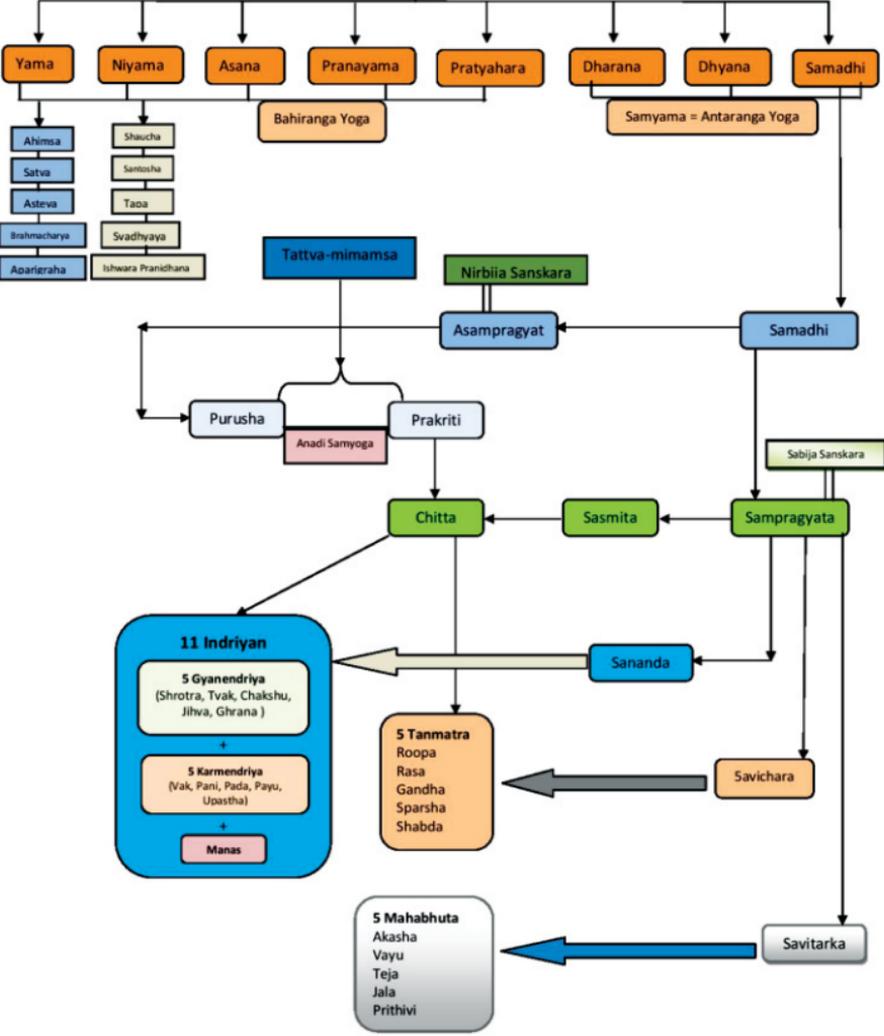
إن طبيعة الحق المطلق (*tattvas*)، والمعرفة (*jnana*) وعملية المعرفة (*pramana*) صلاحية المعرفة (*pramanya*) و مختلف جوانب الواجبات (*achara*) مثل العمل (*karman*) وثمره العمل، والحرية في العمل، والحرية عن العمل وإلى غيرها هي مجالات مختلفة للدراسة في *دارشانا* . ومن هذا المنطلق فإن *دارشانا* هو نظام الدراسة الذي يتعامل مع الميتافيزيقيا وعلم المعرفة وإكسيولوجيا من أجل الوصول إلى الحق لدى الفرد وفي العالم كله وعلى كافة المستويات.

الميتافيزيقيا

تقبل اليوغا حقيقتين أساسيتين في هذا الكون وهما الوعي (*purusha*) والمادة (*prakriti*). والوعي نوعان - الوعي الفردي (*purusha*) والوعي الأسمى (*purusha vishesha*). ويمكن تقسيم المادة إلى جزأين كبيرين - المادة غير الظاهرة (*avyakta*) والمادة الظاهرة (*vyakta*). وإذا أخذنا كل المبادئ معا فهناك ستة وعشرون مبدأ (*tattvas*) التي يمكن تصنيفها إلى " الظاهر " (*vyakta*) وغير الظاهر (*avyakta*)، الوعي الفردي (*purusha*) والوعي الأسمى (*ishwara*). ويمكن أن يفهم الـ 26 مبدأ كـ *vyakta* - العقل (*citta* أو *buddhi*)، مبدأ - أنا (*ahamkara*) وعناصرها الخمسة اللطيفة (*pancatanmatra*) أي *shabda* ، و *sparsha* ، و *rupa* ، و *rasa* ، و *gandha* ، وأحد عشر عضوا (*ekadashendriya* أي الذهن (*manas*)؛ الحواس الخمس - الأذن (*srotra*) والبشرة (*tvak*)، والعين (*cakshus*)، واللسان (*jihva*)، والأنف (*payu*) والأعضاء الحركية الخمسة - الكلام (*vak*) واليد (*pani*) والقدم (*pada*)، وأعضاء الإفراز (*payu*) وأعضاء الاستمتاع والتوليد (*upastha*)، والعناصر الأساسية الخمسة (*pancamahabhuta*) كالأرض (*pirthivi*)، والماء (*jala*)، والنار (*tejas*)، والهواء (*vayu*)، والفضاء (*akasha*)؛ الحقيقة المادية البدائية (*avyakta*)، الوعي الفردي (*purusha* أو *jna*)، و *ishwara* .

Yoga Metaphysics and Ethics

Ashtanga Yoga



من أجل عرض *prakriti* إلى *purusha* و من أجل إفراج *purusha* عن *prakriti* فإن هناك اتحادا بين الإثنين، على غرار الاتحاد بين الأعرج والأعمى. وهذا الاتحاد يتسبب في الارتقاء. ومن *prakriti* أو المبدأ الأساسي غير الظاهر ينشأ العقل (*citta* أو *mahat*)، ومنه ينشأ مبدأ - أنا (*ahankara*) ومنه تنشأ مجموعة الست عشر (أحد عشر عضوا والعناصر اللطيفة الخمسة) ومن العناصر اللطيفة الخمسة من مجموعة الست عشر تنشأ العناصر الأساسية الخمسة. المادة غير الظاهرة التي هي سبب هذا الكون المتنوع المتألف من ثلاثة وعشرين مبدأ ظاهرا والذي يطلق عليه مسمى *prakriti* يمثل ثلاث *gunas* وهي (*sattva, rajas, tamas*) أحيانا في حالة التوازن وأخرى في حالة اللاتوازن. وإن حالة توازن الـ *gunas* الثلاث مع الوعي على المستوى الأدنى وسيطرة *sattva* على *guna* *rajas* و *tamas* يؤدي إلى *citta* الذي يعتبر المظهر الأول لهذا الكون. *Citta* مع غلبة *sattva* يظهر نفسه في *ahankara* والـ *tanmatras* الخمسة على التوالي. ومن جانب *sattvika* لـ *ahankara* يبرز للوجود الحواس الإحدى عشرة بما فيها العقل ومن جانب *jhlhsd;h* لـ *ahankara* يبرز للوجود خمس تانماتراس (*tanmatras*). كما يظهر خمسة ماهابهووتا (*mahabhuta*) من خمسة تانماتراس (*tanmatras*). وعلى هذا فمن الواضح تماما من الهيكل الميتافيزيقي المذكور أعلاه أن هيكل الفرد أو الكون كله ليس إلا مجموعة من الوعي والمادة. هذا الوقف الميتافيزيقي لليوغا يؤكد المثل التقليدي *yatpinde tadbrahmande* أي أن الفرد البشري هو النسخة المصغرة للكون كله. ويمكننا أن نشرح طبيعة المبادئ الستة والعشرين المذكورة أعلاه حسبما يلي:

العقل (*citta* أو *Buddhi*)

العقل هو التمظهر الأول للسبب المادي الظاهر. ملكة العزم هي التي تتخذ القرار. وهو يظهر كالواعي بفضل قربه إلى ملكة الوعي أو بوروشا (*purusha*). يتألف العقل من ثمانية أجزاء بناء على أشكال ساتفيكا و تاماسا (*satvika and*)

فلسفة ال يوغا عند باتانجالي

(tamasa)؛ دهارما (Dharma) أو الفضيلة، جانا (jana) أو المعرفة، فيراغا (viraga) أو اللاتعلق و أشفارييا (aishvarya) أو القوة السامية تشكل شكلها الساتفيكاوي. أما الشكل التاماساوي فهو على نقيض الساتفيكاوي.

مبدأ - أنا

وهو عبارة عن الأناية. ويمكن فهمه من هذه العبارات مثلا "الذي قمت بإدراكه وتحليله ينتمي إليّ"، "أنا أقدر على أن أعمل هذا"، "كل هذه الأشياء معنية لاستخدامي"، "لا أحد غيري يستحق ذلك، فلذلك أستحقه أنا وحدي" الأناية التي تتضمنها هذه الأفكار والمفاهيم المذكورة هي تشكل الوظيفة المميزة لمبدأ- أنا. وهذا مظهر العقل أو شيتا (citta). وبواسطة مبدأ - أنا وحده يؤدي العقل وظيفته الحاسمة التي تظهر في شكل القرارات مثل " يجب أن يتم القيام بهذا العمل من قبلي".

الذهن

الذهن عبارة عن الجانب الساتفيكاوي من مبدأ -أنا. ويملك طبيعة كل الحاستين والأعضاء الحركية. وهو مبدأ التحليل ويطلق عليه أيضا الحاسة لأنه يمتلك خصائص مشتركة بين الأعضاء الأخرى. ويرجع سبب تعددياته الخارجية إلى التعديل الخاص لثلاث gunas أي ساتفا (satva)، راجاس (rajas) و تاماس (tamas). وبعبارة أخرى، فمن بين 11 عضوا، يمتلك الذهن طبيعة الإثنتين أي الحواس والأعضاء الحركية، حيث أن العين وغيرها و أعضاء الكلام وغيرها يمكنها أن تعمل في مجالاتها المعينة فقط عندما يؤثر عليها الذهن.

الحواس والأعضاء الحركية

الحواس هي قناة يكتسب العقل بواسطتها معرفة الأشياء الخارجية. الحواس هي العين، والأذن، والأنف، واللسان، والبشرة. ومن بين هذه الحواس، الحاسة التي بواسطتها يتم إدراك اللون هي العين، والتي تدرك الصوت هي الأذن، والتي تدرك

الرائحة تسمى الأنف والتي تدرك المذاق تعرف بـ باللسان، وأخيراً الحاسة التي تدرك اللمس يطلق عليها البشرة.

الأعضاء التي تؤدي وظيفة العمل تسمى الأعضاء الحركية أو أعضاء العمل. وعددها خمس - عضو الكلام، واليدين، والقدمين، وعضو الإفراز، وعضو الاستمتاع والتوليد. ومن بين هذه الأعضاء الخمسة، عضو الكلام يتكلم، اليدين تقومان بأعمال شتى، والقدمان تمشيان على سطوح مستوية وغير مستوية، عليا أو دنيا؛ أما أعضاء الإفراز فهي تقوم بإفراز فضلات الغذاء ويمنح عضو التوليد المتعة ويساعد على توليد الحيوانات المماثلة.

العناصر اللطيفة (tanmatra)

إن مجموعة العناصر الخمسة مثل *شابدا* (shabda) وغيره تعرف بـ غير مخصوصة لأنها تنشأ عن الشكل الـ *تاماساوي* من *أهنكارا* (ahankara). أما *التانماترا* الخمسة (Five tanmatras) فهي - *شابدا* (shabda) أو الصوت اللطيف أو الخفيف، و*سبارشا* (sparsha) أو اللمس الخفيف، و*روپا* (rupa) أو اللون الخفيف، و*راسا* (rasa) أو المذاق اللطيف، و*غاندها* (gandha) أو الرائحة الخفيفة. وهذا هو الوضع الأولي للشكل الذي يأتي إلى حيز الوجود من الوضع الخالي عن الشكل لمبدأ - أنا. هذه هي الأشياء اللطيفة التي لا يدركها إلا الحكيمه (يوغين) الربانية التي تكون قد بلغت أعلى درجة من الإنجاز الروحي فلا تحس ألما ولا وهما.

العناصر الخمسة الجسيمة

العناصر الخمسة الجسيمة كـ *آكاشا* (akasha) وغيرها تنشأ عن العناصر الخمسة اللطيفة مثل *شابدا* وغيره ويحتوي على ميزة أو ميزتين أو ثلاث أو أربع أو خمس ميزات على التوالي بسبب ارتباطها مع عناصره الخمسة الجسيمة السابقة. وبعبارة أخرى، نشأت من الرائحة الخفيفة، الأرض؛ ومن المذاق الخفيف الماء؛ ومن اللون الخفيف النار؛ ومن اللمسة اللطيفة الهواء؛ ومن الصوت الخفيف

فلسفة ال يوغا عند باتانجالي

الأثير - تطورت هذه العناصر الخمسة الجسيمة، ومن بين العناصر الجسيمة بعضها، بحكم غلبة المكون "الساتفي" عليها، هادئة، وسعيدة، وممتعة ولطيفة ونشيطة؛ وبعضها بسبب غلبة مكون راجاس (rajas) فيها مضطرب وبائس وغير مستقر؛ والبعض الآخر يغلب عليه مكون تاماس (tamas) فيصبح مخدوعا و قانطا وراكدا.

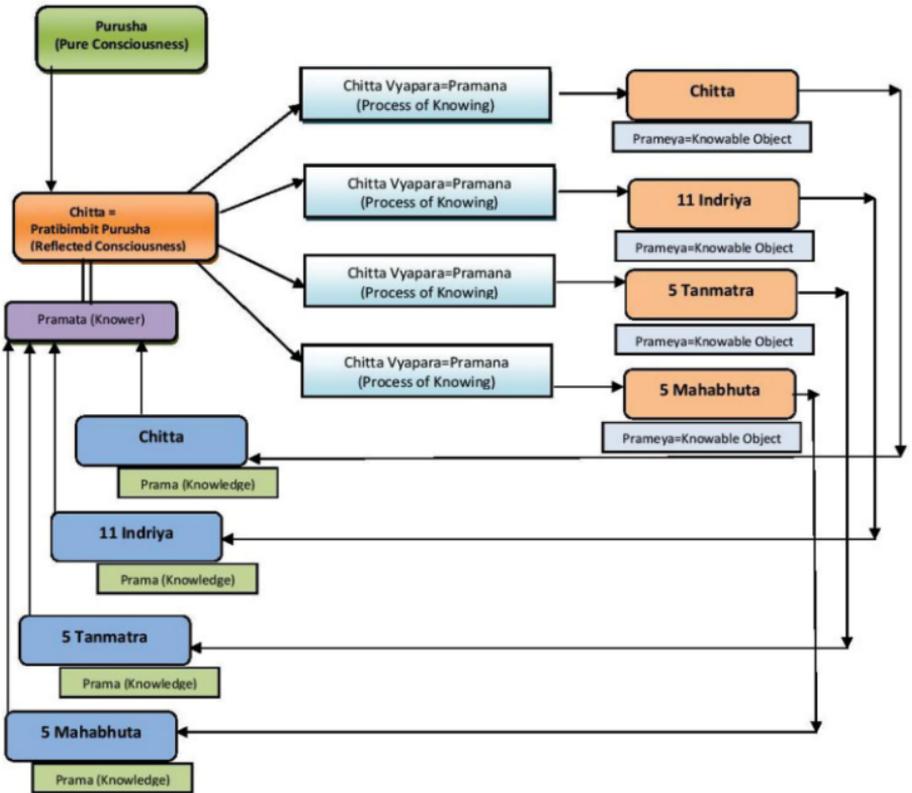
غير الظاهر

كل التأثيرات تملك خصائص مماثلة لأسبابها على التوالي أي القماش يملك خصائص طبيعة الخيوط، وعلى نفس الغرار، نجد أن كل المنتجات كالعقل وغيرها تتمتع بالمتعة والألم والوهم؛ والتي يفترض منها المرء منطقيا أن هذا بسبب وجود المتعة والألم والوهم الموجودة بداخل سببها. وعلى هذه الشاكلة يتم إثبات هذا السبب في شكل "غير الظاهر" أو أفياكتا (avyakta). فكل ما يتطور يعرف ببراكريتي (prakriti). و أن كل ما هو باراكارانا (parakarana) أو السبب الرئيسي لنشأة الكون يسمى براكريتي (parakriti)، والذي يتسبب في ظاهرة التاتواهاات الأخرى أي العناصر الثلاثة والعشرون تسمى براكرتي (prakrti). ويطلق عليه أيضا أفيكريتي لأنه ليس مظهرا لأي سبب إضافي. وهذا مجرد سبب، وليس أثرا لأنه لايتطور من أي سبب أعلى أو أسمى.

الوعي الفردي (purusha).

وهو الذي يقوم بإدراك مختلف عمليات "جوناس" (gunas) بواسطة قوة الوعي ويسمى "جنا" (jna) أو العارف أو العالم، و بوروشا (purusha). ويعني مصطلح purusha حرفيا الشخص الذي يكمن في الجسم. وهذا ال بوروشا (purusha) واع وغير متأثر إطلاقا بالمتعة أو الألم أو الوهم. الوعي بسبب كونه وحيدا يمكنه أن يكون بصيرا وليس كائنا غير واع. يصبح المرء شاهدا (sakshi) فقط حينما يتم إراءة الأشياء له؛ البوروشا هو ساكشي لأن الأشياء كلها معرضة عليه من قبل براكريتي. وفي الحياة اليومية، نحن نجد أن طرفي نزاع يعرضان

Yoga Epistemology



الشيء الذي هو محل النزاع على الشاهد. وبنفس الطريقة، تقوم براكريتي بعرض مظاهرها على الـ بوروشا، الذي بدوره يصبح ساكشي أو الشاهد. وإن هذا الوعي الفردي لامتغير، ولامنتقل، ونقي ولامحدود¹

الوعي الأسمى (بوروشا فيشيشا أو إيشوارا) purusha vishesha or

(ishwara

الوعي الأسمى هو النوع المخصوص من الوعي الذي لا يتأثر بالمصيبة (klesha) أو جهل (avidya) والأناية (asmita) والتعلق (raga) والمقت (dvesha) والتعلق بالحياة (abhinivesha)² والعمل، والنتائج، والانطباعات. والفرق بين الوعي الفردي والوعي الأسمى يتمثل في أن الأول يظهر كأنه يتأثر بالمحنة أو المصيبة وغيرها، وعليه فإنها تكون في حالة من العبودية بينما الثاني لا يتأثر على الإطلاق بما ذكر أعلاه. الأول كثير والثاني واحد. الأول، فيما يبدو، يحصل على حالة الحرية بجهد ولكن الثاني حر دائما. الأول يكتسب المعرفة الدنيوية ولكن الثاني مزود دائما بأعلى مستوى ودرجة من الحكمة. ويفترض بأنه معلم جميع المعلمين. ويعرف هذا باسم AUM أو PRAVAVA. وبتلاوة أو ترديد هذا الاسم والتأمل في معنى هذا الإسم يمكن للمرء أن يحقق حالة الحرية ويمكنه أيضا أن يصبح حرا عن العقبات والعوائق الدنيوية.³

إبستيمولوجيا أو نظرية المعرفة

إبستيمولوجيا أو نظرية المعرفة عبارة عن دراسة العملية الإدراكية التي بواسطتها يتم اكتساب أو تحصيل العلم. تقتضي إبستيمولوجيا الـ يوغا أربعة مكونات من أجل تحليلها وهي: العارف أو العالم، موضوع العلم أي الشيء الذي يُعلم، وعملية المعرفة و المعرفة. العارف هو الوعي المنعكس في العقل. وهو مبادر للعملية الإدراكية. الأشياء التي تُعرف أو تُعلم هي محتويات المعرفة التي يبلغ عددها أربعة وعشرين كما هو مبين في تحليل الميتافيزيقيا أعلاه. العملية هي عبارة عن النزعة العقلية أو الميل العقلي من خلال العلاقة بين العارف (الوعي المنعكس)

فلسفة ال يوغا عند باتانجالي

وموضوع المعرفة والمعرفة هي النتاج الذي يدفع سلوكنا. ويمكن تقسيم عملية المعرفة (pramana) إلى ثلاثة أجزاء - الإدراك (pratyaksha)، والاستنتاج (anumana)، والشهادة الشفهية (agama).⁴ الإدراك مبني على العلاقة بين الحس-الشيء، والاستنتاج مبني على التلازم الثابت (vyapti) والشهادة الشفهية مبنية على بيان شخص موثوق به أو كتاب مقدس (shastra).

تؤمن اليوغا أساسا بالإدراك المباشر. وعليه يمكن تقسيم الإدراك إلى جزأين - إدراك الحقيقة الجسيمة المبنية على العلاقة بين الحس - والموضوع إدراك الوضع اللطيف والسببي والخالص للوعي (purusha) المبني على سامادهي (Samadhi). سامادهي نوع خاص من الإدراك حيث يمكن التركيز على شيء مخصوص مادام العارف يريده. وهذا الوضع يطلق عليه أيضا ال يوغا. إن هذه ال سامادهي أو اليوغا يمكن تقسيمها إلى جزأين - أولهما سامبراجناتا يوغا (samprajnatayoga)⁵ و ثانيهما أسامبراجناتا (asamprajnata). الأول يمكن تقسيمه إلى أجزاء فرعية أربعة - سافيتاركا (savitarka)، وسافيشارا (savichara)، و ساناندا (sananda) وساميتا (samita)⁶. ففي سافيتاركا يرتكز الذهن على الشيء الجسيم، وفي سافيشارا يرتكز على الوضع اللطيف أي الوضع الذري، وفي ساسميتا يرتكز على مبدأ - أنا (بما فيه الذهن، والحواس الخمس، والأعضاء الحركية الخمسة) وأما في ساميتا فيرتكز الذهن على العلاقة بين الوعي والمادة البدائية. وعلى هذه الشاكلة يكتسب العارف معرفة كافة مستويات شخصيته أو شخصيتها وأيضا الكون كله. وأما بالنسبة إلى أسامبراجناتا يوغا فليس لدى العارف شيء يعرفه أو يطلع عليه؛ فإنه يكون قد استنفد/ استنفدت كافة انطباعاته/انطباعاتها السابقة.⁷ وبعد استنفاد كافة الانطباعات السابقة، يدرك المرء طبيعته/ طبيعتها الحقيقية أي الوضع الخالص للوعي. ويعرف هذا ب وضع الحرية (kaivalya) أو الحرية عن التعلق بكافة الأشياء المادية، والحدود، ونتائج الأعمال، وجميع أنواع المحن والمصائب. وهنا يتجاوز الباحث عن الحقيقة ثلاثية أنواع من

الألم أي adhyatmika الذي يتسببه الجسم والذهن كالحمى، والسعال والتعلق وغيرها، و adhidaivika الذي تسببه الكائنات الحية وغير الحية كالثعبان والحشرات وغيرها، و adhidaivika الذي تتسببه القوة الكونية كالرعد والزلازل وغيرها.

لقد اتضح مما ذكر أن اليوغا عبارة عن عملية لتركيز الذهن بواسطتها على شيء خاص وبهذه الطريقة يبتعد الذهن عن الأشياء الأخرى ليركز على هذا الشيء فقط. عادة ما ، يستنفذ الذهن طاقته من خلال قناة موهوبة من الطبيعة وهي الحواس الخمس والأعضاء الحركية الخمسة. فإذا أصبح المرء قادرا على تركيز ذهنه / ذهنها على شيء واحد، فإنه / فإنها يمكنه / يمكنها أن يجعل ذهنه/ ذهنها أقوى بعشرة أضعاف وبالتالي يمكن استخدام ذلك لكسب معرفة المستوى الأعلى من الحقيقة وأخيرا لتحقيق طبيعته / طبيعتها الحقيقية أي المستوى الخالص من الوعي أو الحرية. يوغا أيضا مفيدة في منع حدوث المرض أو في العلاج والرفاهية الاجتماعية. بواسطة اليوغا، يمكن للمرء أن يتخلص من المرض، والكسل الذهني، والشك، وقلّة الحماسة والحيوية، والخمول، والميل الشديد إلى المتع الحسية، والإدراك الكاذب، واليأس الذي يؤديه الفشل في التركيز، وعدم الثبات في التركيز، والكرب، والقنوط، وارتجاف الجسم، والتنفس غير المنتظم.⁸ ويقول باتانجالي مروج اليوغا ومؤلف كتاب "يوغا سوترا" المشهور، أن حالة السلام المستقرة وغير المتقطعة يمكن تحقيقها من خلال اليوغا بإظهار الصداقة نحو الإنسان السعيد، والرحمة لغير السعيد، والفرحة تجاه الإنسان الفاضل، واللامبالاة نحو الشرير.⁹

علم الأخلاق

إن حالة الحرية التي ذُكرت أعلاه والفوائد اليومية الأخرى يكمن تحقيقها من خلال اليوغا بممارسة الطريق المتكون من ثمان خطوات (asthangamarga) كما جاء وصفها في الفصل الثاني من يوغا سوترا. وإن هذا الطريق ذا ثمان خطوات مصمم ومعني لعامة الناس حتى يمكن للمرء أن ينمي شخصيته إلى المستوى

فلسفة اليوغا عند باتانجالي

الأعلى ويعيش سعيدا وهنيئا في حياته. وهذه الطرائق الثمانية أو الخطوات الثماني في طريق اليوغا هي *ياما* (yama)، ضبط النفس، و *نياما* (niyama) المراعاة، و *آسانا* (asana) وضع الجسم، و *براناياما* (pranayama) التحكم بالتنفس، و *براتيهارا* (pratyahara) انسحاب الحواس، و *دهارانا* (dharana) التركيز، و *دهيانا* (dhiyana) التأمل و *سامادهي* (Samadhi) الاستغراق في التأمل.¹⁰

ياما أو ضبط النفس

يتكون ال *ياما* من *أهيمسا* (اللاعنف) أو الاحتراز عن جميع أنواع العنف أو الإصابة لأي شخص، والصدق (ساتيا) في الفكر والكلام، و الابتعاد عن السرقة (asteya) والسيطرة على الشهوات والرغبات والمتع البدنية غير الأخلاقية (brahmacharya) وعدم قبول هدايا من غير استحقاق من الآخرين. تشكل أشكال ضبط النفس هذه القواعد الأساسية للسلوك. ولا بد من العمل بها بدون أي تحديد أو تقييد للزمان أو المكان أو الطبقة والعرق وغير ذلك. بممارسة اللاعنف يمكن للمرء أن يكون بلاعدو، وبممارسة الصدق يمكنه أن يحقق دائما نتائج إيجابية، وبممارسة الاحتراز عن السرقة يمكنه أن يكتسب الثروة؛ وبممارسة السيطرة على الرغبات غير الشرعية يمكنه أن يكتسب القوة الروحية؛ وبدعم قبوله هدايا من غير استحقاق من الآخرين يمكنه أن يحصل على معرفة الحياة في الماضي والحاضر والمستقبل.¹¹

نياما أو المراعاة

يتكون *نياما* من تطوير العادات الحسنة التالية: *ساوشا* أو تطهير الجسم بالغسل وتناول الطعام النقي وتطهير الذهن بتطوير عواطف جيدة ومشاعر نبيلة، و *سانتنوسا* أو عادة الاقتناع بكل ما يحصل للمرء بدون الجهد، و *تاباس* أي الكفارة التي تتكون من عادة تحمل البرد والحرارة وغيرها، و *سفادهيائي* (svadhyaya) أو العادة المنتظمة لدراسة الكتب الجيدة و *ايسفارابانيدهاران* (isvarapanidhana) أي التأمل والفناء في الله. وبواسطة ممارسة التطهير، ينفصل المرء عن جسمه وجسم الآخرين. وعلاوة على هذا، يحقق المرء تطهير القلب والهناء الفكري، وقوة التركيز،

والسيطرة على العواطف ويتأهل لتحقيق طبيعته الحقيقية أي الوعي الخالص. ويكونه مقتنعا يمكن للمرء الحصول على السعادة القصوى. وبممارسة الكفارة تزول الشوائب ويكتسب الجسم والحواس القوة الخاصة. وكننتيجة العادة المنتظمة لقراءة الكتب الجيدة يحقق المرء رضا إلهه. وبممارسة التأمل والاستسلام لله يحصل المرء على وضع سامادهي أو الاستغراق في التأمل.¹²

آسانا أو الأوضاع

يعني آسانا أو الوضع وضع اليدين والقدمين وغيرهما على وضع معين مع السعادة. ويجب ممارسة هذا الوضع بهدوء وراحة وعلى أساس الميل الطبيعي للجسم، بممارسة هذا الوضع يتجاوز المرء الزوج الأضداد التي يتسبب فيها تجارب الحواس.¹³

بارانياما أو ضبط التنفس

وهو عبارة عن تنظيم التنفس. ويتكون من تعليق عملية التنفس إما بعد إطلاق النفس (recaka) أو بعد الاستنشاق (puraka) أو بمجرد ضبط النفس (kumbhaka). ويجب ضبط التنفس وفقا للزمان والمكان وعدد محدد من اللحظات حتى يمكن زيادة مدة ضبط النفس. وبممارسة هذا يزول غطاء النور الداخلي ويصبح الذهن متأهبا للتركيز (dharana).¹⁴

وأما باراتياهارا (prayatahara) فهو عبارة عن سحب الحواس عن الأشياء المطوية. وممارسة هذا تعطي المرء السيطرة الكاملة على الأعضاء. (الأعضاء الحسية أو الحواس والأعضاء الحركية)¹⁵.

ويعني دهارانا (Dharana) تركيز الذهن على شيء معين¹⁶ و مرغوب فيه. وهو عبارة عن التدفق غير المنقطع للفكر نحو الشيء الذي يركز عليه الذهن¹⁷. الـ سامادهي أو الاستغراق في التأمل عبارة عن وضع يدرك المرء فيه شيئا في صدق طبيعته بعيدا مطلقا عن تشوهات تخيلنا¹⁸. وعندما يتم تطبيق كل ذلك معا على شيء معين فإن هذه الأشياء يطلق عليها سامياما (samyama).¹⁹

فلسفة ال يوغا عند باتانجالي

ويممارسة سامياما يتعلى المرء بالحكمة المميزة (prajna)²⁰. وتؤدي هذه الحكمة المميزة إلى تحقيق طبيعته أي الوضع الخالص من الوعي أو كايافاليا (kaivalya) أو الحرية.

-
- ¹ Yogsutravyasabhashya 1.2
 - ² Yogasutra 11.3
 - ³ Yogasutra 1.24-29
 - ⁴ Yogasutra 1.7
 - ⁵ Yogsutravyasabhashya 1.2
 - ⁶ Yogasutra 1.17
 - ⁷ Yogasutra 1.7
 - ⁸ Yogasutra 1.30-31
 - ⁹ Yogasutra 1.33
 - ¹⁰ Yogasutra II.29
 - ¹¹ Yogasutra II.30-31 and Yogasutra II.35-39
 - ¹² Yogasutra II.32 and Yogasutra II.40-45
 - ¹³ Yogasutra II.46-48
 - ¹⁴ Yogasutra II.49-53
 - ¹⁵ Yogasutra II.54-55
 - ¹⁶ Yogasutra III.1
 - ¹⁷ Yogasutra III.2
 - ¹⁸ Yogasutra III.3
 - ¹⁹ Yogasutra III.4
 - ²⁰ Yogasutra III.5

الاحتفال باليوم الدولي لليوغا

أ.د. حبيب الله خان*

لا يوجد لليوغا تعريف واحد، وإنما لها تعريفات متعددة ومتنوعة، كل حسب مقدرة ومعرفة الشخص الذي انبرى لها، وبالجملة أن اليوغا فنٌ وعلمٌ وفلسفةٌ ورؤيةٌ وطريقةٌ ابتكرها العقل الهندي للتغلب على المشاكل الداخلية والخارجية التي كان يواجهها الإنسان الهندي، وهدفها تحقيق النجاة والخلص أو التحرر الروحي من قيود الولادة والوفاة، وفي نهاية المطاف التوحد بالذات الإلهي.

سيحتفل العالم - للمرة الأولى - باليوم الدولي لليوغا في 21 حزيران/ يونيو، وسيُعدّ هذا الاحتفال شرفاً للهند، وتكريماً للفلسفة الشرقية، وتتويجاً للجهود الدبلوماسية التي أطلقتها الحكومة الهندية، بمناشدة رئيس وزراء الهند ناريندرا مودي في الجمعية العامة للأمم المتحدة في اليوم السابع والعشرين من شهر سبتمبر عام 2014م من المجتمع الدولي بتخصيص يوم للاحتفاء باليوغا على مستوى العالم، حيث قال فيما قال: إنه " يجب علينا أن نقوم بتغيير أنماط حياتنا، والطاقة التي لم يتم استهلاكها تُعدّ أنظف طاقة، وبإمكاننا تحقيق نفس المستوى من التنمية والرخاء والرفاهية دون انتهاج طريق الاستهلاك الطائش. وهذا لا يعني أن الاقتصادات سيلحق بها ضررٌ، بل يعني أن اقتصاداتنا ستأخذ طابعا مختلفا. يشكّل الاحترام للطبيعة - عندنا في الهند - جزء لا يتجزأ من الروحانية. ونعتبر خيرات الطبيعة مقدّسة، كما نعتبر اليوغا هديةً قيّمةً جداً من تقاليدنا القديمة، والتي تجسّد وحدة العقل والجسم؛ الفكر والعمل؛ ضبط النفس والوفاء؛ الانسجام بين الإنسان والطبيعة؛

* أستاذ، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليية الإسلامية، نيودلهي، الهند.

الاحتفال باليوم الدولي لليوغا

والنهج الشامل للصحة والرفاهية. إنها لا تقتصر على تمارين الرياضة فحسب وإنما تسعى إلى اكتشاف الشعور بالتوحد مع الذات والعالم والطبيعة، ومن شأنها أن تساعدنا على التعامل مع تغير المناخ من خلال تغيير أنماط حياتنا وخلق الوعي بين سكان العالم، فلنعمل على اعتماد يوم للاحتفاء باليوغا على مستوى العالم.¹ لقد وقع هذا النداء من رئيس الوزراء ناريندرا مودي على آذان صاغية، فاستجاب المجتمع الدولي بموافقته على قرار تخصيص اليوم الواحد والعشرين من شهر يونيو كل عام للاحتفاء باليوغا على مستوى العالم، في 11/12/2014م، في الدورة التاسعة والستين للجمعية العامة للأمم المتحدة بالإجماع دون التصويت والإحالة إلى اللجان، وبدعم 177 بلداً من أصل 193 بلداً عضواً في منظمة الأمم المتحدة. ويطلب لي أن أنقل بهذا المقام اقتباساً من قرار الأمم المتحدة التاريخي بنصه وفصّه "قرار اتخذته الجمعية العامة بشأن السنوات الدولية واحتفالات الذكرى السنوية، وإذ تلاحظ أهمية اختيار الناس، أفراداً وجماعات، أساليب عيش أفضل من الناحية الصحية واتباع أنماط حياة مؤاتية للتمتع بصحة جيدة، وإذ تشدد على أن الصحة العالمية هدف إنمائي طويل الأجل يتطلب توثيق التعاون الدولي من خلال تبادل الممارسات الجيدة الهادفة إلى تكوين أنماط حياة فردية أفضل، خالية من جميع أنواع الإفراط، وإذ تسلّم بأن اليوغا توفر نهجاً شاملاً إزاء الصحة والعافية، وإذ تسلّم أيضاً بأن نشر المعلومات على نطاق أوسع بشأن فوائد ممارسة اليوغا من شأنه أن يعود بالفائدة على صحة سكان العالم.

- تقرر إعلان يوم حزيران/يونيو يوماً دولياً لليوغا؛

- تدعو جميع الدول الأعضاء والدول ذات مركز المراقب ومؤسسات منظومة الأمم المتحدة وسائر المنظمات الدولية والإقليمية والمجتمع المدني، بما في ذلك المنظمات غير الحكومية والأفراد، إلى الاحتفال باليوم الدولي لليوغا، على النحو الملائم ووفقاً للأولويات الوطنية، من أجل التوعية بفوائد ممارسة اليوغا؛

- تؤكد أن تكلفة جميع الأنشطة التي قد تنشأ عن تنفيذ هذا القرار ينبغي أن تغطى من التبرعات؛

- تطلب إلى الأمين العام أن يعرض هذا القرار على جميع الدول الأعضاء والدول ذات مركز المراقب ومؤسسات منظومة الأمم المتحدة".²

وبعد صدور هذا القرار التاريخي تناقلت الصحف العالمية هذا النبأ السعيد، ونشرت مقالات عن مزايا اليوغا وفوائدها الصحية، وتوالت ردود الأفعال والبيانات من الشخصيات العالمية، منهم معالي الأمين العام للأمم المتحدة السيد بان كي مون الذي قال في بيان له: "إن اليوم العالمي لليوغا سيوجّه الاهتمام إلى الفوائد الشاملة لهذه الرياضة، وتستطيع اليوغا أن تسهم في مقاومة الأمراض غير المعدية، كما تستطيع أن تجمع بين المجتمعات بطريقة شاملة تولد الاحترام"، وأضاف قائلاً " إن اليوغا رياضة قادرة على الإسهام في التنمية والسلام، ومن الممكن أن تساعد الناس في الأوضاع الطارئة على تخفيف الشعور بالتوتر".³ وجاء بيان الأمين العام في الوقت الذي كانت تتهافت فيه دول العالم على تقديم التهاني والتبريكات إلى الهند على نجاحها في إقناع الدول بدعم القرار، فقد دعت منظمة الأمم المتحدة جميع البلدان الأعضاء للاستفادة من هذا اليوم العالمي للتعرف إلى مزايا اليوغا وفوائدها الصحية.⁴

وبهذه المناسبة قال مندوب الهند الدائم لدى الأمم المتحدة السيد أشوك كومار موخرجي: " لقد حظي اليوم مشروع القرار بشأن الاحتفال باليوم الدولي لليوغا بتأييد 177 بلداً في الجمعية العامة للأمم المتحدة، بما في ذلك الغالبية العظمى من الدول الأعضاء في جميع المجموعات الإقليمية وشبه الإقليمية، وجميع الدول الخمس الدائمة العضوية في مجلس الأمن الدولي، إن دلّ هذا على شيء فإنه يدلّ على الشعبية الثقافية الكبيرة التي تتمتع بها اليوغا بين أعضاء الأمم المتحدة". وبخصوص تخصيص اليوم الواحد والعشرين من شهر يونيو بالذات وتفضيله على غيره من الأيام، قال رئيس الوزراء ناريندرا مودي: "إنه أطول أيام السنة في نصف الكرة

الاحتفال باليوم الدولي لليوغا

الشمالية، وله فوائد كثيرة من الناحية الصحية".⁵ ويعد هذا التقديم البسيط لكل ما يمتّ بصلة بالاحتفال باليوم الدولي لليوغا، أودّ أن أقدم للقراء الكرام بعض المعلومات الأساسية عن اليوغا.

الجانب النظري لليوغا:

لليوغا جانبان: جانب نظري وجانب عملي. الجانب النظري واسع ومعقدّ وجذوره متغلّطة في الفلسفة الشرقية إلى درجة تجعل فهمه صعباً لمن ليس له إلمام بالفلسفة الشرقية وبالأخص فلسفة الديانة الهندوسية والبوذية والجينية، وأما جانبها العملي فهو سهلٌ ومفيدٌ وأكثر انتشاراً وقبولاً لدى كافة شعوب العالم - بغض النظر عن انتماءاتها الدينية - لما له من فوائد صحية عظيمة لأنه يتعلّق بتمارين بدنية وتنفسية، تقود إلى أنماط الحياة الصحية والقضاء على الأمراض النفسية.

تعريف اليوغا:

لا يوجد لليوغا تعريف واحد، وإنما لها تعريفات متعدّدة ومتنوّعة، كلّ حسب مقدرة ومعرفة الشخص الذي انبرى لها، وبالجملة أنّ اليوغا فنٌّ وعلمٌ وفلسفةٌ ورؤيةٌ وطريقةٌ ابتكرها العقل الهندي للتغلّب على المشاكل الداخلية والخارجية التي كان يواجهها الإنسان الهندي، وهدفها تحقيق النجاة والخلّاص أو التحرّر الروحي من قيود الولادة والوفاة، وفي نهاية المطاف التوحّد بالذات الإلهي.

نشأة اليوغا وتطورها:

من الصعب جداً تحديد بداية اليوغا، ولكن علماء الآثار وجدوا آثارها في أختام تعود إلى حضارة وادي السند التي تُعدّ واحدةً من أولى الحضارات العالمية العظيمة، والتي ازدهرت قبل نحو 4500 عام، ويُعتقد أنّ الحكيم ياجنالفالكيا هو الأول من أسسها،⁶ ثم جاء الحكيم باتانجلي الذي دوّنّها في كتاب "يوغا سوترات"، والأوبانيشادات التي وضعت في القرن السادس/السابع قبل الميلاد، تطرح مفاهيم اليوغا، وترتبط الفلسفة الهندية القديمة ارتباطاً عميقاً باليوغا. إن كلمة اليوغا مشتقة من كلمة سنسكريتية "يوج" أو "يوكي" أو "يوكينغ" معناها التوحّد، وتُعدّ اليوغا واحدة

من الأنظمة الأوثوكسية الستة للفلسفة الهندية، والتي أثرت بشكل كبير في عدد من المدارس الأخرى للفكر الهندي، ونصّها الأساسي هو "يوغا سوترات" التي دونها الحكيم باتانجلي في القرن الثاني قبل المسيح.⁷

للديانة الهندوسية اتجاهات عديدة، إحداها تفيد أن اليوغا ليست غايةً في حد ذاتها، وإنما هي وسيلةٌ لتتقّية الإنسان عبر ولادات متكررة في هذه الدنيا وهي ما يُعرف بنظرية تناسخ الأرواح، والإنسان عبر ممارسته اليوغا بمراحلها المختلفة ينقي روحه، والمرحلة الأخيرة من اليوغا تُسمّى بـ "السمادهي"، وبعد أن يتجاوز الإنسان بنجاح هذه المرحلة يتحرّر من قيود الولادة والوفاة، ويتوحد مع الذات الإلهي، ولهذا السبب تعني كلمة اليوغا الوحدة أو التوحد، ولكن مع مرور الزمن أصبحت بعض مراحل اليوغا غايةً بذاتها، وخاصة مرحلة تمارين التنفّس ووضعيات الجلوس.⁸

ويقول البروفيسور إن. في. راغورام من جامعة سوامي فيفيكاناند لليوغا بيانغور: "إن باغوادغيتا يُعدّ أول كتاب يتناول موضوع راجا يوغا (raja yoga) وكارما يوغا (karma yoga) وباكتي يوغا (bhakti yoga)، وغيانا يوغا (gyana yoga)، ويقدم لنا شرحاً وافياً لكل أنواع اليوغا".⁹

أنواع اليوغا وأقسامها:

فيما يتعلق بعدد أنواع أو أشكال اليوغا فهناك اختلاف بين منظريها وممارسيها، أذكر على سبيل المثال أن سوامي فيفيكاناند (1863-1902) الراهب والفيلسوف الهندوسي الذي لعب دوراً كبيراً في تقديم فلسفة فيداننا الهندية واليوغا إلى الغرب، ذكر في كتابه¹⁰ أربعة أشكال فقط، وهي: "كارما يوغا" و"باكتي يوغا" و"راجا يوغا" و"غيانا يوغا"، وبينما ذكر بينجامين والكر مؤلف الموسوعة الشهيرة (HINDU WORLD) ما يلي من الأشكال البارزة :

- 1- كارما يوغا لتحقيق النجاة والخلص عن طريق الأعمال.
- 2- باكتي يوغا لتحقيق النجاة والخلص عن طريق العقيدة والعبادة.
- 3- غيانا يوغا لتحقيق النجاة والخلص عن طريق المعرفة.

الاحتفال باليوم الدولي لليوغا

- 4- مانترا يوغا لتحقيق النجاة والخلاص عن طريق الأدعية.
- 5- لايا يوغا لتحقيق النجاة والخلاص عن طريق تفعيل "تشاكراس" المراكز الخفية في الجسم.
- 6- هاتا يوغا لتحقيق النجاة والخلاص عن طريق الثقافة البدنية أي تحمّل المشاق.

7- راجا يوغا لتحقيق النجاة والخلاص عن طريق الثقافة الروحانية.¹¹ وبعد أن اطلعنا على أشكال اليوغا وأنواعها المختلفة يجب أن نعرف أنّ شكلها يتغيّر مع تغيّر هدفها، فإذا كان الهدف التحرّر الروحي فيختلف شكلها ممّا يكون هدفه اكتساب الطاقة العقلية، أو القوى البدنية، ولكلّ شكل اليوغا يوجد عددٌ معيّن من المراحل/ الأجزاء التي يتعيّن على ممارس اليوغا تجاوزها في رحلته نحو التحرّر الروحي أو كسب المعرفة، نذكر فيما يلي مراحل/أجزاء بعض شكل اليوغا:

- في راجا يوغا 15 مرحلة أو جزء
 - في مانترا يوغا 16 مرحلة أو جزء
 - في باغتي يوغا 9 مراحل أو أجزاء
 - في لايا يوغا 10 مراحل أو أجزاء
 - وفي هاتا يوغا 8 مراحل أو أجزاء¹²
- مراحل أو أجزاء هاتا يوغا كما يلي:**

الياما: وهي مكونة من خمس قواعد أخلاقية تحت على الصدق وعدم العنف وعدم السرقة وعدم الأثانية و الاعتدال في كل الأمور.

النياما: وهي مجموعة من خمس خصال يجب السعي إليها واكتسابها وهي النقاء والقناعة ورباطة الجأش والاعتراف بالوجود الإلهي و دراسة النصوص الدينية.

الأسانات: وهي وضعيات الجلوس والحركات البدنية المصمّمة لمدّ وتقوية الجسم والحفاظ على أقصى قدرته ومرونته.

البراناياما: وهي تمارين تنفسية تهدف إلى التحكم بالتنفس ومن خلاله تقوية العقل والجسم.

البراتياهارا: وهي الخطوة التي تهدف إلى اكتساب السيطرة على الحواس الخمس.

الدهارنا: وهي الخطوة الأولى نحو تركيز العقل والبدء في توجيهه نحو مناطق معينة بحسب الإرادة.

الدهيانا: وهي الخطوة الثانية نحو تركيز العقل مع بذل الجهد لتوسيع الوعي وزيادة حساسية العقل خلال التأمل.

السامادهي: وهي الذروة النهائية للسيطرة على العقل والجسم والروح أي الحالة التي يكون الإنسان فيها متوحداً مع قوة عليا خارج ذاته أو بعبارة أخرى حالة النعيم الفائق، ويتجسد هذا أثناء الجلوس التأملي ولكن الطريقة المستخدمة هي المرحلة الثالثة "الأسانات" والمرحلة الرابعة "البرانايامات".

هذه المراحل أو الأجزاء الثمانية تُعتبر مراحل نموذجية، وأما مراحل أشكال اليوغا الأخرى سواء كانت زائدة أو ناقصة مبنية على هذه المراحل/الأجزاء.¹³

الجانب العملي لليوغا:

كما ذكرتُ آنفاً أن الجانب العملي لليوغا هو الأنفع والأهم، وهو الذي أخرج اليوغا من القوقعة الهندية - التي كانت مقتصرة على طبقة البراهمانا والرهبان والأديرة لعدة قرونٍ من الزمن - إلى العالم الأوسع والأرحب، حيث نرى أن في القرن العشرين مع تقدم العلم والمعرفة عبرت اليوغا حدود الهند ووصلت إلى أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، وكان الراهب والفيلسوف فيفيكاناند من الرواد الأوائل الذين قدموا اليوغا إلى العالم الغربي، وبهذا الصدد تفيدنا الموسوعة البريطانية أن في القرن العشرين بدأت فلسفة اليوغا وممارستها تكتسب شعبية كبيرة بشكل متزايد في الغرب وبالأخص في الولايات المتحدة الأمريكية حيث قام السيد باراماهانسا يوغاناندا بتأسيس أول تنظيم لممارسي اليوغا باسم Self-Realization Fellowship (زمالة الإدراك

الاحتفال باليوم الدولي لليوغا

الذاتي) في عام 1920م، ثم بعد حوالي خمسين سنة قامت عدد من المنظمات المعنية باليوغا بتوفير الكتب والمعلومات عن فوائد اليوغا الصحية والروحانية.¹⁴ لقد وجد العلماء والأطباء الكبار على مستوى العالم أن اليوغا مفيدة للغاية لجميع الناس، لأنها تُعدُّ أعمق دراسة للعقل الإنساني في تاريخ البشرية، ويمكن أن يستفيد منها العالم بأسره في هذا العصر الذي يكتنظُ بالمشاكل الطبية والخلل النفسية التي تخلفها ضغوط العالم المادي، والتي - على ما يبدو - لا علاج لها غير اليوغا، فمن خلال ممارسة اليوغا يتعلّم الإنسان كيفية العيش لحظةً بلحظةً مع الوعي الكامل بما يفعله وبما يدور في ذهنه، وأما الإنسان الذي لا يمارس اليوغا فهو لا يقدر على التحكم بعقله، وفي معظم الأحيان لا يعي بما يفعله، فهو دائماً مشغول بالماضي والمستقبل ولا يعرف كيف يدير حاضره، واليوغا تعلّم الإنسان الوعي الذاتي الحقيقي ماوراء الجسد والعقل، ويكسب الإنسان هذا الوعي تدريجياً، أولاً عن جسده، ولايستطيع أن يكسب الوعي عن جسده دون أن يعرف قيمة التنفّس، ولذا تولي اليوغا اهتماماً كبيراً بتعليم كيفية التحكم بالتنفّس، ومن هنا يبدأ التحوّل الحقيقي في حياة الإنسان، وهو يسيطر على تنفّسه من خلال مراقبته مراقبة دقيقة، ثم يطلب من جسده أن يجلس في وضعٍ معين، ثم يأمره بأن يمتدّ بطريقة معينة، وبهذه الطريقة يدخل الإنسان تدريجياً في عالم يتّسم بالوعي والانضباط ويبتعد تدريجياً عن عالم تسوده أحداث غير واعية وغير منسّقة، إن حركة أعضاء الجسم في اليوغا المعروفة بـ الآسانات (asanas) تمثّل تمارين جسدية، يتم ممارستها بالتنسيق الكامل مع التنفّس، وبذلك يتم تحقيق إيقاع متناسق بين العقل والتنفّس والحركة، وبهذا يتّجه الإنسان إلى وعي العقل بنفسه، إن اليوغا والأفكار الهندية القديمة لا تعتبران العقل بأنه أعظم وأعلى من أعضاء الجسم الأخرى، فإن العقل من نواح عديدة مثل جسد الإنسان، يجب عليه أن يدرك ماذا يعمل؟ عادةً ينتقل العقل من فكرٍ إلى فكرٍ، تصف الأوبانيشاد العقل بأنه مثل القرد الذي يقفز باستمرار. وعادةً، يقع الإنسان في الحالة المترددة للعقل ويتبع الأفكار والعواطف

التي تأتي معها، وفي اليوغا والتأمل يتتحى الإنسان جانباً ليصبح مراقباً، لكي يرى ما يفعله العقل، دون الانجرار وراء انحرافاته، وهذا هو السكون والهدوء الذي يبحث عنه الإنسان، دون أن يتأثر بتقلبات العقل المتغيرة باستمرار، ودون التأثير بالهجوم المستمر على مفاهيمه عن الطبيعة المتغيرة للعالم الذي حوله، وتصف "يوغا سوترات" اليوغا بأنها توقف الموجات أو المفاهيم الخاطئة من العقل، وتقول الكاثة أوبانيشاد: " من يخلو من الرغبة يخلو من الحزن، مع العقل والحواس الهادئة ينظر إلى مجد الروح".¹⁵

اليوغا أولاً وقبل كل شيء تعلم ممارستها الانضباط العقلي والبدني، كما يتبين من أجزاء اليوغا المعروفة باسم آشتانغا، والتي ذكرناها آنفاً وهي: الياما والنياما والآسانات والبراناياما والبراتياهارا والدهارنا والدهيانا والسماهي، منها الخمسة الأولى تتعلق بالانضباط، والثلاثة الباقية هي النتيجة لممارسة الخمسة الأولى، وبعبارة أخرى أن الياما تتعلق بقواعد السلوك مع العالم حول الإنسان، والنياما تتعلق بالانضباط الخلفي داخل الإنسان، والآسانات تهدف إلى إعداد الجسد لتمديد دروس للتنفس، والبراناياما تتعلق بالانضباط التنفسي ليتسنى لـ "برانا" طاقة الحياة أن تدور في كافة أعضاء الجسد، ثم تأتي البراتياهار التي تتعلق بالسيطرة على الحواس الخمسة، والتي تنقل الإنسان من العالم الخارجي إلى ما هو في داخله، ثم تأتي الدهارنا والدهيانا اللتين تتعلقين بالتركيز المكثف، وفي الأخير تأتي السماهي التي تتعلق بتجاوز المرء محدوديات (قيود) الجسد والعقل، وبذلك يحقق المرء الحالة الحقيقية لليوغا.¹⁶

وغير أن الفيلم الوثائقي بعنوان " اليوغا : رؤية قديمة للحياة " من إخراج بينوي كيه بهيل، يلعب دوراً كبيراً في تثقيف الناس بالمعنى الحقيقي لليوغا، والفيلم يفيد أن اليوغا تشكل - في الواقع - أساساً لكثير من المعتقدات الروحانية الهندية، هدفها تحقيق سكون العقل وتوحيده مع القدرة الإلهية الموجودة في كافة المخلوقات، وما هي الحركات البدنية (الآسانات) (*asanas*) إلا إحدى الخطوات نحو تحقيق هذا

الاحتفال باليوم الدولي لليوغا

الهدف. وتعدّ اليوغا جزءاً أساسياً لـ "الرؤية الهندية للحياة". في الدول الغربية جرت محاولات على مدى القرون لدراسة العالم الخارجي من أجل صياغة الفهم العلمي للسيطرة عليه، ولكن في الهند قبل بضعة آلاف سنة، لا أحد يعرف متى بالتحديد، أدرك المفكرون أن الأهداف والطموحات المادية لا تؤدي إلى السعادة الحقيقية ولا حتى إلى الصحة الجيدة، فإنهم بدأوا بوضع خريطة للعالم الذي يوجد في داخلنا، واكتشافه وإيجاد طرق تؤدي إلى السعادة الحقيقية المستدامة، اليوغا هي علم العقل والحياة والعالم الداخلي، وتعدّ اليوغا في مظاهرها المختلفة العديدة طريقاً مؤدية إلى المعرفة النهائية والسعادة النهائية، وما من شك في أن الحركات البدنية (الآسانات) (*asanas*) لها أهميتها ولكنها لا تشكل إلا جزءاً صغيراً من ممارسة اليوغا.¹⁷ آراء الأطباء وغيرهم من العلماء من داخل الهند وخارجها حول فوائد ممارسة اليوغا بانتظام:

يقول أليكس هانكي، من معهد سوامي فيفيكاناند للبحوث في اليوغا، بجامعة اليوغا، بيانغور، إن ما يُقدّر على نطاق واسع هو أن ممارسة اليوغا تؤدي إلى تطوير الإبداع وتحقيق الهدوء الداخلي واكتساب القدرة العالية على التحكم بالعواطف وزيادة الذكاء العاطفي وتخفيف التوتر والإجهاد، وفي الواقع، يفيد المبدأ الثاني (*Sutra*) من مبادئ اليوغا أن هذا هو نظام لتخفيف الإجهاد، وهو نظام عميق جداً، فإن العلم الحديث لا يقبل الأشياء بسهولة، كما لا يعتبر الأشياء أمراً مسلماً به، لا سيما إذا يتعلق بالتقاليد القديمة.

نحن نعرف من الغرب أن ما كتبه أرسطو صار اليوم هراءً لا قيمة له، ومع أنه كان ذكياً جداً، وينظر اليوم إلى ما كتبه في الفيزياء والميتافيزياء بنظرة الشك والارتياب تماماً، وثبت أنه كان مخطئاً، ويسود الافتراض في الغرب أن أي معرفة من المعارف القديمة لن تبقى صحيحةً عند الفحص والاختبار، ولكن فيما يتعلق باليوغا فإن البحوث التي تجري منذ ثلاثين أو أربعين عاماً لم تقدر الطعن في نظرية اليوغا بل تظهر صحتها.

هيربيرت بينسون، الرئيس الأسبق لمعهد بينسون هينري والبروفيسور في قسم طب العقل والجسد، بمدرسة الطب، بجامعة هارفارد، وأحد أهم خبراء الطب الحديث، يُعدّ واحداً من المؤسسين لطب العقل والجسد، وكان بحثه في مجال طب العقل والجسد قد نتج عن البحث الكلاسيكي في التأمل الذي تعلّمه اليوغا، يُعدّ ذلك البحث مصدر إلهام في جميع أنحاء العالم.

ويقول الدكتور بي. إن. غانغادهار، من المعهد القومي للصحة العقلية وعلوم الأعصاب بيانغور إننا نقترح بعض تمارين اليوغا لمرضى الفصام والاكنتاب والاضطراب النفسي وفقدان الذاكرة لدى كبار السن، وبما أن الدماغ يستطيع أن يُصلح نفسه بمساعدة المادة الكيميائية المعروفة بـ عامل التغذية العصبية المشتق من الدماغ، ورأينا أن اليوغا تساعد على زيادة مستوى هذا العامل لدى مرضى الاكنتاب، لذا يمكننا القول إن معالجة مرضى الاكنتاب ممكنة عن طريق اليوغا، وننصح مرضى الاكنتاب الذين يتعاطون العقاقير المضادة للاكنتاب بممارسة اليوغا لتحقيق النتيجة الأفضل والأسرع، ومازلنا نبحث في الأسباب التي تجعل اليوغا مفيدة في مرض الفصام، وحققتنا في هذا الاتجاه بعض التقدم الذي يُفيد أن هرمون الأوكسيتوسين أو ما يُسمّى بـ هرمون الحزن الذي يجعل الناس أكثر إحساساً بالعواطف والمفاهيم العاطفية، تزداد مستوياته بشكل كبير في دم مرضى الفصام من ممارسة اليوغا لمدة شهر.

ويقول القس غيوميو ناكامورا، مؤسس شانتى استوبا في ليه بجمو وكشمير: "احتضن الشعب الياباني اليوغا في العصور القديمة، وفي نفس الوقت التقطوا كارما يوغا التي لا تأتي إلا من "سيوا" أي الخدمة، فمنذ ذلك الوقت دخلت الكلمة السنسكريتية أو الهندية "سيوا" في اللغة اليابانية".¹⁸

يقول فاماديفا شاستري من المعهد الأميركي للدراسات الفيديّة في سانتا بكاليفورنيا: "في الغرب، يوجد التركيز على اليوغا من حيث "الآسانات" (*asanas*) ، ولا ندرك أن الممارسة العادية لليوغا في الهند أو في كافة أنحاء العالم تاريخياً تُعدّ

الاحتفال باليوم الدولي لليوغا

باكتي يوغا، أو يوغا الصلاة أو العبادة".¹⁹ وهذا القول ينطبق على جميع الممارسين لليوغا بغض النظر عن انتماءاتهم الدينية والوطنية، فإنهم يمارسون اليوغا من أجل جني الفوائد الصحية فقط، ولهذا السبب نجد أن موجة اليوغا تجتاح في الوقت الحاضر، كافة مجالات الحياة سواء كانت مجالات اللياقة البدنية، أو الطب، أو علم النفس أو علم الاجتماع أو الفلسفة أو غيرها من المجالات، كلُّها يستفيد من اليوغا بشكل كبير. وما من شك في أن تقدّم العلم والمعرفة الذي أدى إلى الانفتاح العالمي، وبفضل وجود وسائل الإعلام القوية والسريعة جدا التي تعمل على خلق الوعي الكبير بين الناس حول الأمور الصحيّة، نرى إقبالا كبيرا على ممارسة اليوغا ليس في الهند فحسب، وإنما في جميع أنحاء العالم، ولاسيما في أوربا والولايات المتحدة الأمريكية حيث تفيد الإحصائيات الأخيرة، أن في الولايات المتحدة وحدها أكثر من ثلاثين مليون نسمة أي 13% من إجمالي عدد السكان يمارسون اليوغا، وكذلك يتم ممارسة اليوغا في الوقت الحاضر في 78 بلداً من بلدان العالم، حيث نرى أن آلاف الأشخاص ينضمون إلى ممارستها سنوياً، وهم يعتبرون اليوغا نوعاً من الرياضة البدنية، وتساهم اليوغا في تغيير نظريتهم نحو أنفسهم وحياتهم.²⁰ إن دلّ هذا على شيء فإنه يدلّ على أن اليوغا إرث ثقافي للجميع، و إعلان الأمم المتحدة باليوم الدولي للاحتفاء باليوغا سيساهم في تعميم فوائدها على جميع الشعوب في العالم.

المصادر والمراجع:

1- كلمة رئيس وزراء الهند، أمام الدورة التاسعة والستين للجمعية العامة للأمم المتحدة في 2014/9/27م، الموقع الرسمي لحكومة الهند (pib.nic.in) بتاريخ 2014/9/27م.

2- نص قرار الأمم المتحدة حول الاحتفال باليوم الدولي لليوغا في 2014/12/11م، الموقع الرسمي:

<http://daccess-dds-ny.un.org/doc/UNDOC/GEN/N14/689/59/PDF/N1468959.pdf?OpenElement>

- 3- صحيفة الرياض الصادرة من مؤسسة اليمامة الصحفية بالرياض/ العدد رقم : 16971، بتاريخ 2014/12/12م
- 4- جريدة النهار اللبنانية / العدد الصادر في اليوم 2014/12/20م
- 5- جريدة دي تايمز آف إنديا / العدد الصادر في 2014/12/11م
- 6- بينجامين والكر، HINDU WORLD, Volume II (M-Z), Munshiram Manohar Lal Publishers Pvt. Ltd, 1983
- 7- الموسوعة البريطانية / The New Encyclopedia Britannica, Volume 12, Page 846, 15th Edition, New Delhi, 2010
- 8- نفس المصدر، ص 846
- 9- بينوي كيه بيهل، مجلة فرونت لائين، المجلد 32، العدد3، فبراير7-20، ص75.
- 10- للتفصيل راجع كتاب سوامي فيفيكاناند، The Complete Book of Yoga, SOLAR BOOKS,4239A/1, Veer Sadan, Ansari Road, Darya Ganj, New Delhi, 2010
- 11- بينجامين والكر، HINDU WORLD, Volume II (M-Z), Munshiram Manohar Lal Publishers Pvt. Ltd, 1983, page 616-618
- 12- نفس المصدر، ص 616-618
- 13- نفس المصدر، ص 616-618، و ويكيبيديا اليوغا على الموقع.
- 14- الموسوعة البريطانية / The New Encyclopedia Britannica, Volume 12, Page 846, 15th Edition, New Delhi, 2010
- 15- بينوي كيه بيهل، مجلة فرونت لائين، المجلد 32، العدد3، فبراير7-20، ص67-79
- 16- نفس المصدر المذكور أعلاه
- 17- نفس المصدر المذكور أعلاه
- 18- نفس المصدر المذكور أعلاه
- 19- نفس المصدر المذكور أعلاه
- 20- نفس المصدر المذكور أعلاه

الراج يوغا و أوجه الشبه بينه و بين التصوف الإسلامي

أ.د. محمد ثناء الله الندوي*

تتصدر الهند تاريخ الإنسان المعرفي و الثقافي في سياق التشييد المفاهيمي الفلسفي و الصوفي الذي قام به العقل الهندي عبر آلاف من السنين ، إستهلالا بالفيدات الأربعة (راج فيدا، سام فيدا، أثروا فيدا، و يجر فيدا) و الأبنيشاد و برهم سوترا، و الذي تسنم بدور تشعبت جوانبها في رسم دائرة قطبية فحوها التواصل والتفاعل مع التحرك المعرفي و الثقافي العام في كل منطقة جاورت الهند عن قرب أو بعد يحيط شرق وغرب آسيا البعيدين (حضارات أنكا، والخمير، والحضارات البابلية والحميرية والسبائية والفرعونية و الحبشية و حتى النوميديّة)¹ وذلك بطبيعة الحال لأجل ما تشكل من هوية متميزة لكل ما هو هندي في مضامير الموروث والمبدع من حكمة وأدب (ابن صاعد الأندلسي يعرف الهند بأنها بلاد الحكمة)² ولأجل موقعها الهام في كل ما تشكل من الرصيد المعرفي و الثقافي في مناطق غرب آسيا إثر مواكب حضارية قادتها إمبراطوريات هندية قديمة مثل إمبراطورية موريا (322-185 قبل الميلاد) و الهيلينيستية الهندية (180 قبل الميلاد - 10 الميلادي) في أفغانستان و إيران، و تأثير الفيدات (أثروا فيدا بخاصة) على الزردشتية، إضافة أثر الهند البارز على خريطة عالم الرحلات والملاحة البحرية والتجارة والاستكشاف، مصحوباً بدور لغوياتها المعترف بها والمبرهن عليها بما حققه الباحثون اللغويون ومؤرخو الآداب السنسكريتية

* أستاذ، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة علي كره الإسلامية، علي كره، الهند

والفارسية والعربية³، وأمثلة صفر العرب و النجوم⁴ وفكرة آواجون أي تناسخ الروح والنجاة الأبدية (نروانا) واهتمام البرامكة وهم هنود بوذيون⁵ استوطنوا بلخ - باكتريا القديمة (Bactria) التي كانت من أهم مراكز الثقافة البوذية في منطقة ما وراء النهر- ثم اعتنقوا الإسلام في مسيرة التاريخ) باستقدام الحكماء والأطباء من الهند في بلاط العباسيين، ونقلت كمية لا يستهان بها من الرصيد الهندي في الآداب والحكمة والطب (كلية ودمنة، كتاب يوذاسب، كتاب أدب الهند والصين، كتاب السند هند الكبير، و سواها) واعتقاد المعري بأنه من جنابة أبيه، وأنه لم يجن على أحد،⁶ يشكل تعريفاً عاماً للروافد الهندية في تهائم العروية وأنجادهما. على أن البحث بين يدي القارئ يخاطب البعد المعرفي الصوفي المتفاعل بين ثقافتين عالميتين متجاورتين: هندية هندوسية و عربية إسلامية في نقطة بؤرية هي معالجة كثافة المدركات الحسية التي طالما حالت دون تقرب الإنسان الشهودي أو الوجودي إلى حقيقة الحقائق أو إله الكون، و إيجاد آليات للتصفية النفسية المصحوبة بالإرتقاء الروحي في اليوغا و التصوف}.

هيكلية اليوغا العامة وخصوصيات الراج يوغا: إن منظومة اليوغا من أهم ما أتحتت به الهند الإنسانية في سياق معرفة الوجود و آلية الكثافة المادية و تحلية القلب و تزكية النفس، إذ بذلك تتأهب النفس للإرتقاء الروحي، هذه النفس التي هي ورقاء ذات تعزز و تمنع، و التي هبت إلينا من المحل الأرفع (كما يقول الشيخ الرئيس إبن سينا في قصيدته العينية في النفس)⁷، و التي لا بد أن تتعرج إلى ما هبت منها خلال دوران مكاني على أديم الخلق و الأمر، و في عوالم اللاهوت و الملكوت و الجبروت و الناسوت.

معروف أن لليوغا ثمانية عناصر، يسميها الحكيم باتانجالي الفيلسوف ومؤسس رياضة اليوغا بـ"أشتانج يوغا" أو أطراف اليوغا الثمانية، و هي:

(1) الياما: यम سلسلة مكونة من خمس قواعد أخلاقية تحت على الصدق

وعدم العنف و عدم السرقة و عدم الأنانية و الاعتدال في كل الأمور.

الراج يوغا و أوجه الشبه بينه وبين التصوف الإسلامي

- (2) النياما: नियम وهي مجموعة من خمس خصال يجب السعي إليه واكتسابها وهي النقاء والقناعة والاعتراف بالوجود الإلهي و دراسة النصوص الدينية.
- (3) الآسانات: आसन هي الأوضاع والحركات التي يقوم بها الجسم ، والمصممة لمد وتقوية الجسم والحفاظ على أقصى قدرة ومرونة له.
- (4) البراناياما: प्राणायाम تلك هي الخطوة التالية على طريق التطور وهي دراسة و استخدام التنفس لمساعدة العقل والجسم.
- (5) البراتياهارا: प्रत هي بداية الدراسة لاكتساب السيطرة على العقل وليصبح المرء مدركا لحساسية العقل الفائقة لجميع ما حوله.
- (6) الدهارانا: هي الخطوة الأولى نحو تركيز العقل والبدء في توجيهه نحو مناطق معينة بحسب الإرادة.
- (7) الدهيانا: धيان تلك مرحلة تالية من مراحل السيطرة على العقل مع بذل الجهد لتوسيع الوعي وزيادة حساسية العقل.
- (8) السامادهي: समाधि تلك هي الذروة النهائية للسيطرة على العقل والجسم والروح أي الحالة التي يكون الإنسان فيها متوحدا مع قوة عليا خارج ذاته أو بعبارة أخرى حالة النعيم الفائق، ويتجسد هذا أثناء الجلوس التألمي.

تحليل منظومة اليوغا في إطار هيكلية المعرفة و العبادة و العمل الهندوسية

يؤدي إلى تقسيم آخر، هو:

1. الهاثا يوغا हठयोग
2. الكارما يوغا कर्मयोग
3. الجانا يوغا ज्ञान योग
4. البهكتي يوغا भक्ति योग

5. الراجا يوغا **राज योग** (و تسمى أيضا الليا يوغا و الكندلنى يوغا، أو تتداخل خطوطها و تتقاطع فى هيكلها العام).

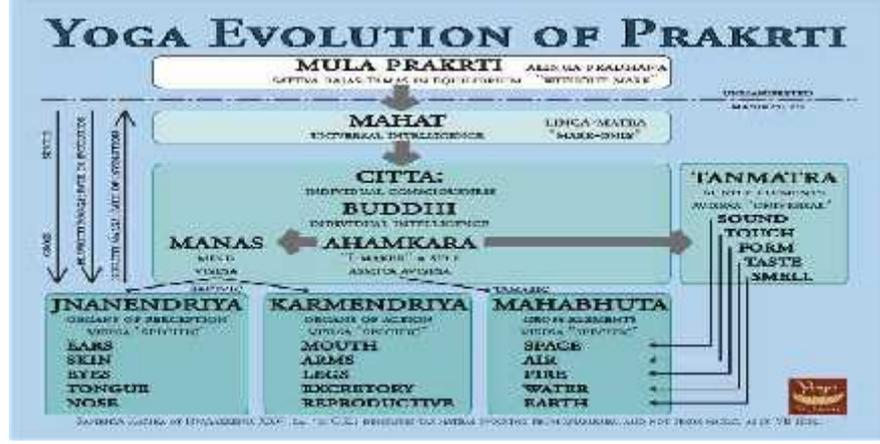
تحتل الراج يوغا أسمى مكانة ضمن مدارس اليوغا المتعددة لمرجعياتها الفلسفية و الدينية التى تساندها فلسفة سانكهيا (**सांख्य Samkhya**) المعتمدة أساسا على المنهج الإبستمولوجي الذى يؤسس هيكله التطويري على مبادئ ثلاثة من **प्रमाणः Pramanas** : الإدراك: برتيكسه: **प्रत्यक्षा Pratyaksa** ، و الإستدلال: أنومانا : **Anumana** و النص: شيدا: **शब्द Sabda** .

إن ميتافيزيقا اليوغا مبنية على الأسس الإزدواجية لمدرسة سانكهيا التى تعتبر الكون عبارة عن ثنائية المادة (الطبيعة) و الروح (الوعي) (بركرتى و بروشه). الكائن الحي (جيو) حالة تنقيد فيها الروح بالمادة مع سلسلة من الملابسات فى سياق الإدراك و الشعور والتعبير و السلوك و العمل. و قد يسطو جانب المادة على الروح فى حالات قلة الإتران أو الجهل، فيتقوى الشعور بالتنقيد، و القضاء على هذا التنقيد هو النجاة أو الموكشا الذى يشكل النقطة البؤرية فى كل من مدارس اليوغا و فلسفة سانكهيا و ديانة الهندوس.⁸

مدرسة الراج يوغا متأصلة الجذور فى عدد من المراجع الهندوسية القديمة، منها: كته أوبنيشاد ، و ميترى أوبنيشاد ، و شويت أشويترا أوبنيشاد، و يوغ سوترا لباتتجلى، و يوغ ساشترا لداتاتريه (**Dattatreya**)، و سواها من المصادر القديمة. أما المصادر الحديثة، فمن أهمه سوامى فيفيكاناندا (1863-1902م) فى كتابه: **الراج يوغا (The Raja Yoga)**.⁹

إن منظومة اليوغا و منها أقصى درجاتها و هى الراج يوغا مؤسسة على دراسة القوى الطبيعية فى الجسم الإنسانى داخل علاقتها مع ما هو وراء الطبيعيات، وفق الرسم التالى:

الراج يوغا و أوجه الشبه بينه وبين التصوف الإسلامي



يمكن القول في سياق تحليل هذا الرسم أن الوجود الأعلى أو المادة الأزلية وهي "مولا بركرتي" و "ألنغا برادهانا" في الفلسفة الهندية، تتجمع فيه صفات ثلاث: "ستوا" و "راجس" و "تمس"، و هي وراء التجسيد المادي، و دونه درجة (ماهات) أو (لنغا ماترا)، هي العقول الكونية، و هي مجرد رسم . يتلونها الوعي الفردي أو (جتا)، وهو بدوره يؤدي إلى العقل الفردي أو (بدهي). العقل الفردي لا يتجرد عن الذهن أو (مانس) و النفس أو الأنا أو (أهنكارا، أويسيسا). الذهن (مانس، وسيسا) لا يتجرد عن المدركات الحسية أو (جان إنديريا) وهي خمسة: الأذن و الجلد و العين واللسان و الأنف، إضافة عدم انفصالها عن أعضاء العمل الخمسة: الفم و العضد والرجل و آليتي النفايات و التوليد. أهنكارا أو أويسيسا لا يتجرد عن العناصر الخمسة: الفضاء (السماء) و الهواء و النار والماء والأرض، مع علاقتها بالصوت و اللمس و الشكل و الذوق و الشم. الإرتقاء السلمي يمثل المسيرة من الأدنى إلى الأعلى، أو من الكثافة إلى اللطافة، أو الماديات إلى الروحانيات ضمن منظومة (إنوتى مارغه)، بينما التدرج من الأعلى إلى الأسفل عبارة عن (بروتى مارغه).

منظومة التركيبة النفسية و الجسدية اليوغية ترى أن البرانا أو معالجة الهواء داخل الجسم الإنساني لها خمس درجات مسماة بـ"بنج برانا"، مع وظائفها المحددة وموقعها من عالم الوجود الإنساني الأرضي والسمائي، وفق الجدول التالي:

الرقم	الإسم	الوظيفة	الموقع الطبيعي	الموقع الكوني
1.	برانا Pr a	التنفس	الفم والأنف	الشمس
2.	أبانا Ap na	آلية النفايات	المقعد والإحليل	الأرض
3.	ويانا Vy na	الدوران، كل العروق	كل الجسد	الهواء
4.	أدانا U na	الدفع إلى الأعلى	الحلقوم	النار
5.	سامانا Sam na	الهضم وتوزيع القوى	الجسد المركزي	الفضاء

الراج يوغني بإعتقاده بأن التحرر الروحي يحصل حين تتحرر النفس من ارتباطها بالمادة الذي نتج عن الوهم (المايا) يتغلب على قوانين الطبيعة تجاه التنفس و يطور وعيه تطورا يسمو به إلى منزلة الإتحاد بالوجود الأسمى، و بذلك يتحقق له الموكشا. و من هنا تأكيد القول أن حكماء الشرق لم يقعوا في فخ الثنائية والتشعب، وحافظوا على لحمة الكون ككل، وكانت التجربة الروحية طريقهم لاختبار هذه اللحمة. فجاءت حصيلة هذه التجربة معرفة صميمية يتوحد فيها المراقب مع المراقب، والفكر مع الموضوع، والوعي مع المادة. يتمثل ذلك رأي الفارابي الشهير أن واجب الوجود هو العقل و العاقل و المعقول.¹⁰

فكرة مراكز الطاقة في الإنسان و الدوائر و الكونداليني

تشير مقدمات التنظير اليوغني إلى وجود قدرات كامنة في الإنسان هي تساعد في مطمحه للإرتقاء الروحي، وقد اختطت كل مدرسة لنفسها طريقاً عملياً يهتئ

الراج يوغا و أوجه الشبه بينه وبين التصوف الإسلامي

المتأمل للوصول للحالات العليا للوعي. ونجد أن عدداً من هذه المدارس يلتقي على ذكر طاقة كامنة بالقرب من قاعدة النخاع الشوكي تدعى الكونداليني kundalini، وهي كلمة تعني "الملنف على شكل لولبي"، بما يرمز للحالة الجنينية غير المتفتحة. إضافة إلى ذكر وجود ستة مراكز على طول العمود الفقري. وهي بمثابة مراكز للقدرة أو للطاقة الكامنة في الإنسان، أو كما يعتبرها بعضهم مراكز للوعي. وتسمى هذه المراكز بحسب المأثور الهندي تشاكرا chakra والتي تعني حرفياً "الدائرة" أو "الدولاب" أو "الإعصار".



لقد نشأت فكرة الدوائر (التشاكرا) وتطورت في اليوغا، هي استكشاف جسور للعالم الداخلي بغية الوصول للحالات العليا للوعي. والميزة الكبرى لليوغا هي أن التحقيق لا يتم إلا في الجسم، وعن طريق الجسم. فالجسم بالنسبة لليوغانيين هو امتداد للكون، أو صورة مصغرة له، وفسولوجيا الجسم الإنساني تحاكي وتعيد تشكيل ولادة الكون.

إن المبدأ الأساسي للراج يوغا هو إيقاظ الكونداليني التي ترمز لشكّتي، الطاقة المؤنثة الملتفة على نفسها ثلاث مرات ونصف، والقابعة كالأفعى عند قاعدة النخاع الشوكي. ويسعى اليوغاني لإيقاظ الكونداليني حتى تصعد وتتحد فوق قمة الرأس مع

شيفا. إن اتحاد شكتي وشيفا، أي اتحاد الأرضي والعلوي، أو الأثوثي والذكري، يعني فناء التجلي المادي للطاقة، وإلغاء للثنائية واستعادة الإنسان لوحدته.

الطاقة الفاعلة في الحياة تسير في قناتين تتوضعان على جانبي العمود الفقري، هما "بنغلا" و"إيدا"، حيث تقع "إيدا" على يسار العمود الفقري، وتسري فيها طاقة أرضية، وهي ذات قطبانية مؤنثة؛ وبنغلا الموجودة على يمين العمود الفقري، وتسري فيها طاقة علوية، وهي ذات قطبانية مذكرة. وتتقاطع "إيدا" و"بنغلا" على طول العمود الفقري في نقاط متعددة هي مراكز الطاقة أو التشاكرات. إضافة للقناتين الجانبيتين، توجد قناة مركزية دقيقة ضمن النخاع الشوكي، تدعى "سوشومنا" وهي مسدودة في القاعدة بمركز الحوض، إضافة لوجود المراكز غير المتفتحة على طول العمود الفقري. وبما أن "سوشومنا" مسدودة فإن الحيوية التي تعطىها شكتي للجسم تسير في إيدا وبنغلا، اللتين تصعدان في الكوندا، أي مقعد الكونداليني، وتتشعبان إلى القنوات الـ 72000 الصغرى في الجسم.

تتفق معظم المدارس البيوغية على أن عدد مراكز الطاقة في الإنسان هو سبعة مراكز، هي من الأسفل إلى الأعلى:

1. مولدهار: مركز أسفل النخاع الشوكي.
2. سوادهستهانانا: ८ १ २ 3 مركز الحوض.
3. منى بورا: 4 مركز السرة.
4. أناهاتا: 5 مركز القلب.
5. ويشودها: 6 7 8 9 10 11 12 13 14 15 16 17 18 19 20 21 22 23 24 25 26 27 28 29 30 31 32 33 34 35 36 37 38 39 40 41 42 43 44 45 46 47 48 49 50 51 52 53 54 55 56 57 58 59 60 61 62 63 64 65 66 67 68 69 70 71 72 73 74 75 76 77 78 79 80 81 82 83 84 85 86 87 88 89 90 91 92 93 94 95 96 97 98 99 100 101 102 103 104 105 106 107 108 109 110 111 112 113 114 115 116 117 118 119 120 121 122 123 124 125 126 127 128 129 130 131 132 133 134 135 136 137 138 139 140 141 142 143 144 145 146 147 148 149 150 151 152 153 154 155 156 157 158 159 160 161 162 163 164 165 166 167 168 169 170 171 172 173 174 175 176 177 178 179 180 181 182 183 184 185 186 187 188 189 190 191 192 193 194 195 196 197 198 199 200 201 202 203 204 205 206 207 208 209 210 211 212 213 214 215 216 217 218 219 220 221 222 223 224 225 226 227 228 229 230 231 232 233 234 235 236 237 238 239 240 241 242 243 244 245 246 247 248 249 250 251 252 253 254 255 256 257 258 259 260 261 262 263 264 265 266 267 268 269 270 271 272 273 274 275 276 277 278 279 280 281 282 283 284 285 286 287 288 289 290 291 292 293 294 295 296 297 298 299 300 301 302 303 304 305 306 307 308 309 310 311 312 313 314 315 316 317 318 319 320 321 322 323 324 325 326 327 328 329 330 331 332 333 334 335 336 337 338 339 340 341 342 343 344 345 346 347 348 349 350 351 352 353 354 355 356 357 358 359 360 361 362 363 364 365 366 367 368 369 370 371 372 373 374 375 376 377 378 379 380 381 382 383 384 385 386 387 388 389 390 391 392 393 394 395 396 397 398 399 400 401 402 403 404 405 406 407 408 409 410 411 412 413 414 415 416 417 418 419 420 421 422 423 424 425 426 427 428 429 430 431 432 433 434 435 436 437 438 439 440 441 442 443 444 445 446 447 448 449 450 451 452 453 454 455 456 457 458 459 460 461 462 463 464 465 466 467 468 469 470 471 472 473 474 475 476 477 478 479 480 481 482 483 484 485 486 487 488 489 490 491 492 493 494 495 496 497 498 499 500 501 502 503 504 505 506 507 508 509 510 511 512 513 514 515 516 517 518 519 520 521 522 523 524 525 526 527 528 529 530 531 532 533 534 535 536 537 538 539 540 541 542 543 544 545 546 547 548 549 550 551 552 553 554 555 556 557 558 559 560 561 562 563 564 565 566 567 568 569 570 571 572 573 574 575 576 577 578 579 580 581 582 583 584 585 586 587 588 589 590 591 592 593 594 595 596 597 598 599 600 601 602 603 604 605 606 607 608 609 610 611 612 613 614 615 616 617 618 619 620 621 622 623 624 625 626 627 628 629 630 631 632 633 634 635 636 637 638 639 640 641 642 643 644 645 646 647 648 649 650 651 652 653 654 655 656 657 658 659 660 661 662 663 664 665 666 667 668 669 670 671 672 673 674 675 676 677 678 679 680 681 682 683 684 685 686 687 688 689 690 691 692 693 694 695 696 697 698 699 700 701 702 703 704 705 706 707 708 709 710 711 712 713 714 715 716 717 718 719 720 721 722 723 724 725 726 727 728 729 730 731 732 733 734 735 736 737 738 739 740 741 742 743 744 745 746 747 748 749 750 751 752 753 754 755 756 757 758 759 760 761 762 763 764 765 766 767 768 769 770 771 772 773 774 775 776 777 778 779 780 781 782 783 784 785 786 787 788 789 790 791 792 793 794 795 796 797 798 799 800 801 802 803 804 805 806 807 808 809 810 811 812 813 814 815 816 817 818 819 820 821 822 823 824 825 826 827 828 829 830 831 832 833 834 835 836 837 838 839 840 841 842 843 844 845 846 847 848 849 850 851 852 853 854 855 856 857 858 859 860 861 862 863 864 865 866 867 868 869 870 871 872 873 874 875 876 877 878 879 880 881 882 883 884 885 886 887 888 889 890 891 892 893 894 895 896 897 898 899 900 901 902 903 904 905 906 907 908 909 910 911 912 913 914 915 916 917 918 919 920 921 922 923 924 925 926 927 928 929 930 931 932 933 934 935 936 937 938 939 940 941 942 943 944 945 946 947 948 949 950 951 952 953 954 955 956 957 958 959 960 961 962 963 964 965 966 967 968 969 970 971 972 973 974 975 976 977 978 979 980 981 982 983 984 985 986 987 988 989 990 991 992 993 994 995 996 997 998 999 1000
6. آجيا: 31 مركز بين الحاجبين.
7. ساهسرارا: 32 مركز الرأس (المركز التاجي).

الراج يوغا و أوجه الشبه بينه وبين التصوف الإسلامي

كل مركز من هذه المراكز هو التقاء خاص لشيئا وشكتي في الإنسان، إذ يمر شيئا وشكتي أثناء عناقهما المستمر بمراحل مختلفة، فيتلَوَّن الوعي الكوني بدرجات مختلفة تبعاً لتبدل النشوة التي يتقاسمها الشريكان.

تستيقظ الكونداليني بعد ممارسات طويلة ومتأنيّة، وتصعد عندئذ في قناة "سوشومنا" المركزية الدقيقة المتواضعة ضمن النخاع الشوكي. وما إن تسري الكونداليني في "سوشومنا" وتلامس المراكز حتى تنفتح هذه المراكز كالأزهار المكتملة التفتح. وتبدأ المراكز بالدوران مع شعور بالحرارة والنمل في جسم المتأمل. مرور الكونداليني في "سوشومنا" ودوران مراكز الطاقة لا يتم إلا بعد تحرير القناة والمراكز من العقد التي تسدّها. وهذا يتطلب ممارسات طويلة ومتأنيّة تحت إشراف المعلم. والإنسان المتعمد يفاظ الكونداليني يشبّه بالعاث مع أفعى راقدة، مما يشكل خطراً كبيراً. إن الانتباه لوجود هذه المراكز والسعي لتفعيلها يساعد الإنسان على تفهّم ذاته بصورة حاذقة، ويقوده تدريجياً لتحقيق جسمه السببي أو العليّ، محوِّلاً إيّاه إلى قناة للوعي المتسامي.¹¹

المنطق في الدوائر هو منطق مشتقّ من معرفة حدسية للكون ومقاييساته في الإنسان. وهي تكشف عن قدرة الإنسان على وضع العالم في صورة تعبّر عن تصوّره له، أو عن الحالة التي يرغب أن يراه فيها. المعرفة العلمية تقوم على الثنائية والتشعب، أما الدوائر اليوغية فتعود لمعرفة موحّدة متسامية.

تؤكد الأسفار المقدسة أن الإنسان يلزمه مليون سنة من التطور العادي الخالي من المرض لاستكمال نمو عقله البشري كي يصبح مؤهلاً لبلوغ الوعي الكوني. فكيف بهذا المرام و عمر الإنسان أقل من مئة عام عادة؟ الإجابة تكمن في الكريا يوغا.

الكريا يوغا و الراج يوغا تحولان وعى الإنسان العادي إلى الوعي المجرد والوعي الكوني المتجاوب. في الحالات الأولى للاتصال بالله (سابيكالبا سماهي) يمتزج وعي المرید بالروح الكوني وتنسحب قوة حياته من الجسم الذي يبدو (ميتاً) أو

متصلباً وعتيم الحركة، ويكون اليوغي على إدراك تام بحالة الغيبوية الجسدية تلك. وبتقدمه إلى الحالة الروحية الأسمى (نيريكالبا سمارهي) يندمج كلياً في الله حتى في حالة اليقظة العادية أو القيام بالواجبات الدنيوية دون الحاجة إلى تثبيت الجسم (كما في وضع التأمل).

يرى حكيم الكريا يوغا برامهمسا يوغاناندا أن ممارسة ألف كريا في ثماني ساعات ونصف ساعة تعطي اليوغي في يوم واحد ما يعادل ألف سنة من التطور الطبيعي، أو 365000 عام من التطور في عام واحد. وفي ثلاثة أعوام يستطيع ممارس الكريا أن ينجز بالمجهود الذاتي الواعي نفس النتيجة التي تحدثها الطبيعة في مليون عام. وبالطبع فإن طريق الكريا المختصر يمكن أن يسلكه فقط اليوغيون المتقدمون جدا في الروحيات. وإرشاد معلم مستتير تمكن هؤلاء اليوغيون من إعداد أجسامهم وعقولهم بعناية بحيث تصمد للقوة التي يتم توليدها بالتطبيق الفائق التركيز.¹²

الجسم الكوكبي (الأثيري) للإنسان مزود بستة أبراج داخلية. وهذه الأبراج الباطنية الستة تصبح اثني عشر بالاستقطاب، وتدور حول شمس العين الروحية العليمة بكل شيء. وهناك علاقة متبادلة بين العين الروحية والأبراج الباطنية وبين الشمس المادية ومنطقة الأبراج السماوية الإثني عشر. وعليه فإن جميع الناس يتأثرون بعالم باطني وبآخر ظاهري. وقد اكتشف الحكماء أن بيئة الإنسان الأرضية والسماوية تخضع لدورات طول كل منها 12 سنة تدفعه إلى الأمام في مساره الطبيعي.

ويوجه الكريا يوغي بعقله نشاطه الحيوي ليدور إلى أعلى وإلى أسفل حول المراكز الفقرية الستة (الضفائر النخاعية، العنقية، الظهرية، الصليبية، العجزية، والعصعصية) المقابلة للعلامات الكوكبية الإثني عشر لمنطقة البروج: رمز الإنسان الكوني. ونصف دقيقة من تمرير النشاط الحيوي حول العمود الفقري الحساس

الراج يوغا و أوجه الشبه بينه وبين التصوف الإسلامي

للإنسان يحدث تطوراً شفافاً في ارتقائه. ونصف دقيقة من الكريا توازي من حيث المفعول سنة كاملة من التقدم الروحي الطبيعي.

وبفصل حبل التنفس الذي يربط النفس بالجسم تساعد الكريا على إطالة العمر وتوسيع الإدراك إلى اللانهاية. كما تساعد طريقة اليوغا على كسب المعركة المحتدمة بين العقل والحواس الخاضعة للمادة، وتحرر الممارس ليتمكن من استرداد فردوسه المفقود: مملكته الأزلية، فيدرك إذ ذاك أن طبيعته الحقّة غير مرتبطة بالجسم المادي ولا بالتنفس: وهما العلامتان الظاهرتان للاستعباد البشري للهواء، أي للعناصر الطبيعية. وإذ يصبح اليوغي سيداً لجسمه وعقله فإنه يقهر في النهاية العدو الأخير: الموت.

يقول شنكر آشاريه (788-820م) في كتابه المشهور (قرن من الشعر) ما

يلي:

"الطقوس الخارجية لا قدرة لها على تبديد الجهل لأنهما ليسا نقيضين، بل المعرفة الفعلية هي التي تبدد الجهل. ولا تأتي المعرفة بوسيلة أخرى سوى بسؤال الإنسان نفسه: من أنا؟ كيف أتى هذا الكون إلى الوجود؟ ومن هو خالقه؟ وما سببه المادي؟ وهذا هو نمط التساؤل المشار إليه." وبما أن العقل لا يملك الأجوبة على هذه الأسئلة فقد قام الحكماء بتطوير اليوغا كطريقة للبحث الروحي. واليوغي الصادق إذ يفصل عقله وإرادته وشعوره عن التوحد المغلوط مع رغبات الجسد، ويربط عقله بقوى الإدراك السامي في المراكز الفقريّة، فإنه يعيش في هذا العالم بحسب الخطة الإلهية؛ غير مدفوع بأهواء الماضي أو بالغباء البشري للرغبات الجديدة. وإذ يحصل على تحقيق رغبته العظمى فإنه ينعم مطمئناً في ملاذ الروح الإلهي الذي لا حد ولا انتهاء لنعيمه وأنعامه".¹³

من خصوصيات الطرق النقشبندية والشطارية والملامتية وبعض آلياتها الإرتياضية:

الطريقة النقشبندية من أهم الطرق الصوفية فى الإسلام، تنتسب إلى الشيخ بهاء الدين نقشبند (1318-1389م)، و ينتسب إليها الشيخ أحمد السرهندي (1564-1624م) فى شبه القارة الهندية، و الشيخ خالد البغدادي (1778-1826م) فى الجزيرة العربية و الشيخ أحمد ضياء الدين الكمشخاني (1813-1894م) فى تركيا و الشيخ زين الله رسوليف (1833-1917م) فى روسيا. تتميز هذه الطريقة لإقتربها الأكثر من الشريعة، وإبتعادها من الطقوس المبتدعة. لأنها تجمع بين العقيدة و الفقه والتصوف. و من بين الطرق الصوفية التى وجدت أتباعا لها فى الهند و فى العالم الإسلامى: الطريقة الشطارية والطريقة الملامتية. على أن طرقا مثل الصابرية والفردوسية و القلندرية والأجملية اليعاوية لها خصوصيات تماثل الطرق النقشبندية و الشطارية و الملامتية فى هيكلية المفاهيم و الممارسات و الأذكار و الأوراد و شكليات المراقبات التى قلما توجد فى مصادر التشريع الإسلامى، منها:

1. شكليات الذكر الجلي و الذكر الخفي

2. الذكر الهندوي

3. الذكر السنسكريتي

4. ضبط التنفس

5. ضبط الحواس

6. الصلاة المعكوسة

7. روب درشن (مراقبة الصورة)

8. سايه درشن (مراقبة الظل)

9. شغل بهوكم ونصيرا و محمودا

10. شغل اللحد

الراج يوغا و أوجه الشبه بينه وبين التصوف الإسلامي

لا يمكن لكاتب هذه الأسطر أن يحلل كل المحاور العشر التي تشكل أهم أوجه الروافد الهندية في المشروع الصوفي، على أن له عددا من الأبحاث المنشورة فيها.¹⁴ إن ما يهيمه في هذا البحث أن يخاطب البعد المتفاعل بين منظومتي الدوائر اليوغية و اللطائف النقشبندية.

و لكن قبل الولوج في تفاصيل اللطائف الصوفية يسترعى انتباهنا مبحث هام في التصوف الإسلامي الفلسفي يتمثل بخطوطه العامة مع فلسفة الوجود الفيديّة. قلما تخلو أمهات كتب التصوف - مؤلفات الشيخ الأكبر محي الدين ابن العربي (1165-1240م) و عبد الكريم الجيلي (1306-1403م) و الشيخ صدر الدين الشيرازي (1571-1640م) و سواهم - من مباحث المراتب السبع و التنزلات الستة و الحضرات الخمس.

فالمراتب إلهية و كونية و جامعة: المراتب الإلهية ثلاثة :

الأولى: الذات، الأحدية، الغيب.

الثانية: التنزل الأول، الوحدة، الحقيقة المحمدية.

الثالثة: التنزل الثاني، الوحدية، الأعيان الثابتة.

أما المراتب الكونية، فهي الرابعة والخامسة والسادسة: الروح والمثل والجسم.

أما المرتبة الجامعة فهي السابعة: الإنسان.

التنزلات الستة: الوحدة والوحدية والروح و المثل و الجسم و الإنسان (الذات

ليس لها تنزل)

المرتبة الأولى هي الغيب المطلق، والمرتبة الثانية هي الحقيقة المحمدية،

والمرتبة الثالثة هي الأعيان الثابتة.

حضرة الغيب المطلق: وعالمها عالم الأعيان الثابتة في الحضرة العلمية، وفي

مقابلتها حضرة الشهادة المطلقة: وعالمها عالم الملك.

حضرة الغيب المضاف: وهي تنقسم إلى ما يكون أقرب منه الغيب المطلق،

وعالمه عالم الأرواح الجبروتية.

حضرة الملكوتية: أعني عالم العقول والنفوس المجردة، إلى ما يكون أقرب من الشهادة المطلقة، وعالمها عالم المثال، ويسمى بعالم الملكوت.

الحضرة الجامعة للأربعة المذكورة: وعالمها عالم الإنسان الجامع لجميع العوالم وما فيها، فعالم الملك مظهر عالم الملكوت، وهو عالم المثال المطلق، وهو مظهر عالم الجبروت، أي عالم المجردات، وهو مظهر عالم الأعيان الثابتة وهو مظهر الأسماء الإلهية والحضرة الواحدية، وهي مظهر الحضرة الأحادية.¹⁵

يقول عبد المجيد بن محمد الخاني عن خصوصيات الطريقة النقشبندية: "إعلم أن الطريقة العلية النقشبندية قدس الله أسرار سراتها الندية هي طريقة الصحابة الكرام رضي الله تعالى عنهم على أصلها لم يزيدوا فيها ولم يُنقصوا منها. وهي عبارة عن دوام العبودية ظاهراً وباطناً بكمال إلتزام السنة السنوية والعزيمة العظيمة وتام إجتباب البدعة والرخصة في جميع الحركات والسكنات ومن عادات ومعاملات مع دوام الحضور مع الله تعالى عن طريق الذهول والإستهلاك. فهي طريق الإنصباغ والانعكاس بكمال إرتباطهم حبا مع هذه المجاهدة الزكية المستورة يستوي في إستفاضتها الشيوخ والشبان وفي إفاضتها الأحياء والأموات. ونهايتها مندرجة في بدايتها وبدايتها نهاية غيرها لما فيها من إنجذاب المحبة الذاتية مم فضل به واسطتها الصديق الأكبر رضي الله تعالى عنه. ولها أصلان أصيلان من أُعطيها أُعطي كل شيء: كمال إلتباع النبي صلى الله عليه وسلم ومحبة الشيخ الكامل. لكنها ليست توجد بالتكُف بل التكلف فيها زندقة. وإنما هي من أعطاه الله تعالى يَمُنُّ بها على من يشاء من عباده. فالصحة بشروطها مع هذين الأصلين كافية للإنعكاس والإنصباغ".¹⁶

ترى الطريقة النقشبندية أن النفس الإنسانية لها سبع مراتب... فالقلب له ظاهر.. وباطن..، أمّا ظاهره فهو الروح الحيوانية والتي يمكن أن نعبر عنها الآن بأنها مجموع قوتي الغضب والشهوة..، وهي القائمة على تدبير حياة الجسد المادية كما قلنا..، وله باطن وهو الروح أو النفس الإنسانية..، والقلب وسط بينهما، والروح

الراج يوغا و أوجه الشبه بينه وبين التصوف الإسلامي

الإنسانية لها باطن وهو السر والسر له باطن وهو سر السر...، وسر السر له باطن وهو الخفي...، والخفي له باطن وهو الأخرى. فإذا مال القلب إلى الروح الحيوانية وائتمر بأمرها، وصار منفذا لرغباتها، صارت النفس المسيطرة على الإنسان النفس الأمامة بالسوء...، النفس الحيوانية البحتة وصار الإنسان كالدهيمة بل أضل...، فإذا توازن القلب بين النفس الحيوانية والروح، وأصبح يحكم هذه مرة وهذه مرة فيكون ذلك هو مقام النفس اللوامة...، فإذا مال إلى الروح وأحوالها وأصبح نظره إلى الروح الحيوانية هو مجرد استمرارية حياة الجسد الضرورية فيرتقى حينئذ إلى درجة النفس الملهمة وتزداد عنده درجة الإلهام...، فإذا مال القلب بالكلية إلى عالم الروح وبدأ يستجلى عالم الغيب بقوة أعمق.. صارت درجة النفس في هذه الحالة هي المطمئنة. فإذا بدأ القلب بالاتصاف بصفات عالم الملكوت واطمئنت فيه قوى النفس الحيوانية إلى أقصى اضمحلال لها صارت درجته هي النفس الراضية...، فإذا دخل القلب في أنوار تجليات الله تعالى وترك عالم الملكوت أيضا...، فقد صار إلى مرتبة النفس المرضية...، فإذا اكتمل بالأسرار الإلهية فقد انتقل إلى مرتبة النفس الكاملة.¹⁷

للذكر سبع خطوات: وهذا ما قاله الإمام الرباني "إن طريقتنا سبع خطوات" وقال بعضهم كناية: "الطريقة خطوتان" خطوة في عالم الأمر، و خطوة في عالم الخلق. وأن الدوام على الذكر يجعل اللطائف السبع وكل ذرة في الجسم تذكر "الله". وفي هذه الحال يشعر المرید بالراحة واللطافة في قلبه ووجدانه.

هذه الحالة توازي "سلطان الأذكار" أو "سلطان الذكر" وقد يصل الذاكر إلى حالة يحس فيها بعد مواظبته على الذكر أن العالم كله يذكر "الله" بل يسمع ذكر "الله" من كل ذرة في الكون وهذا الذكر يسمى ذكر "ماسوي". ويعني أن كل مخلوق يذكر الله سبحانه. وهذه من لطائف الطريقة الجلييلة. وقد أشار إليها الشيخ عمر ضياء الدين قدس سره حين قال في إحدى قصائده الصوفية : اللطائف جميعها غارقة في ذكر الله.

ولابد من توضيح أن هذه الحالة هي ألف باء التصوف ومقدمته وهي من حالات التزكية أي تطهير اللطائف، وليست من حالات فناء اللطائف. ولكل لطيفة حالة فناء خاصة. وبعد فناء الكل يأتي البقاء وفي هذه المدة يطلع السالك على أسرار عجيبة ويمنح من ربه مواهب معنوية اللطائف تتحول إلى مصابيح مشرقة بالنور حين تبدأ بالذکر ويقولون: إن نور كل لطيفة تحت قدم واحد من الرسل والأنبياء أولي العزم وكل سالك يفتح له بسبب أحد هذه اللطائف. فيكون له شبه بالخلق المعنوي لذلك النبي. وهي علاقة معروفة لدى العارفين، حتى أنهم يدركون هذه العلاقة بعد موت أصحابها في قبورهم. فهذا خلقه محمدي و ذلك عيسوي ومن أدرك هذه الأمور بعين البصيرة كيف يتسلل الشك إلى إيمانه؟

النقشبنديون يتصورون اللطائف وفق التالي:

- (1) لطيفة القلب تحت قدم آدم ولون نوره أصفر.
 - (2) لطيفة الروح تحت قدم نبيين هما نوح وإبراهيم واللون أحمر.
 - (3) لطيفة السر تحت قدم موسى واللون أبيض.
 - (4) لطيفة الخفي تحت قدم عيسى واللون أسود.
- ولا تتناقض بين النور ولون السواد فقد يكون السواد أجمل شيء كلون العين والحاجبين مثلاً.

(5) لطيفة الأخفى ولونها أخضر تحت قدم حضرة سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم). فان كان للسالك مرشد فانه ينتقل بمريده من لطيفة إلى أخرى وإن تم نور اللطيفة تلاً هذا النور في وجه المرید فيحس به هو ومرشد. يمكننا رسم اللطائف كالتالي:

الراج يوغا و أوجه الشبه بينه وبين التصوف الإسلامي



اللطائف مثلها مثل الحواس وهي في عالم المادة واللطائف من عالم الباطن وبعد تركية لطائف عالم الأمر تبدأ تركية النفس، وهي من عالم الخلق وليس لها لون كالماء يتلون بما يدخل فيه وتركيتها صعبة فهي من عالم الطبيعة وهي في الأساس أمارة بالسوء ومنها تخرج كل الرغبات الخبيثة ولكن ذكر الله سبحانه يطهرها ويروضها. ويرى مشايخ التصوف أن هذا النوع من التزكية يحتاج إلى مرشد والمقصود بالمرشد العارف العابد الذي لا شك في ولايته واجتيازه هذه المقامات وهو إنسان بالاسم ولكنه قطعة من نور وملائكي الصنعة ورباني المسلك، ومن أصحاب المقامات العالية للبقاء بعد الفناء. ومثل هذا الإنسان لا يتصور منه الخيانة لأمة محمد ولا يعقل أن يكون هدفه من الإرشاد الدرجات الدنيوية أو المكتسبات المادية.

بعد اجتياز طريق السلوك، على السالك أن يتطلى بأحد عشر خلقا وإلا لم يحصل على شيء، ثمانية منها مأثورة عن حضرة الشيخ عبد الخالق الغجدواني (575 هـ) وبعدها ثلاثة عن الشيخ الأكبر السيد محمد بهاء الدين النقشبند والمجموع إحدى عشرة كلمة، وهي: النظر إلى القدم، السفر في الوطن، الخلوة في الجلوة،

الذكر الدائم، العودة من الذكر، اليقظة عند النفس، الحضور الدائم، حفظ آثار الذكر في القلب، والوقوف القلبي والوقوف العددي والوقوف الزماني لبهاء الدين النقشبند. ويطلب السالك الفيض والرحمة من الله سبحانه متوجهاً إلى السماء رعاية للأدب لأن الله سبحانه فوق كل شيء ليس له مكان وليس له زمان وللوقوف القلبي شرطان أولهما: يحاول أن لا يخطر على قلبه شيء من الخيالات وثانيها، إن خطر على قلبه خيال توقف عن الذكر كاللجام وجاهد لطرده الخيالات ثم يبدأ بالذكر من جديد ويسمى "بالتوقيف" ومن الأفضل توقف التنفس وقت الذكر وحسب نصائح المرشدين.

ومن هذه الحال تنشأ حرارة القلب، وشوق في الداخل، وتتولد المحبة وتطرده الوسوسة وتزال الحجب أمام السالكين شيئاً فشيئاً. ويتبين من هنا أن التصوف سلوكاً ينبغي معرفة بميدانه. ويعني الوقوف العددي أن يكون الذكر بالوتر، مرة أو ثلاثاً أو خمسا أو سبعاً هي درجة للسلوك النقشبندي. وله أثر في كشف أسرار الطريق.¹⁸

تحليل : خطوط متقاطعة:

لا يمكن تحليل تاريخ الديانات والمنظومات المعرفية و الروحية في العالم بمنظور إقصائي يتنكر لأبعاد التفاعل فيما بينها على المستوى التنظيري المفاهيمي الذي يؤسس القطاع التطبيقي السلوكي، و ذلك بدوره قد يوهم بطبع انعزالي، على أن التماس خيوط الوصل و الفصل هو ما يضمن التصوير الأكثر واقعية و شمولاً، إذ جميع ما وجده الإنسان على ساحات التاريخ من الروى و المفاهيم و القيم لم يكن وليد عشية أو ضحاها.

لا يتعب الباحث نفسه دون جدوى عندما يسعى للعثور على المشترك المفاهيمي و التطبيقي - القليل أو الكثير - في سياق المنظومة الروحية الإبراهيمية من الفصيحة السامية، و أخرى براهمية هندية من فصيلة الهند أوربية. فهناك خط تصاعدي يربط القيم الروحية الإنسانية شرقاً و غرباً، و شمالاً و جنوباً، لأن المنهل واحد هو الوجود المحض، و المنتهل واحد هو الإنسان.

الراج يوغا و أوجه الشبه بينه وبين التصوف الإسلامي

الأوينشادات نصوص صوفية فيداننتية تشكل العمود الفقري للروحانيات في الديانات الهندوسية. مدرسة سانكهيا الفلسفية تلغى الثنائية بين الطبيعة و الوعي أو المادة و الروح، و تحث الإنسان على اجتياز العقبات التي يخلقها الجهل بصورة (المايا) ، و ذلك من خلال منظومات روحية منها اليوغا المتقدمة (مجموعة الراج يوغا و الليا يوغا و الكريا يوغا و الكندلنى يوغا). و اليوغى الحق هو (برشوتم) أو الإنسان الكامل.

التصوف فى الإسلام يتجه صوب تصفية القلب و تزكية النفس إلى مدى يؤهل الفاني (الإنسان) للبقاء مع الباقي (الله) فى منظومة تنادي بالتوحيد الوجودي (أبو المغيث الحلاج، محي الدين ابن عربي، ابن الفارض، سرمد، و آخرون) أو التوحيد اليهودي (الشيخ أحمد السرهندي، و سواه). والإنسان الذى يحظى بهذه المنزلة هو الإنسان الكامل¹⁹ (برشوتم فى الهندوسية).

يقول الجيلي عن الإنسان الكامل:

"إعلم حفظك الله إن الإنسان الكامل هو القطب الذي تدور عليه أفلاك الوجود من أوله إلى آخره، وهو واحد منذ كان الوجود إلى أبد الأبدين، ثم له تنوع في ملابس، و يظهر في كنائس، فيسمى به باعتبار لباس، ولا يسمّى به باعتبار لباس آخر، فاسمهُ الأصلي الذي هو له محمد، وكنيته أبو القاسم، ووصفه عبد الله، ولقبه شمس الدين....واعلم أن الإنسان الكامل مقابل لجميع الحقائق الوجودية بنفسه، فيقابل الحقائق العلوية بلطافته، ويقابل الحقائق السفلية بكثافته.. ثم اعلم أن الإنسان الكامل هو الذي يستحق الأسماء الذاتية والصفات الإلهية استحقاق الأصالة والملك بحكم المقتضى الذاتي، فإنه المعبر عن حقيقته بتلك العبارات، والمشار إلى لطيفته بتلك الإشارات، ليس لها مستند في الوجود إلا الإنسان الكامل، فمثاله للحق مثال المرأة التي لا يرى الشخص صورته إلا فيها، وإلا فلا يمكنه أن يرى صورة نفسه إلا بمرآة الاسم (الله) فهو مرآته، والإنسان الكامل أيضاً مرآته." ²⁰

فى السياق الأنطولوجى نلاحظ أبعاد متقاطعة بين اليوغا الأسمى و التصوف،
منها:

1. حضرة الغيب المطلق فى الإسلام توازى مولا بركرتى أو ألنغا بردهانا الهندية.
2. حضرة الغيب المضاف وحضرة الملكوتية فى الإسلام تماثلان "ماهات" أو "لنغ ماترا" الهندية.
3. الحضرة الجامعة فى الإسلام تمثل فصائل "جتا" و "مانس" و "بدهي" الهندية.
4. اللطائف الصوفية تشبه منظومة الدوائر اليوغية.
5. نظرية دعوة الأسماء متقاطعة الخطوط بنظرية التنترا يوغا.

كما نلاحظ التالى من بين آليات التزكية و التصفية الصوفية المتشابهة بالممارسات اليوغية:

1. ضبط التنفس (برانيام اليوغى)
 2. ضبط الحواس (براتياهارا اليوغى)
- من غير أن نجد أى أصل لهما فى مدونة الإحسان أو التصوف الإسلامى النبوي.

و ختاماً نقول: كان للبيئة الفارسية القديمة المتفاعلة مع المعرفة الهندية الفيديّة زمن الإمبراطورية المورية و الثقافة الهندية الإغريقية و البرامكة و حملات تعريب كتب الفلسفة والآداب الهندية (مؤلفات شاناكيه و برهم غبطا و سواهما) فى العصر العباسية و سواها كبير أثر فى التكوين الروحي و المعرفي لثقافة المسلمين فى بغداد، وقد مثلت ترجمات السند هند و الأزياج و يوغ سوترا (من عمل أبى الريحان البيروني)²¹ وغيرها من الكتب دوراً ملموساً فى الإرهاص المعرفي والروحي العربي و الإسلامى. و لا يقل أهمية ما نجده من الأثر الهندي على حكمة الإشراق

الراج يوغا و أوجه الشبه بينه وبين التصوف الإسلامي

فى مدرستها الأولى (الإسكندرية: الأفلاطونية المحدثة)، و مدرستها الإسلاميتين: مدرسة السهروردي (1155-1191م) و مدرسة إصفهان (صدر الدين الشيرازي و الهادي السبزواري)، إذ لا يمكن التاريخ أن يتكرر لشخصيات هندية مثل قالينوس (القرن الرابع قبل الميلاد) و الحكيم دنداميس (القرن الرابع قبل الميلاد)²² المذكورة فى المستندات الإسكندرية و الإغريقية القديمة فى سياق الحوار الفلسفي مع إسكندر المقدوني و إثراء مدرسة الإسكندرية الفلسفية.

كما لا يقل أهمية مدى احتكاك متصوفة المسلمين فى الهند مع حكماء اليوغا و الفلسفات الهندية، إذ التاريخ الهندي لا يفتقر فى تزويدنا بنماذج حية من التواصل بين الديانتين على مستوى شخصيات مثل الشيخ قطب الدين بختيار الكاكي (ت 1226م) و الشيخ معين الدين الجشتى الأجميري (1142-1236م) و الشيخ فريد الدين كنج شكر (1172-1265م) و الشيخ نظام الدين الأولياء (1238-1324م) و الشيخ نصير الدين محمود (ت 1356م) و الشيخ ميرزا مظهر جانجانان (1699-1781م) و الشيخ حميد الدين الناكوري (ت 1279 م) و الشيخ صابر الكليري (592-684 هـ) و الشيخ محمد غوث الكواليري (ت 1562م)، و الشيخ ميان مير (1550-1635م) ، وغيرهم. إن مؤلفات مثل مرآة الأسرار (عبد الرحمن الجشتى) و معارج الولاية (عبد الله الخويشكى) و مكتوبات صدي (الشيخ شرف الدين يحيى المنيري) و مكتوبات أشرفي و لطائف أشرفي (الشيخ أشرف جهانكير السمناني) و كتاب مقاصد العارفين بالفارسية و كتاب ستيا سرور بالسنسكريتية (الشيخ عضد الدين محمد الجشتى الأمرهوي، ت 1172 هـ)²³ و بحر المعاني (محمد بن نصير الدين جعفر الحسيني المكي، ت القرن التاسع الهجري)²⁴ و الرسالة الشطارية (عبد الله الشطاري) و الأوراد الغوثية (الشيخ محمد غوث الكواليري) و كتاب التسوية بين الإفادة و القبول و كتاب عبادة الخواص و كتاب أنفاس الخواص (الشيخ محب الله الإله آبادي 1587-1648م)، وغيرها من مصادر التصوف الرئيسية فى شبه القارة الهندية تعطينا صورا رائعة للحوار البناء و الإحترام المتبادل

بين صوفية المسلمين و حكماء الهندوس. ولا ننسى ما كان للأمير دارا شكوه (1615-1659م) من مساهمة في ترجمة نصوص الأوبانيشاد وخاصة برهد آرنيك أبنيشاد بعنوان "سر أكبر" إلى السنسكريتية، وترجمة يوغا وششتها وفاغوت غيتا إلى الفارسية، إضافة تأليف كتب مثل سفينة الأولياء وسكينة الأولياء ورسالة حق نما وطريقة الحقيقة وسواها هي تمازج بين حكمة التصوف الإسلامي والفلسفة الفيदानتية الهندية.

الهوامش:

1

Wink, André, *Al Hind: the Making of the Indo Islamic World*, Brill Academic Publishers, 1 Jan 1996, ISBN 90-04-09249-8, Cyril A Hromnik, *Indo-Africa: Towards a new understanding of the history of sub-Saharan Africa* (1981).

² ابن صاعد الأندلسي، أبو القاسم صاعد (ت 1069/462م): كتاب طبقات الأمم، تحقيق

ليس شيخو (بيروت)، ص 11

³ ناقش للباحث قرابة مائة كلمة عربية هي سنسكريتية الأصل في بحث له : التفاعل اللغوي بين العربية والسنسكريتية، مجلة رفوف ، جامعة أدرار، الجزائر، السنة الأولى، العدد الأول، يونيو 2013، ISSN 2335-1381.

⁴ Subhash Kak , *Astronomical Code of the Rig Veda; Astronomy and Its Role in Vedic Culture* - by Subhash Kak in *The Dawn of Indian Civilization up to 600 BC* - edited by G. C Pande pp. 615 – 620.

⁵ Van Bladel, Kevin (2011). "The Bactrian Background of the Barmakids". In A. Akasoy, C. Burnett and R. Yoeli-Tlalim. *Islam and Tibet: Interactions along the Musk Routes*. London: Ashgate. pp. 43-88.

⁶ أنظر للباحث: التراث الهندي في الحضارة الإسلامية، مجلة المجمع العلمي العربي الهندي، على كره، السنة 13، العدد 1-2، 1990م، و الترجمة الأدبية الدينية و الفلسفية في الهند، أعمال الندوة الدولية عن التواصل الحضاري العالمي: الهند و إيران أنموذجا، جامعة الكويت، الجزء الثاني، ص 497-566، مطابع الوطن، الكويت. 2007.

⁷ ابن سينا: القصيدة العينية في النفس، في البير نصري نادر: النفس البشرية عند ابن سينا (بيروت، دار الشروق 1986م)

⁸ Friederick Max Muller, *The Six Systems of Indian Philosophy* (New Delhi: Associated Publishing House, 1973), S. Radhakrishnan, *Indian Philosophy* 2 vols. (London: George Allen & Unwin, 1977), Th. Bernard, *Hindu Philosophy* (New York: Philosophical Library, 1947), Mike Burley (2012), *Classical Samkhya and Yoga - An Indian Metaphysics of Experience*, Routledge, ISBN 978-0415648875, page 39-41, Alain Daniélou (1991), *Yoga: Mastering the Secrets of Matter and the Universe*, ISBN 978-0892813018, Chapters 1-12.

⁹ ISBN 978-81-85301-16-7 (Forty-fourth print, Trio Press, Kolkata, 2014.

¹⁰ :
Man, Cosmos and God in the philosophical summae of Islam, Proceedings of the International Interfaith Dialogue Seminar, K. J. Somaiya Bharatiya Sanskriti Peetham, Somaiya Vidyavihar Campus, Mumbai, on 7th to 11th September 2009, pp. 99-132, ISBN 978-81-7039-276-7.

¹¹ Charles Webster Leadbeater, *The Chakras*, Quest Books, TPH, Wheaton, Ill., 1990, pp. 35-36.

¹² Pramhansa Yogananda, *Autobiography of a Yogi* (Penguin Ananda, ISBN 9781043421177, pp. 238-240.

¹³ Pramhansa Yogananda, *Autobiography of a Yogi* (Penguin Ananda, ISBN 9781043421177, pp. 243-244.

¹⁴ Mohd. Sanauallah, "Elements of Yoga in Sufism", in *History of Science, Philosophy and Culture in Indian Civilization*. General Editor: D. P. Chattopadhyaya, Volume XVI, Part 2 *History of Yoga*, edited by S.P. Singh (PHIPCS-Centre for Studies in Civilizations, New Delhi, 2010. ISBN 81-87586-44-3, pp. 629-652.

¹⁵ عبد الوهاب الشعراني، اليواقيت والجواهر، ج1، ص22، لطائف المنن والأخلاق، ج2، ص149.

¹⁶ . عبد المجيد بن محمد الخاني، الحقائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية، تصحيح: عبد الرزاق عبد الله (أرييل: دار نارس للطباعة والنشر، 2002م)، 7.

¹⁷ عبد الله صلاح الدين القوصي، كتاب قواعد الإيمان، الطبعة الثالثة، 2004م، ص 33-35.

¹⁸ أنظر في الموضوع: الخالدي، محمد بن عبد الله. البهجة السنية في آداب الطريقة العلية الخالدية النقشبندية. تحقيق: أحمد فريد المزدي. بيروت: دار الكتب العلمية، 2003م، الخاني، عبد المجيد بن محمد. الحقائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية.

تصحيح: عبد الرزاق عبد الله. أربيل: دار نارس للطباعة والنشر، 2002م، الكردي، محمد أمين بن فتح الله زاده. تهذيب المواهب السرمدية في أجلاء السادة النقشبندية. تحقيق: عاصم إبراهيم الكيالي. بيروت: دار الكتب العلمية، 2004م، النابلسي، عبد الغني. مفتاح المعية في دستور الطريقة النقشبندية. تحقيق: جودة محمد أبو اليزيد المهدي ومحمد عبد القادر نصار. القاهرة: الدار الجودية، 2008م، محمد أمين بن فتح الله زاده الكردي، تهذيب المواهب السرمدية في أجلاء السادة النقشبندية، تحقيق: عاصم إبراهيم الكيالي (بيروت: دار الكتب العلمية، 2004م)، محمد أمين بن فتح الله زاده الكردي، تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب، تحقيق: نجم الدين أمين الكردي (دمشق: مطبعة الصباح، 1991م)

¹⁹ أنظر عبد الكريم الجيلي: كتاب الإنسان الكامل في معرفة الأواخر و الأوائل (بيروت: دار الكتب العلمية، 1997)

²⁰ عبد الكريم الجيلي، كتاب الإنسان الكامل، 73/2، وما بعدها.

²¹ أنظر ترجمة البيروني ليوغ سوتر:

Bulletin of the School of Yogas tra, Al-B r n 's Arabic Version of Patañjali's Oriental and African Studies, Vol. 29, No. 2 (1966), pages 302-325.

²² Sailendra Nath Sen, *Ancient Indian History and Civilization* (1999), p. 128.

²³ أنظر نثار أحمد الفاروقي مقدمة تحقيقه لكتاب مقاصد العارفين، طبعة مجمع البحوث العربية و الفارسية، تونك، 1984م.

²⁴ بحر المعاني مترجم إلى الأردية، من عمل الشاه تقي أنور قلندر علوي، مع مقدمة مستفيضة للإستاذ الدكتور مسعود أنور العلوي الكاكوروي، طبعة 2010م.

اليوجا: مفتاح الحياة السعيدة

د. مظفر عالم*

فاليوجا ليست مجرد رياضة بدنية، بل وهي في الأصل فلسفة تستغل لعلاج بعض العوارض النفسية أيضا، وقد وصفها أحد المعلمين بأنها سلة فاكهة متنوعة فهناك من يطلب القوة الجسدية وآخر ينشد الهدوء العقلي والنفسي وهناك من ينشد الاستغراق في معرفة الذات.

"كل كسب غال يتطلب بذل الجهد و العرق، لذلك فإن اليوجا تتطلب تضحية ملحوظة و تفرض انضباطا صارما في جميع مراحل الحياة. و من يؤدي هذا الثمن يحصد حصادا باهرا دون حساب. إن الانضباط و الكسب هما وجهان متلازمان لتمارين اليوجا و يكسب المتمرن بقدر التزامه بالجهد المطلوب. فإن الجسم العادي لا يتحمل هذا الحصاد الكبير، إذ يحتاج إلى تكيف مناسب كي يتحمل بهجة الكسب الروحي و النفسي و البدني. إن التضحية هي جوهر الحياة ويزداد الكسب أهمية كلما ازدادت التضحية من نواح مختلفة، وكذلك فإن الانضباط و كبح جماح النفس يوصلان التلميذ إلى نيل العلا كما يهبطه الانغماس في الحياة الدنيا إلى أدنى الدرجات، و يجب على الإنسان أن يتوقف نفسه جسما و عقلا و روحا كي يلاقي ربه"¹.

ما هي اليوجا؟: إن اليوجا هي علم يستهدف ضبط تقلبات مادة الفكر ويمكن ممارستها في كل عصر و مصر من قبل الناس المزودين بالإرادة الراسخة والصبر

*أستاذ مشارك، قسم الدراسات العربية، جامعة اللغات الإنجليزية واللغات الأجنبية،
حيدرآباد، الهند

الصامد والرغبة الشديدة للحصول على التنسيق والانسجام الكامل بين الجسد والقلب والعقل والروح والذي يؤديهم إلى لقائهم مع ربهم الحقيقي وخالق الكون والسماء. تدل كلمة "اليوجا" على اللقاء بين الإنسان و الرب ذي الجلال، وهي "لفظ سنسكريتي، معناه الاتحاد، ويطلق على الرياضة الصوفية التي يمارسها حكماء الهند في سبيل الاتحاد بالروح الكونية ، فاليوجا ليست إذن مذهبا فلسفيا، وإنما هي طريقة فنية تقوم على ممارسة بعض التمارين التي تحرر النفس من الطاقات الحسية والعقلية، وتوصلها شيئا فشيئا إلى الحقيقة، واليوغي : (Yogui) هو الحكيم الذي يمارس هذه الطريقة² ومن الأمور الثابتة أن فلسفة اليوجا لا تعترف بالفرق بين جسم الإنسان وعقله و بين قلب الإنسان وروحه، بل وتعتبرها وحدة واحدة لتحقيق الهدف المنشود ، ألا و هو اللقاء مع الخالق الحقيقي، جذورها الفكرية عريقة في الديانتين الوثنيتين: البوذية والهندوسية، تعرض هذه الفلسفة مبادئ تنص على بصيرة نافذة في جميع جوانب الحياة الروحية و العقلية والجسدية بمركزية الإنسان- أفضل المخلوقات - لقوى متحركة و ثابتة في الكون والحياة.

واجبات اليوجي اليومية: يجب على اليوجي (المتمرن على اليوجا) أن يهتم كل يوم برعاية الجسم ، ومراقبة العقل مع دراسة النفس، و تأدية حق الله من عبادات وسلوك و صلاة وصيام وغيرها، فهو يقوم بالتدريب لتحسين صحته الجسدية والعصبية، و يعتني براحة الجسم و العقل بالاسترخاء و راحة العقل بالتركيز والهدوء، و يستخدم الإرادة الكامنة فيه لضبط النفس الأمانة بالسوء ويصون نظافة الجسم بالاستحمام، و داخليا بالصيام و العبادة، و لا يسرف في ممارسة الجنس والشهوات كي يعطي الروح حقها و هو يختار أصحابه بحذر ويعتني بمظهره³.

أهداف اليوجا و أغراضها: تستهدف اليوجا مراقبة النفس و تحقيق الذات والانضمام إلى حب الله، كما تهدف إلى إعادة التوازن الكامل للإنسان جسدا وعقلا وروحا، و السيطرة على التفكير و الأمراض و تحقيق الانسجام بين متطلبات الحياة المادية الدنيوية والحياة الروحية السماوية دون تناقضات. وقد أعرب الحكيم الهندي

اليوجا: مفتاح الحياة السعيدة

باتتجلي بأن "اليوجا تهدف إلى إيقاظ المراكز الغامضة الموجودة في السلسلة الفقرية و في مؤخر المخ، و تعمل على التوافق بين فصي المخ وتصل بالإنسان إلى راحة الجسم و العقل وشفاء الأمراض المستعصية، و تعطي الإنسان قدرة فائقة لمواجهة الحياة و ما فيها من متاعب مختلفة"⁴.

ومما لاشك فيه بأن اليوجا تم تدوينها على أساس نظام علمي لكي يثير في الإنسان القدرات الكامنة في كونه كإنسان و كي يرتقي تدريجاً ليهزم آلام الجسد والقلق و الفراغ الروحي و يتقدم بخطوات ثابتة للقاء ربه عز وجل .

أنواع اليوجا أو مدارس اليوجا : تنقسم اليوجا إلى عدة فروع، تبدأ من فرح العناية بالجسم و السيطرة عليه، و تنتهي إلى طريق المعرفة الروحية و معراج الرقي منها، فأهم هذه الفروع أربعة :

أولاً: ألهاثا يوجا

الثاني: الراجا يوجا

الثالث: الجنانا يوجا

الرابع: الكارما يوجا أو البهاكتي يوجا

كل فرع من الفروع المذكورة أعلاه يوصل الإنسان إلى الهدف الأصلي من حياته ألا وهو الصحة الكاملة، و الصفاء الروحي، و المعرفة الإلهية، و الحكمة البشرية، و النمو العقلي، و الرقي و العمل للوصول إلى الكمال.

ألهاثا يوجا: هي تهدف إلى تقوية الجسم و تحسين الوضع الصحي و السيطرة على الجسم تماماً لأن الجسم القوي يقدر على إصلاح العقل و إرشاد الروح إلى الطريق المستقيم، فإذا صلح جسم الإنسان صلح عقله و هدأت روحه، لا يصاب بمرض أو ألم في حياته، فالجسم في هذا الفرع من اليوجا نقطة ومبضة في الحياة البشرية.

الراجا يوجا: تهدف إلى تنمية قوة الإرادة و المقدرّة العقلية، فمن خلال هذا الفرع من اليوجا يمكن للإنسان أن يعرف المشاعر الداخلية ويفتح من الأحاسيس المغلقة و يبرز القوى الكامنة.

الجنانا يوجا: هي وسيلة للوصول إلى المعرفة و الحكمة و أسس الحياة وجوهرها و حقائقها، فمن يريد الحصول على ما ذكر من الحقائق يتبع هذا الفرع من اليوجا.

البهاكتي يوجا أو الكارما يوجا: هي وسيلة للتقرب إلى الله عز وجل والعلاقة الدائمة معه، فمن يريد استحضاره و لا يغيب عن وعيه فعليه أن يتبع هذا الفرع من اليوجا.

إن اليوجا بجميع أنواعها تهتم بتقوية الجسم و تنقيته من الشوائب و تنمية قوة الإرادة و المقدرّة العقلية بممارسة التمرينات بوعي و معرفة، و اليوجا توصل الباحث إلى تفهم الوجود و الحياة و ما بعد هذه الحياة من أسرار، كما توصل إلى محبة الله و محبة الوجود و محبة الناس، لأن الإنسان خلق اجتماعيا بطبعه، و المحبة هي الجسر الذي يربطه بخالقه و الكون الذي يعيش فيه، فإذا عرف الإنسان هذه الحقيقة فعاش حياة طويلة في غبطة وسعادة⁵.

غير أن الأستاذ عدنان الموسوي قسم هذه الأنواع بطريقة تختلف عما سبق، فمثلا ، المدارس الأساسية لليوجا عنده منقسمة إلى قسمين فقط ... الكارما يوجا والبهاكتي يوجا، و عد ما سواهما ضمن المدارس الأخرى مثل الهاثا يوجا والراجا يوجا و اللايا يوجا و اليانترا يوجا و الشاكتي يوجا و الدهياني يوجا والكونداليني يوجا و الآتما يوجا و النادا يوجا و النيدرا يوجا و غيرها.

بداية وتطور واستمرار: كانت اليوجا، بدون مرأى، عصارة بحوث ظهرت منذ آلاف السنين نتيجة لتجارب قام بها جهابذة الروحية والفلسفة في بلاد الهند وفي غيرها من البلاد الشرقية مثل فارس ومصر القديمة وبلاد الرافدين وفي مهد الحضارة الغربية اليونان، استمرت مجهولة عن عيون الناس حقبة من الزمن و اقتصرت على

اليوجا: مفتاح الحياة السعيدة

الكهنة في المعابد حتى كادت تندثر و يعفو عليها الزمان، فكانت اليوجا على وشك المحو والتلاشي لو لم يحافظ عليها الكهنة و المتمرنون، تم تنظيم دراسات مستمرة لبقائها و فتحت معاهد مختلفة لرقبها و تقدمها، و بمرور الزمن أصبحت اليوجا علما ممتازا يدرس في المدارس الهندية، ونزحت منها إلى البلدان العالمية المختلفة ورسخت فيها جذورها .

تشهد الوثائق التاريخية بأن اليوجا بدأت في الهند قبل أربعة قرون من التقويم الميلادي والفضل لإنشائها يرجع إلى الحكيم الهندي باتنجلي و الذي جاء بمؤلفه الشهير "يوجا سوترا" في هذا المجال، يحوى هذا المؤلف 196 مثالا هندية يشكل النص التأسيسي لليوجا الثمينة، واشتهرت في العصور الوسطى باسم الراجا يوجا، تعتبر اليوجا الثمينة من المدارس الستة الفكرية التقليدية للفلسفة الهندوسية. قام باتنجلي بتدوين هذه الأمثال لليوجا قبل أربعة قرون من التقويم الميلادي في ضوء المواد المأخوذة من التقاليد القديمة مع تعليقه الشخصي على المواد المتوفرة .

يوجا سوترا مزيج من النصوص المختلفة، فقد نهلت من منهل العقائد البوذية والجينية والهندوسية على حد سواء. وفقا لـ Feuerstein⁶ اليوجا سوترا هي التكتيف من تقليدين مختلفين: أولهما " اليوجا ذات ثمانية أطراف" (Ashtanga Yoga) واليوجا العملي (Karma Yoga) . ووقال فليب إي ماس⁷ اليوجا سوترا المنسوبة إلى باتنجلي تتألف من كل من سوترا وبهاسيا. جمع باتنجلي المواد لكتابه من التقاليد القديمة، وأضاف إليه الشروح و التعليقات لخلق عمل موحد و الذي كان يعتبر إلى القرن الحادي عشر الميلادي عمل شخصين. و رأى فليب إي ماس أن التعليقات البدائية على اليوجا سوترا وبهاسيا والتي كانت منسوبة إلى مؤلف غير معروف فياسا كان في الواقع عمل باتنجلي نفسه .

و ضمت اليوجا سوترا تعاليم العديد من النظم الفلسفية الهندية الأخرى السائدة في ذلك الوقت و كانت من بينها سانخيا واليوجا، نشأت كلتاها على مر القرون مع الجذور المشتركة في الثقافات والتقاليد غير الفيديوية في الهند. فضلا عن الفلسفات

الهندوسية المتشددة مثل سانخيا واليوجا وفيدانتا تمثل فلسفات إحادية غير الهندوسية مثل الجينية والبوذية تيارا واحدا من النشاط الروحي في الهند القديمة.

و الجدير بالذكر أنه توجد علاقة وثيقة بين السانخيا⁸ واليوجا كأنهما وجهان لعملة واحدة ، أولهما يمثل الجانب الروحي بينما الآخر يمثل الجانب العملي، أولهما يمثل الجانب الفكري بينما الآخر يمثل الجانب العملي. فاليوجا تتحقق بوسائل العلم الصحيح و تدرك السانخيا من الإحساس و الاستنباط و المستندات، تعرف اليوجا بالإيمان بينما تعرف السانخيا بالإلحاد، تهتم السانخيا بالعلم للنجاة بينما تهتم اليوجا بالعمل وتركز عليه للتمييز بين الذات أو النفس و بين الجسد و الذهن.

درجات اليوجا: تنبني فلسفة اليوجا على أسس رصينة معينة يحتاج إليها الإنسان بالشدة لقضاء حياته بصورة آمنة مطمئنة في الدنيا، تتكون من ثمانية أطراف تالية في ضوء النصوص المنسوبة إلى باتنجلي، تعتبر الخمسة الأولى مساعدات خارجية لليوجا (Bahiranga).

1. ياما (YAMA) يشير إلى امتناع خمسة أشياء و يعلم طريقة التواصل مع العالم الخارجي. تضم هذه الأشياء المحرمة أهمسا: اللاعنف، الأمر الذي يلحق أي أذى أو ضرر للآخرين أو حتى لنفسه ذاتيا، فإنه يذهب بقدر اللاعنف في الفكر والقول والفعل، و ساتيا: الحقيقة في القول والفكر أي الالتزام بالصدق، وآستيا: عدم الطمع، لدرجة أن المرء لا يرغب في شيء مسروق أو شيء يمتلكه الآخرون، وبرهماجاريا: العزوبية أو الامتناع عن ممارسة الجنس، لاسيما في حالة من النشاط الجنسي، و أباريجراها: الرغبة عن الامتلاك والاكتناز.

2. ونياما (NIYAMA) يشير إلى الاحتفالات الخمسة ويعلم طريقة التواصل مع أنفسنا والعالم الداخلي. تضم هذه الاحتفالات شوجا: نظافة الجسم والعقل، وسنتوشا: رضاء المرء بما لديه، والمقبلات: التقشف والاحتفالات المصاحبة لانضباط الجسم وبالتالي السيطرة العقلية، وسفاديايا: دراسة الكتب الفيديا لمعرفة اللهو والنفس، و ايشورا برانيدهاانا: تكريس جهود المرء إلى الله أو الاستسلام له.

اليوجا: مفتاح الحياة السعيدة

تدل الطريقتان المذكورتان على تحاشي الإضرار بالغير وقول الزور والاختلاس و الدعارة و الزنا و القناعة و ترويض العقل و الجسم و النفس لعمل الخير والمطالعة و التعبد لله العظيم .

3. وأسانا (ASANA) الانضباط التابع للهيئة، هي القواعد والمواقف الهادفة إلى الحفاظ على خلايا من الأمراض والحفاظ على الطاقة الحيوية، تساعد المواقف الصحيحة استقامة العمود الفقري على التأمل الكامل لأنها تسيطر على أطراف المرء وجهازه العصبي وتمنع الاضطرابات عنه.

4. براناياما (PRANAYAMA) السيطرة على مصادر قوة الحياة وضبط النفس في الشهيق والزفير، تفيد الجسم وتسهم إلى حد كبير إلى تركيز العقل. يتعلم بها الإنسان إيقاف التنفس لوقت طويل و بشكل تلقائي، و يمكن له أن يعيش أياما دون ماء أو طعام.

5. براتيارا (PRATYAHARA) انسحاب الحواس من أهدافها الخارجية، يتعلم الإنسان انسحاب الحواس عن الأغراض ليتحرر الفكر من القيود الحسية و الأنماط الاعتيادية للإدراك.

أما بقية المستويات الثلاثة فهي تعتبر مساعدات داخلية لليوجا و تعرف بـ (Antaranga).

6. دهارانا (DHARANA) تركيز على جسم مادي، يتعلم الإنسان الانسحاب من عددية و عشوائية الأفكار و توحيد الانتباه إلى موضوع داخلي واحد.

7. دايانا (DHYANA) التأمل الصامد أو ضبط العقل من الشرود والتخبط هنا و هناك، يعلم المرء طريقة تخفيف الاضطرابات الفكرية و يوصله إلى مستويات أعمق من منهج التفكير في اتجاه منبع الأفكار.

8. السمادي (SAMADHI) الإدراك السامي أي إدراك الحقيقة، يصل بها الإنسان إلى حالة توحد الوعي في حالة مطلقة تتميز باللامحدودية و قدرات فائقة⁹. فالليوجي يعيش كسائر الناس في الخارج، و له الفهم السليم عن الله في الداخل،

واليوجا تهدف في النهاية إلى الاتحاد مع الروح الكلية في وحدة واحدة لا انفصام لها.

والسمادي عند الأستاذ عبد السلام خان هو الاستغراق الكامل حيث لا يبقى الفرق بين الفكر و موضوعه و يسير كلاهما نحو جانب واحد، يصبح الفكر وصاحبه عينا واحدة، و هذا أرفع منازل التركيز الذهني و لا مفر للمرء للنجاة عن هذا المنزل¹⁰.

علاقة اليوجا القديمة باليوجا الحديثة : لقد رأى العالم الأمريكي الأستاذ ديفيد غوردون وايت¹¹ بأنه لا توجد علاقة بين اليوجا التي يمارسها الناس اليوم في جميع أنحاء العالم باليوجا سوترا أو الكتب الأخرى القديمة المتعلقة بهذه الفلسفة إلا قليلا أو نادرا، والافتراضات الشائعة اليوم حول اليوجا لا يرجع تاريخها إلى ما يسبق 150 عاما مضت، وتاريخ وعدد قليل من ممارسات العصر الحديث يرجع إلى ما يسبق القرن الثاني عشر الميلادي، ليست هذه المرة الأولى التي يخترع فيها الناس يوجا في صورة خاصة بهم، إنما مازالت هذه العملية مستمرة منذ أكثر من ألفي سنة على الأقل. فقد أنشأت كل مجموعة في كل عصر نسختها الخاصة ورؤيتها الخاصة.¹²

عالمية اليوجا: "وقد نال علم اليوجا شعبية كبيرة خاصة في الأوساط الغربية لقيامه على أسس علمية و موضوعية غير مرتبطة بالعقائد الطائفية و المذهبية، فرياضة اليوجا تساعد كل من يمارسها دون اعتبار لعنصر أو دين أو طائفة لأنها تقوم على السمو بروح الإنسان كإنسان و الأرواح كلها متساوية في خصائصها وإمكانياتها، و على الرغم من أن كل إنسان يملك في أعماقه قدرات كبيرة كامنة إلا الأغلبية الساحقة تجهل وجود هذه القدرات و تولد وتعيش و تموت دون أن تحس بوجودها ودون أن تستغل هذه المواهب الطبيعية بما فيه نفعها"¹³.

منذ عقود ماضية، أصبحت اليوجا جزء من روح العصر لأثرياء المجتمع الغربي الذي يضم الشيوخ و الشبان وريات البيوت ومحبي الثقافة الحديثة والموظفين والعاملين في الشركات متعددة الجنسيات و الكاسبين عدة مليارات شهريا. وكمثل

اليوجا: مفتاح الحياة السعيدة

الأثار الثقافية الهندية الأخرى التي احتضنت الغرب، تُعد اليوجا من المعالم الهندية القديمة المبنية على أساس الوحي الذي تلقاه حكماء الفيدا الجالسين على زهرة اللوتس.

أصبحت اليوجا في الولايات المتحدة و الدول الأوروبية رياضة مرغوبة فيها لدى الناس من جميع الطبقات الدينية و الاجتماعية، وتبين من خلال إحصائيات أن حوالي ست عشر مليون أمريكي يمارسون اليوجا كل عام، و لا نبالغ إذا قلنا أنها أعظم سلعة ثقافية مصدرة من الهند.

والآن نسبة ضخمة من مشاهير ومعلمي اليوجا يديرون الناس على شفاء الأمراض، والروحانية، والتأمل، وتقاليد اليوجا الهندية القديمة المنبثقة من باتنجلي أي مدون يوجا سوترا، ويقلد هذا التدريب عباقرة اليوجا الهنود الذين جلبوا إنجيل اليوجا إلى الشواطئ الغربية عقب إنجازات ناجحة لسوامي فيفيكاناندا التي تحققت في أواخر القرن التاسع عشر و أوائل القرن العشرين الميلادي .

منافع تمارين اليوجا: الحياة على الأرض مهما طال أمدها قصيرة في غمرة الزمن، فهي لمحة من لمحات الوجود المستمر وومضة من ومضات الزمن السرمدى، وممارسة اليوجا و العمل بمبادئها و مثلها العليا تجعل الإنسان متقائلا مستبشرا، صابرا عطوفا، هادئ النفس، قوي الأعصاب، قوي الإرادة، مركز العقل، ذا حيوية ونشاط ونشوة، إن اليوجا تمنحك الطاقة وتساعد على استرخاء العقل، وتستطيع أن تلاحظ تقدما هائلا في مرونتك وقوتك بل والتحكم في نفسك بعد القيام بتمارين قليلة جدا.

و قال الموسوي " بأن اليوغا لها منافع كثيرة، فعلى المستوى الجسدي تساعد اليوغا المرید على أن يترقى جسديا فيقوى الجسد وتزداد مرونته وهذا يساعده على التخلص من الكثير من الأمراض والآلام، وبالتالي استرداد صحته وقدراته الجسدية. أما على المستوى العقلي فان اليوغا تساعد الإنسان على هدوء العقل إذ أن أخلاقياتها تؤمن للإنسان قدرا كبيرا من الراحة النفسية والعصبية وتمده بالسلام

الداخلي العقلي والقلبي كما تمده تمارينها بالطاقة العصبية اللازمة. أما على المستوى الروحاني فإنها تساعد الإنسان على أن يترقى نفسياً وروحياً إذ يطل على مشارف الانعتاق من الجسد فيتخلص الإنسان من رق الأهواء والجري وراء المظاهر الخادعة، فيصبح الإنسان مدركاً لذاته الحقيقية التي هي ليست الجسد أو العقل أو أعضاء الحواس " 14.

فلسفة العلاج باليوجا: تمارس اليوجا منذ غابر الزمان و أقدم الأزمان من قبل عدد كبير من الناس لا يمكن عددهم و إحصائهم عبر الحدود الإقليمية في العالم كله، إنها نحتت لها مكانة عالية في طرق معالجة الأمراض المتنوعة العالمية وحاليا تعتبر من أكثر الاتجاهات الصحية تطورا، كما تعتبر من أفضل الوسائل للهدوء النفسي و التخلص من التوتر الذهني و معالجة الأمراض الهالكة السائدة في المجتمع البشري بسرعة فائقة.

مسك الختام: إن معدل تفكير الإنسان العاطفي لليوم الواحد بما يقارب من ستين إلى ثمانين ألف فكرة ، وهذه الأفكار ضغوطات جسمانية ونفسية تمارسها علينا الحياة العصرية أكثر فأكثر، وتمنعنا من الاتصال بالنفس الداخلية التي علينا الرجوع إليها للتغلب على المشاكل اليومية، وذلك عن طريق ممارسة رياضة اليوجا لتفريغ الطاقة والمساعدة على حل المشاكل، فاليوجا ليست مجرد رياضة بدنية، بل وهي في الأصل فلسفة تستغل لعلاج بعض العوارض النفسية أيضا، وقد وصفها أحد المعلمين بأنها سلة فاكهة متنوعة فهناك من يطلب القوة الجسدية وآخر ينشد الهدوء العقلي والنفسي وهناك من ينشد الاستغراق في معرفة الذات وعلى هذا الأساس سميت اليوجا بسلة الفاكهة أو النبع الصافي الذي ينشده عطاش المعرفة والحب. فهي تعيد للجسد مرونته وتخفف من الشعور بالقلق والتوتر وتخلص النفس البشرية من أمراض العصر المعروفة كالإكتئاب والقلق والأرق، كذلك تجعلنا اليوجا نستغل القدرات الداخلية لأجسامنا والتي كمننت بعد أن ركنا إلى حياة التكنولوجيا والدعة، فأصبح أفضل مفكرينا وعلمائنا لا يستطيعون استعمال أكثر من عشرة إلى

اليوجا: مفتاح الحياة السعيدة

ثلاثة عشر في المائة من قدراتهم الداخلية، أن اليوجا علاج جسدي وفكري في آن واحد وهي مفتاح الحياة السعيدة لمن أراد أن يسعد.

الهوامش

- ¹. ب.ك. نارايين: فلسفة اليوجا، ص:7
- ². جميل صليبا: المعجم الفلسفي، ج2، ص:590.
- ³. عباس المسيري: الراجا يوجا و حقيقة الإنسان، ص: 7-8
- ⁴. عباس المسيري: الراجا يوجا و حقيقة الإنسان، ص: 76
- ⁵. للتفصيل راجع اليوجا ينبوع السعادة للأستاذ المسيري، ص:26-28
- ⁶. كان أستاذ Feuerstein (1921-2014) عالم النفس التتموية والمعرفية، انتمى إلى رومانيا ، تعلم في أوروبا و نال الدكتوراه في المجال المذكور من جامعة سوبورن - فرنسا بعد التفرغ الرسمي انتقل إلى إسرائيل حيث أدى خدمات جليلة و قضى فيها ما بقي من حياته ويقال انه هو المسئول عن تأسيس معهد Feuerstein.
- ⁷. فيليب أندريه ماس أستاذ مساعد في قسم جنوب آسيا والتبت والدراسات البوذية في جامعة فيينا، النمسا. حصل على شهادة الماجستير عام 1997م، والدكتوراه عام 2004م من جامعة بون، ألمانيا، حيث درس الهندييات، الدراسات الدينية المقارنة، التبتية والفلسفة.
- ⁸. تنسب مدرسة سانخيا (العلم الصحيح الحقيقي) إلى كفيلا، الحكيم الهندي مدون سانخيا سوترا و يقال أنها أقدم المدارس الست و المعروف أنها تنكر وجود الإله، هي فلسفة عدد المقولات الخمس و العشرين، تعتقد أن الكون ينبني على الشعور الخاص و المادة، و سائر الموجودات مستخرجة من المادة، فهي فلسفة مادية مبنية على نظرية التعليل.
- ⁹. للتفصيل راجع نرمين عبد المنعم: اليوجا دواء لكل داء، ص:2-3
- ¹⁰. عبد السلام خان (الأستاذ): الفلسفة الهندية القديمة، ص:234
- ¹¹. جوردون وايت الأستاذ في جامعة شيكاغو درس الهندوسية في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا في باريس واختص بأديان جنوب آسيا في جامعة كاليفورنيا ، و عمل

أستاذًا في جامعة فرجينيا حيث أسس دراسة برنامج جامعة فيرجينيا الخارج في جودبور، الهند في عام 1994.

¹² .David Gordon white: Yoga: Brief History of an idea,P.2

¹³ .ب.ك.ناراين:فلسفة اليوجا،ص:9

¹⁴ .منصورة عبد الأمير: الموسوي: اليوغا... منافع جسدية وعقلية وروحية، صحيفة الوسط البحرينية، العدد 453 عام 2003م

المراجع والمصادر

1. ب.ك. ناراين: فلسفة اليوجا، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، بيروت، عام 1986م.

2. جميل صليبا: المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانجليزية واللاتينية،

ج2 دار الكتاب اللبناني، بيروت- لبنان، 1982م.

3. نرمين عبد المنعم: اليوجا دواء لكل داء، عرب لرننك.بلوج اسبوت.كوم.

4. عباس المسيري: الراجا يوجا و حقيقة الإنسان، مكتبة الأنجلو المصرية،

عام 2002م .

5. عبد السلام خان (الأستاذ): الفلسفة الهندية القديمة، مكتبة رضا رامفور،

1996م.

6. ديفيد غوردون وايت: مقالة عن اليوجا:تاريخ موجز عن الفكر .

7. عباس المسيري: اليوجا... ينبوع السعادة، دار المعارف بمصر، 1969م.

8. منصوره عبد الأمير: الموسوي: اليوغا... منافع جسدية وعقلية وروحية، صحيفة

الوسط البحرينية، العدد 453، ديسمبر 2003م.

9. عباس المسيري وهو لواء طيار متقاعد من الجيش المصري تعرف على اليوجا

في إحدى زيارته المتعددة للهند،التقى عددا من مشاهير وأئمة اليوجا في الخمسينات،

ليتلمذ على يد اليوغي العظيم (الماهاريشي يوغي) المسيري صاحب الخبرة والدراية الواسعة

في هذا المجال، له مؤلفات كثيرة تعتبر من أفضل مراجع المكتبة العربية في علم اليوجا.

اليوجا: مفتاح الحياة السعيدة

10. عدنان الموسوي من ممارسي رياضة اليوجا ومن المهتمين بها في مملكة البحرين، زار القاهرة عام 1979 الميلادي ولقي اليوغي عباس المسيري و الذي له عدة كتب في مجال اليوجا، ثم سافر الموسوي إلى الهند ليتعرف على رياضته المحببة عن كتب حيث لقي مهاديف ديستي غورو مهاراج أو المعلم العظيم، أحد مؤسسي مدارس اليوجا في الهند و الذي شرح له بأن اليوجا توحيد قوى الجسد والعقل والروح مع الله.

رياضة اليوغا في المشهد الثقافي الهندي

فرحان أنصاري*

{عندما نتصدى لليوغا ونتحدث عنها، فلا بدّ من الاعتراف بأنها حركة أو نظام متكامل ومتربط منطقياً. وحينما نحاول دراسة طرق ملموسة عديدة لممارسة اليوغا، نواجه نظريات متنوعة، بعضها تتعايش مع أوساط اليوغيين المختلفة، بينما كانت الأخرى تعتمد على مدارس يوغية منفصلة خاصة}.

الهند تتميز عن غيرها من البلدان العالمية بأرضها الخصبة التي كانت منشأً لعديد من العلوم والفنون، ومهدا لثقافات متنوعة وحضارات موهلة في القدم. نجد فيها الكثير من الديانات؛ أبرزها الهندوسية والإسلام. وعلى الرغم من التنوع الثقافي والديني والمعرفي كانت الهند شعاراً لـ "الوحدة في التنوع" منذ بداية تاريخها حتى لا نجد لها مثيلاً في تاريخ أي بلد سواها، كما أصبح هذا الشعار مبدأً وأساساً لحركات هندية مختلفة قادها كل من زعماء المسلمين وغير المسلمين على السواء. وقد اكتسبت الهند شهرة فائقة على المستوى العالمي في مختلف مجالات العلم والمعرفة والفن وخاصة فن "اليوغا" التي تعدّ من أبرز ما قدمتها الهند للعالم، وهي رياضة روحانية وبدنية انتشرت وسادت وأصبحت شعبية في كل مكان، كما هي تتسم بكونها فريدة من نوعها في العالم أجمع.

ويعتبر اليوم الحادي والعشرون من شهر يونيو يوماً عالمياً لليوغا، وذلك كما أعلنت الأمم المتحدة أن الحادي والعشرين من شهر يونيو لكل عام سيكون يوماً عالمياً لليوغا. وقد تقدم بهذا الاقتراح رئيس وزراء الهند ناريندرا مودي في الجمعية

* باحث، مركز دراسات اللغة العربية والإفريقية، جامعة جواهر لال نهرو، الهند

رياضة اليوغا في المشهد الثقافي الهندي

العامة للأمم المتحدة حيث وجّه الخطاب إلى المنظمات الدولية في شهر سبتمبر عام 2014م وقال فيه: "إن اليوغا تسمح للناس باكتشاف الشعور بالتوحد مع ذاتهم والعالم والطبيعة". وقد وافقت الجمعية العامة للأمم المتحدة بالإجماع على قرار يخصص يوماً للاحتفال بهذه الممارسة القديمة.

وقال الأمين العام للأمم المتحدة "بان كي مون" إن اليوم العالمي لليوغا سيوجه الاهتمام إلى الفوائد الشاملة لهذه الرياضة، وأضاف في بيان "تستطيع رياضة اليوغا أن تسهم في مقاومة الأمراض غير المعدية، وأن تجمع بين المجتمعات بطريقة شاملة تولد الاحترام". ومضى يقول: "اليوغا رياضة قادرة على الإسهام في التنمية والسلام، من الممكن أن تساعد الناس في الأوضاع الطارئة على تخفيف الشعور بالتوتر"¹.

واليوغا كما اكتسبت أهمية بالغة في العصر الراهن على المستوى الوطني والعالمي، فإن توضيحها وتعريفها يطرح عدة تساؤلات يجب دراستها، وهذه الأسئلة تتعلق بأصلها وهدفها وعلاقتها مع تطور الفكر الفلسفي للإنسان بالإضافة إلى أفكاره وتجاربه الدينية.

أصل اليوغا وتاريخها: ومما لا شك فيه أن اليوغا يرجع أصلها إلى الهند، فهي بلاد ولدت فيها فكرة اليوغا. ومنذ مئات السنين، الهنود يمارسون هذه الرياضة الروحانية والبدنية بالإضافة إلى ممارستهم الفعاليات والأنشطة الأخرى، وذلك تحقيقاً للإنجازات الروحية. ولكن عندما نريد العثور على تعريف واضح أو وصف عام لليوغا، فالنصوص الهندية لا تساعدنا في إدلاء المعلومات الكافية عن حقيقة اليوغا بشكل مباشر. ولبين اليوغا وتوضيحها، حتى في المصطلحات الهندية، نحن في حاجة إلى البحث في تاريخها الماضي ووضعها الحالي.

وتشتق كلمة اليوغا من اللغة السنسكريتية "يوج" وهي تعني الربط، والانضمام، والتعلق، والصلة، والتوجيه، وتركيز الانتباه، كما هي تعني الاتحاد والاتصال أيضاً. فهي اتحاد حقيقي لإرادة الإنسان مع إرادة خالقه. وهكذا، فإنها عبارة عن اتحاد

جميع القوى البدنية والعقلية والروحية مع الخالق، وانضباط العقل، والعواطف، والإرادة، وأكثر من هذا كله هي تعني اتزان الروح الذي يمكن المرء من النظر في الحياة من جميع جوانبها بشكل متساو².

وتعتبر اليوغا واحدة من النظم التقليدية الستة للفلسفة الهندية. وقد قام بجمعها وتنسيقها وترتيبها باتانجالي في عمله الكلاسيكي "يوغا سوترا" (مجموعة حكم)، وهي تتألف من مائة وخمسة وثمانين حكمة أو مثلاً. ويسمى نظام اليوغا هكذا لأنه يعلم الوسائل التي يمكن بواسطتها اتحاد الروح الإنسانية أو اتصالها بالله حتى تتحرر. وهكذا، عندما نبدأ بذكر اليوغا وأصله، فلا مفر من الوصف الأولي لليوغا، لأنه أمر لا بد منه. وبصفة عامة تعتبر اليوغا نشاطاً موجهاً وواعياً لفرد يطمح إلى تجربة شعورية وفكرية فائقة تكتسب لديه قيمة روحية وتنتقل أو تعمق حياته ومعرفته أو فهم الحقائق نفسها بشكل كامل أو إلى درجة ما. وهذا يعني بشكل واضح أن اليوغا تهدف إلى إحداث حالة ذهنية بارعة أكثر، من شأنها أن تسمو بتجربة يومية عادية للإنسان وتفتح له مجالاً جديداً للرؤية والقدرة على إدراك تلك الرؤية. وهكذا، يتحول وجوده الشخصي إلى وضع جديد، ومن ثم يستطيع أن يعمل في بُعد جديد لم يكن له معروفاً أو كان يتعذر الحصول عليه من قبل.

والنشأة التاريخية لليوغا في الهند تنتمي إلى الماضي البعيد، ومن الصعب جداً أن نحدد متى وكيف بدأت هذه اليوغا؟ وقد عبر علماء مقارنة الأديان عن آرائهم بشأن اليوغا، فقالوا إنها تطورت بالاتصال أو نتيجةً لممارسة دينية في العصور الفيديّة وما بعد الفيديّة، وعلى أساس الممارسة الوجدية والشامانية الأولية (والشامان: كاهن يستخدم السحر لمعالجة المرضى ولكشف المخبأ وللسيطرة على الأحداث) التي تبقى على قيد الحياة بالتوازي مع العبادة الدينية الرسمية للبرهمانية. وقد اختلف العلماء أيضاً في وجود عناصر اليوغا وتتبعها في العبادة الفيديّة القديمة أو في الأعمال السحرية غير التقليدية التي قد مارسها جماعة مسماة بـ "ورتياس

رياضة اليوغا في المشهد الثقافي الهندي

"Vratyas" (ورتياس: هي جماعة ملزمة بالوعود المشتركة في شمال شرقي الهند، وربما كانت هي أولى جماعة من الغزاة الآريين).³

وبالإضافة إلى هذه الأقوال والآراء عن نشأة تاريخية لليوغا، يجدر بنا أن نتصفح أوراق المصادر التاريخية التي تفيدنا بالمعلومات عن ظهور اليوغيين وممارسة اليوغا في الماضي في الهند بقدر ما يسمح لنا البحث التاريخي بالقيام به. وأقرب إشارة إلى وجود بعض أشكال ممارسة اليوغا في الهند تتبع من ثقافة "هارابا" ما قبل الفيديّة التي يرجع تاريخها إلى 2700 قبل الميلاد. ويعرض عدد من الأختام المحفورة صورة شخص يجلس جلسة اليوغى، كما يستخدم هذه الطريقة اليوغيون الهنود للتأمل والتفكير حتى يومنا هذا.

ويحمل واحد من الأشكال المصورة علامات الألوهية (التي تظهر في القرون اللاحقة على صور الإله الهندوسي "شيفا" Shiva، الذي عبده بعض اليوغيين الطائفيين معتبرين إياه رب اليوغا). وتصور الأختام العديدة التي تم العثور عليها في المكتشفات الأثرية في منطقة "هارابا وموهينجودارو" مناظر الحياة الدينية والأحداث الأسطورية التي اكتسبت أهمية بالغة لدى شعب ذلك الوقت. ويشير الإله الذي يبدو جالسا والأشكال الأخرى التي تبدو غارقة في التأمل، إلى أن ممارسة اليوغا الفكرية كانت معروفة ولعبت دورا هاما في الآفاق الدينية وربما يمكن أن نقول الفلسفية في ذلك العصر.

ويعرض الختم الآخر شخصا متريعا في جلوسه (جلسة القرفصاء) مع الأفاعي المنتصبه من نوع الكوبرا أمامه. وهكذا، جميع النواحي الثلاث لليوغا التي كانت معروفة منذ القرون اللاحقة وفي العصر الراهن أيضا، واضحة على الخواتم: اليوغيون الذين يركزون على الشخصية الإنسانية لمن يبذلون الجهد في ممارسة اليوغا، واليوغيون الذين ينتمون لتقليد ديني ويعبدون إلههم، واليوغيون الذين ينتمون لاتجاه يوغى مخصص بالشعب المهمش وبالتنسك والتزهد.

وبناءً على هذا، تسمح لنا المكتشفات الأثرية بأن نقول إن مجموعة واسعة من أنشطة اليوغا كانت معروفة في ذلك الحين لدى الشعب القديم في الهند ما قبل الآرية، إلا أن الخلفية النظرية أو الأيدولوجية لهذه النشاطات قد يعثرها الإبهام والغموض.

مدارس مختلفة لليوغا: عندما نتصدى لليوغا ونتحدث عنها، فلا بدّ من الاعتراف بأنها حركة أو نظام متكامل ومترايط منطقيًا. وحينما نحاول دراسة طرق ملموسة عديدة لممارسة اليوغا، نواجه نظريات متنوعة، بعضها تتعايش مع أوساط اليوغيين المختلفة، بينما كانت الأخرى تعتمد على مدارس يوغية منفصلة خاصة. وتثبت المصادر الفيديّة هذا الرأي أيضًا وتفيدنا بالمعلومات عنها بأنها توجد هناك أنواع مختلفة لليوغيين في عصرهم، وكما يؤكد الدليل غير المباشر من "أبنيشاد" القديمة، بالإضافة إلى الدليل المباشر من شريعة "بالي كانون"، أنه كانت هناك مدارس اليوغا العديدة مع أساليب الممارسة المختلفة في زمنهم. (Pali Canon: هي مجموعة من الكتب المعترف بها في عُرف تيراواديان Theravadan البوذية، وقد تم تدوينها في اللغة البالية).

ولكن ما هي إلا البوذية نفسها التي قد ذُكرت في شريعة بالي والتي يمكن أن نتحدث عن مدرستها المنهجية والشاملة أو المتكاملة لممارسة اليوغا، وبالتالي هي، أي المدرسة البوذية، أول وأقدم مدرسة تم الحفاظ عليها في مجملها. والمدارس اليوغية الأخرى التي تتعاصر مع البوذية المبكرة تُعرف فقط بالإشارات إليها في المصادر البالية، ولكن يمكن استخلاص المزيد من الأدلة على وجودها على أساس النصوص الأبنيشادية، وفي وقت لاحق على الآداب الملحمية، خاصة مهابهاراتا. والمدرسة الأخرى لليوغا التي هي أقدم قليلا من المدرسة البوذية، ونظامها معروف بشكل معقول، هي اليوغا اليانية. ولكنها على الرغم من كونها أكثر قدامة بالنسبة للبوذية، مصادرها، وهي الوثائق الأدبية اليانية، قد دُونت بعد قرون عديدة من المصادر البوذية. وبالتالي المنهج القديم الآخر لليوغا الذي يمكن مقارنتها مع

رياضة اليوغا في المشهد الثقافي الهندي

البوذية، هو اليوغا الباتنجالية التي تبدو أن تكون قد ظهرت نتيجة الجمع بين اتجاهات مختلفة لليوغا، والتي يرجع تاريخها إلى العصور القديمة. وهكذا، نستنتج بشكل واضح أن المدارس المختلفة لليوغا التي ربما كانت موجودة منذ العصور الفيديّة المبكرة جداً، لم تطوّر هوياتها المنفصلة القوية على مدى عدة أجيال من أتباعها. ونتيجة لذلك، اندمجت جميعها نهائياً في الطريق الباتنجالي دون أن تبقى مدرسة مستقلة.

مدرسة اليوغا البوذية المبكرة⁴: وقد سبق أن رأينا أن البوذية لم تكن فقط مدرسة لليوغا بل كانت أكثر بكثير منها. ويمكننا القول إن تعاليم بوذا تهدف، من البداية، إلى أن تستبدل في أذهان أتباعه كلا من الدين المعاصر الذي عادة ما يسمى الآن البرهمانية (وهو شكل من أشكال العبادة الشعائرية على أساس التقليد الفيدي)، والتأمل الفلسفي الحالي الذي انعكس جزئياً في الأوبنيشاد المعاصرة. وكل من هذين الاتجاهين كان أيضاً في نظرتهم موجها نحو الكون ليكون متناغماً مع موقف واقعي صارم للبحث عن التحرر الفردي كما ذكر في شريعة بالي.

وتعرض قصة حياة "بوذا" هذا الموقف الواقعي بشكل واضح. فعندما غادر بوذا منزله وأصبح متقشفاً متشرداً، لم ينضم إلى مدرسة فلسفية من أجل تعلم فن أنيق من مناقشة جدلية آنذاك، بل بقي تلميذاً لمختلف معلمي اليوغا، ومارس فيما بعد أيضاً هاتاً يوغا من نوع براناياما (Pranayama: هي كلمة سنسكريتية مؤلفة من كلمتين؛ "برانا" ومعناها التنفس و"ياما" ومعناها التمديد، فهي تعني "تمديد التنفس")، وذلك أملاً في تحقيق التنوير الكامل. وقد نجح أخيراً في مساعيه، بعد أن كان قد حقق إنجازاته في اليوغا، من خلال تعميق تأملاته وملازمتها عن طريق ما يمكن وصفه بأنه وعي قوي ورؤية تحليلية.

وبعد زمن قليل من التدريس، استخدم البوذا كل ما حققه من التجارب السابقة، وأصبحت مجموعة من التعليمات الناتجة عن الممارسة الروحية ما تسمى الطريق النبيل ذا ثمانية أجزاء، وهو أول نظام متكامل معروف لليوغا.

ويعتبر الطريق البوذي ذو ثمانية أجزاء نظاما لتدريب العقل وشخصية الإنسان كلها من أجل التحقيق النهائي لرؤية الواقع التي هي أبعد من القدرة العادية للعقل الفردي أن تفهمها في الظروف العادية. وبالتالي فإن مهمة هذا الطريق هي إعداد الفرد للقيام بالتغلب على نفسه. ويتم ذلك في عدة مراحل بما فيها السلوك غير الأناني، والتفكير المجرد والحالات العميقة للتأمل التي تترك فيها شخصية الفرد وراءها.

ومع ذلك فإن لكل جزء من الأجزاء الثمانية للطريق مراحلها الخاصة من تطوير وتطبيق مثل المرحلة الأولى والمتقدمة، والمرحلة الخارجية والداخلية، وأخيرا المرحلة المتكاملة. وهذا يعني أنها لا ترسم بالضبط خطا للخطوات التقدمية على طريق تناولها واحدا تلو الآخر، وإنما يجب بذل السعي أكثر أو أقل لتحقيق نظام شامل للتعليم الذاتي وتدريب جميع مكونات الشخصية الإنسانية في وقت واحد وفقا لقدرة الفرد. وفيما يلي نورد تفسيراً موجزا لها.

1. **الفهم الصحيح:** الفهم الصحيح قد يعني لمن يتبع التعاليم البوذية بأكملها النظر إلى كل شيء في الحياة في ضوء الصيغ العقائدية الوفيرة في شريعة بالي. ومثل هذا الفهم، بناءً على عبارات الكتب المقدسة، ينبغي استبداله تدريجياً عن طريق الفهم الواقع وفقاً لروح التدريس وأخيراً من خلال رؤية الأشياء مباشرة "كما هي في الواقع"، عندما يتقدم المتبع في ممارسته الشخصية.

ومع ذلك، فإن طالبا حديث العهد باليوغا عليه أن يفسر الصيغ العقائدية من جديد لتناسب تفكيره الخاص، آخذاً في الاعتبار الهدف النهائي لليوغا البوذية. وكما هدفه التنوير والتفوق على شخصية المرء نفسها، فإنه قد يمكن إدراك الفهم الصحيح مثل تربية النفس على فهم الأشياء الفردية والواقع ككل، بطريقة غير شخصية أو فوق شخصية.

رياضة اليوغا في المشهد الثقافي الهندي

والتدرب على الفهم الصحيح يعني تعلم النظر في الواقع من منظور عالي يفوق مصالح الرجل الشخصية ويهدف في نهاية الأمر إلى رؤية كل شيء واحد في إطار الجميع للواقع.

2. **التفكير الصحيح:** الصيغة العقائدية البوذية للتفكير الصحيح هي ثنائية. فأولاً يجب أن يتصف التفكير بأنه خالٍ من الجشع وسوء النية والقسوة، وثانياً أن يبتعد عن المطامع الدنيوية ويتصل بالطريق ذي ثمانية أجزاء وهدفه التنوير. وبعبارة أخرى، التفكير الصحيح يتبع بطبيعة الحال، عندما يمارس الفهم الصحيح. ويجب أن تؤدي الجهود المبذولة في التفوق على وجهات النظر الشخصية الضيقة والأهداف إلى التفكير الذي لا تحكمه المطامح الشخصية والمشاعر الذاتية. ومحاولة رؤية الأشياء، كما هي في الواقع، تجعل التفكير يجلب كل شيء إلى علاقة مع الهدف النهائي من المعرفة الكاملة أو التنوير بحيث تتوقف الأهداف المحدودة عن السيطرة على نشاط العقل. ونتيجة للتفكير الصحيح، العقل يبدأ في التطور بشكل تدريجي. وهكذا، الحياة كلها تتحول إلى اتجاه الهدف النهائي وتصبح تدريباً مستمراً لتحقيق ذلك.

3. **الكلام الصحيح:** الكلام الصحيح يعني الامتناع عن الكذب، واللغة المزعجة والكلام من دون جدوى. ويمكن توضيح الامتناع عن الكذب بأنه لن يكذب عمداً. وكما تجرح اللغة المزعجة الآخرين، وتتبع من حالة العقل القاسية أو الماكرة، يجب تجنبها. والكلام دون جدوى يعني الحديث عن أشياء لا صلة لها بالموضوع، والذي هو مضيع للوقت والطاقة العقلية.

ويندرج في قائمة الصيغة الإيجابية للكلام الصحيح التحدث عما هو حق؛ والقول عن الآخرين ما هو قابل للمدح؛ واستخدام كلمات رقيقة ومهذبة ومهذبة وودية؛ والتحدث عن الأشياء المفيدة التي تؤدي إلى معرفة أفضل للواقع، وتعزز الأخلاق والتقدم الروحي.

4. **السلوك الصحيح:** والمراد بذلك الامتناع عن القتل والسرقة والممارسة الجنسية للأخلاقية وتناول المسكرات وما شابهها. والبوذية القديمة لا تعترف بأي حل وسط في هذا الصدد لمن يتبع الطريق. كما يجب التجنب من السرقة أو المال الممنوع أخذه، لأنه يمكن أن يرتكب مثل هذه الأشياء المحرمة عندما يبهر العقل بسبب الجشع والحرص. ويمكن إطلاق الممارسة الجنسية للأخلاقية على تلك التي لا توافق الممارسة المعلومة وتتأفي القيم الأخلاقية المعترف بها في المجتمع البشري.

كما يجب الاجتناب من جميع أنواع المسكرات لأنها تسبب في تشويه عمليات العقل، مثل القدرة على التمييز وإصدار الأحكام السليمة، وإمكانية تطوير الرؤية العالية من خلال التأمل الحقيقي وما إلى ذلك من الأمور الأخرى.

5. **المعيشة الصحيحة:** يجب لمتبع اليوغا البوذية أن يختار وسيلة لكسب العيش التي لا تخالف المبادئ والقوانين الشرعية. وبعبارة أخرى، إنه يتحمل مسؤوليته الشخصية الكاملة عن كل شيء يفعله في مجال أنشطته المهنية. ولا يقدر أي شيء على تغيير مسؤولية الفرد التي تقع على عاتقه عن الجرائم ضد المبادئ الأخلاقية والروحية. وهذا يضيق باستمرار وإلى حد كبير الخيارات المهنية المفتوحة أمام المتبع للطريق. وتذكر النصوص القديمة بعض المهن المحظورة مثل الأكاذيب وتجارة الجنس والأسلحة واللحوم والمسكرات والسموم وتهريب الأطفال.

6. **الجهاد الصحيح:** يبدأ تدريب اليوغا الفعلي مع هذا الجزء للطريق. والصيغة العقائدية (وتسمى عادة "أربعة مساعي كبيرة") تدعو لبذل الجهد في (1) تجنب الحالات غير الصالحة للعقل أو (2) التغلب على تلك التي قد دخلت العقل بالفعل (3) تطوير الحالات الصالحة للعقل التي لم يتمتع بها من قبل و (4) الحفاظ على تلك التي قد طورها سابقاً.

والرسالة الهامة لهذا الجزء من الطريق البوذي هي إشارتها الواضحة إلى أهمية وضرورة عنصر الإرادة. وبدون توظيف المجهود الإرادي لا يتحقق أي تنوير وأي

رياضة اليوغا في المشهد الثقافي الهندي

تقدم في طريق اليوغا. و لا بدّ من الحفاظ على قرار الاستمرار في السير على هذا الطريق من يوم إلى آخر ومن لحظة إلى أخرى.

7. **الوعي الصحيح:** هذا هو الجزء المهم من الطريق البوذي الذي يتسم بثمانية أجزاء. وهو يهدف إلى تطوير العقل وتدريبه بكل وعي. فاليوغي يدرّب نفسه ليكون انتباهه مرتكزا على أعماله، سواء العقلية أو الجسدية، وذلك لأدائها في ضوء وعيه الكامل، تلقائيا أو فطريا حتى يفعل شيئا يمكن أن يستنكره فيما بعد. كما يؤدي هذا التدريب إلى زيادة معرفة الذات والقدرة المتزايدة على التصرف وفقا لإرادته الواعية تماما.

8. **التأمل الصحيح:** هذا هو الجزء الأخير من الطريق البوذي، وهو يصف الإنجازات التأملية التقدمية والخبرات التي يمارسها ذلك اليوغي الذي يكرس طاقاته بكل أمانة وإخلاص من أجل نموه الروحي. ويبدأ الإجراء التأملي عندما يصرف المتأمل انتباهه عن العالم الخارجي ويركّزه في داخل عقله. ويتم تحقيق هذه العملية خطوة خطوة أثناء تورطه في عملية رفض وتجاهل أو عدم ملاحظة الانطباعات التي تدخل عقله من خلال أبواب الحواس. وفي ذلك الحين هو يهدف إلى تحرير العقل من استغراقه بالأفكار والصور على أساس البيانات الخارجية وكذلك من التدخلات العاطفية والمشاكل المفاهيمية.

هذه هي الأجزاء الثمانية للطريق البوذي التي قد تحدثنا عنها في السطور السابقة، ولكل جزء منها له أهمية خاصة في الحصول على تعاليم اليوغا البوذية. ومن أجل اتخاذ الطريق البوذي ذي ثمانية أجزاء مع تحقيق المعرفة الحقيقية أو الحكمة والتحرير الحقيقي، يجب أن توصل كافة الأجزاء الثمانية إلى الكمال: تلك التي تتعامل مع الأخلاق، وتلك التي تهتم بالتطور التأملي للعقل، وتلك التي تشكل الحكمة وهكذا.

اليوغا الباتنجالية: قد اشتهر نظام اليوغا الذي تصدر تحت اسم باتنجالي وقدم في حجم ضئيل من مجموعة حكم (سوترا) باتنجالي الخاصة باليوغا بكونها بيانا

تفسيريا كلاسيكيا لليوغا. وتسمى أحيانا بـ راجا يوغا، التي يمكن ترجمتها بـ "اليوغا الملكية".

وتعتبر اليوغا الباتجالية ثاني نظام أو بيان تفسيري أساسي خاص بتقنية اليوغا التي تم الحفاظ عليها منذ العصور القديمة. ويمكن القول إنها أكثر تفصيلا، كما هي تلخص التقنية الفعلية لإجراءات اليوغا على نحو أصح من البيان التفسيري البوذي. وأما ما يتعلق بالزمن وشخصية مؤلف مجموعة حكم (سوترا) اليوغا، فإن العلماء لم يتوصلوا حتى الآن إلى اتفاق كامل نتيجة لعدم وجود أدلة قاطعة وقلة المواد الموثوق بها والتي تعتمد عليها وجهات النظر المحددة. وهكذا لم يُعرف شيئا عن باتجالي نفسه، ولم تنصدر البيانات الأسطورية. وفي هذا الصدد، لا يوجد هناك فرق كبير بينه وبين مؤسس أول نظام اليوغا المتكامل (البوذا). كما نجد اختلافات واضحة أخرى. فكان بوذا مؤسس نظامه، إلا أنه استفاد من بعض التجارب التي اكتسبها سابقا تحت العديد من معلمي اليوغا في ذلك الوقت. أما باتجالي فلم يكن مؤسس ولا قائد حركة جديدة أو جماعة، كما لا تبرز شخصيته في نصوصه بأي طريقة، وهي قصيرة ومختصرة ومجهولة.⁵

وقد ظهرت مجموعة حكم (سوترا) اليوغا للباتجالي خلال الوقت الذي لم تكن فيه اليوغا ممارسة يقوم بها بعض الأفراد، وإنما كانت قد أصبحت شائعة واكتسبت شعبية كبيرة جدا نتيجة لانتشار الديانة البوذية واليانية والمدارس الأخرى غير التقليدية، وللاعتراف بها من جانب بعض الأوساط الدينية الأرثوذكسية التي قامت بالتعديل في ممارسة اليوغا وتفسيرها لتناسب مع عباداتهم ومعتقداتهم الطائفية. وقد أدى هذا التعديل إلى تخفيف بعض قواعد اليوغا الصارمة ومبادئ الممارسة. وهكذا وضع نص باتجالي معايير لممارسة اليوغا وأهدافها التي كانت مؤثرة جدا. وبالتالي ظهرت مجموعة حكم اليوغا لتكون نصا كلاسيكيا لها، وهي لا تزال هكذا عمليا حتى يومنا هذا. كما هي تمثل الاتجاه الدقيق والمتزن والصادق في اليوغا كما تتبعها أجيال من الباحثين عن الحقيقة على مدى قرون عديدة؛ وهو اتجاه قد سبق له أن

رياضة اليوغا في المشهد الثقافي الهندي

وجد لنفسه تعبيراً في الطريق البوذي ذي ثمانية أجزاء، والذي قد استفاد منها بانتجالي بشكل واضح. وكما يتصف الطريق البوذي لليوغا بثمانية أجزاء، فإن الطريق البانتجالي لليوغا أيضاً يتسم بثمانية أجزاء. وكل من هذه الأجزاء كان معروفاً قبل بانتجالي. ويمكن تلخيص طريق بانتجالي ذي ثمانية أجزاء على النحو التالي:⁶

1. ياما: هذه الكلمة يمكن تفسيرها بـ "العفة". إنها تمثل الجهد الواعي المبذول من جانب اليوغي للامتناع عن القيام بالأعمال التي تمهد لذهنه الطريق إلى التورط في الكفاح العشوائي من أجل البقاء والارتياح داخل نطاق القيم الموجودة في الحياة. وهي خمسة أنواع:

1. أهيمسا: وهي تعني اللاعنف والامتناع عن القتل والإساءة إلى الكائنات الأخرى.

2. ساتيا: وهي الصدق والامتناع عن الكذب والزور من أي نوع كان.

3. آستيا: وهي الامتناع عن السرقة.

4. براهما تشاريا: هي تعني المعيشة وفقاً لمعايير هدف اليوغا، وهو الاتحاد مع الله أو مع الواقع المطلق، أو المعرفة النهائية المباشرة (حسب التفاسير المختلفة).

5. أباريجراها: هي "الامتناع عن الاستيلاء". وهو وضع عقلي لا يعتبر أي شيء ملكاً لأحد، حتى ولو كان يستخدمه ويبدو ضرورياً للحياة.

2. نياما: كل من كلمتي "ياما" و"نياما" تشتق من أصل واحد وهو "يام" الذي يعني التحكم. ويمكن تفسير "نياما" على أنها "المراقبة"، وهي تمثل الجهد الذي يبذله اليوغي بشكل تدريجي لمراقبة بعض المبادئ التي تُعدّ شخصيته للإنجازات السامية. وهي أيضاً خمسة أنواع:

1. ساوتشا: وهي تعني الطهارة خارجياً وداخلياً.

2. سانتوسا: وهي الرضا. وهي تعبر عن استعداد المدرب لمواجهة وقبول الواقع كما هو بدون الابتهاج أو الاكتئاب منه.
3. تاباس: هي تعني "التكشف" وهي تدخل في ممارسة اليوغا التحمل والصوم وما إلى ذلك من الممارسات التشفية التي تساعد في تقليل اعتماد اليوغي على الأشياء التي لا يمكن تجنبها تماما.
4. سفاديايا: هي التنمية الذاتية أو التعليم الذاتي، وتشير إلى ضرورة الدراسة المستمرة والتعلم المتواصل وتنمية الذكاء والقدرات العقلية.
5. إيشوارايرانيدهانا: هي تعني "التفكير الدائم للإله" أو "الاستسلام للرب"⁷.
3. آسانا: هي تعني "الوضعية" أو "الوضع". ويجب لمن يقوم بممارسة اليوغا الفعالة أن يكون قادرا على أداء وضع مستقر ومقبول عند تدريب العقل، حتى يكون العقل خاليا من التدخل الجسدي الذي عادة ما يجبر واحدا على نقل أو تغيير الوضع. وقد كان وضع "قرفصاء" موجودا في الهند منذ زمن سحيق. وله عدة أنواع؛ منها وضع اللوتس وهو الأكثر إثارة للإعجاب، وهو وضع أساسي يمارسه اليوغي قبل أن ينتقل إلى الرياضات الأخرى. وهذا الوضع يوفر التوازن للجسم وإلى الدرجة أن الإنسان إذا غلبه النوم وهو في هذا الوضع فلا خطر عليه من السقوط⁸.
- وينبغي أن تكون الوضعية دائما ثابتة وممتعة، ولا تكون قاسية ومسببة للتوتر. كما يجب أن يتم تنظيم التنفس من أجل التعود على التنفس بطريقة صحيحة. وينبغي أن تمارس السيطرة على الحواس حتى تدرك الأوامر للامتناع عن الانتباه أو لتجعل الانتباه وفقا لإرادتك⁹.
4. براناياما: هي التحكم في عملية التنفس. وعادة ما يتم ذلك في الوضع الذي يختاره من يقوم بممارسة اليوغا. إنها تضبط التنفس وإيقاعه، وذلك عن طريق إبطائه وإدخال فواصل أطول بين مراحل التنفس. وكما توجد هناك علاقة وثيقة بين تدفق التنفس وديناميات العقل، فالمساعدة التي يمكن الحصول عليها في إنشاء بعض التوازن للعقل، وتحسين وضوحه وقدرته على التأمل، هي جديرة بالاعتبار¹⁰.

رياضة اليوغا في المشهد الثقافي الهندي

5. **براتياهارا:** هي تعني "الانسحاب". وهي الخطوة الأولى العقلية البحتة في نظام اليوغا، وتهدف إلى إعداد العقل لرؤية روحية، التي يمكن أن تأتي من الداخل فقط عندما يصبح العقل متفتحا في هذا الاتجاه بدلا من أن تتوقع أن يدخله كل شيء من الخارج. والعقل الذي قد أصبح واضحا وهادئا عن طريق "براناياما" يكون الآن أكثر نقاءً وصفوياً جراء صرف انتباهه من نشاط الحواس التي تملأه بشكل مستمر بالصور المستمدة من الكائنات الخارجية.

6. **دهارانا:** هي التركيز، وتهدف إلى تحقيق "التوحد" للعقل، ليبقى العقل بعد ذلك مرتكزا على موضوع معين لتجربته الداخلية بطريقة غير معروفة للعقل عندما يعمل على مستوى البيانات الحسية. وهذا التركيز يؤدي إلى درجة من الفهم واستيعاب الموضوع المختار الذي يخترق نهائيا جوهره أو طبيعته.

7. **دهيانا:** هي التأمل، ويُتوصّل إليها عندما يصبح التركيز تلقائياً. وهكذا، فهي عملية طبيعية لعقل اليوغا، كما التفكير هو عمل طبيعي لشخص ما، ولذلك لا حاجة لبذل الجهد الخاص للبدء فيها.

8. **سامادهي:** هي تعني "التوحيد". وهي تاج المساعي اليوغية في نظام باتنجالي. كما هي التوحيد الواعي والواقعي لرؤية اليوغا أو القدرة المعرفية أو العقل نفسه مع قلب الواقع تماما التي تحرره. فهو يصل إلى التحرر النهائي من العبودية إلى أشكال الوجود المحدودة التي يمكن أن توجد من خلال تجاهل أو انعدام الرؤية الإجمالية. والسامادهي ليست تجربة بسيطة بل تتحقق في مراحل. ولا يتوضح التسلسل والعلاقة بين هذه المراحل من نص باتنجالي¹¹.

مدارس أخرى لليوغا: بالإضافة إلى هاتين المدرستين البارزتين لليوغا وهي اليوغا البوذية واليوغا الباتنجالية التي تنتم كل منهما بالطريق ذي ثمانية أجزاء، نجد هناك أيضا المدارس الأخرى لليوغا التي طورت فيما بعد ملامحها المنهجية الخاصة وكذلك شكلت نفسها بشكل عملي في مدارس منفصلة لليوغا. من أهمها أربعة وهي: كارما يوغا، ودهيانا يوغا، وجنانا يوغا، وبهاكتي يوغا.

كارما يوغا: هي نوع من أنواع اليوغا التي تستند إلى تعاليم "بهاغفاد جيتا"؛ الكتاب المقدس للهندوسية الذي يتحدث عن كارما يوغا في بابه الثالث. وهذا النوع من اليوغا عبارة عن تحقيق الكمال في العمل. ويقال إن كارما يوغا تعتبر طريقة أكثر فعالية لإحراز التقدم في الحياة الروحية. كما هي جزء من الطبيعة وواحدة من الأنواع العديدة المتفرعة من اليوغا.

وهي توصف بأنها طريقة العمل والتفكير والاستعداد يمكن من خلالها أن يقوم واحد بتوجيه نفسه نحو الإدراك عن طريق العمل وفقا لواجباته دون النظر في الرغبات الذاتية الشخصية، يحبها أو يكرهها. وذلك لأن العمل الذي يقوم به واحد بدافع الرغبة الذاتية أو الغضب يؤدي إلى الشرّ ويعمي الرجل حتى لا يستطيع أن يرى الحكمة فيعمل بحماقة.

دهيانا يوغا: هي طريقة التأمل الذي يعني وعيا أعمق للاتحاد مع إدراك الجسم والعقل والحواس والمناطق المحيطة، التي تبقى مجهولة الهوية معه. ويمكن تناول دهيانا يوغا بعد التمارين السابقة، وهي تؤدي إلى الساماهي ومعرفة الذات. وبعبارة أخرى، يكمن متابعة دهيانا يوغا أو طريقة التأمل عندما يتورط الرجل في الحياة الدنيا، شريطة أن يمارس أيضا كارما يوغا أو طريق التخلي عن نتائج الأعمال الشخصية. وفي هذه الطريقة تصبح الذات الدنيا للإنسان محكومة من قبل الذات العليا له، كما تصبح شخصيته موحدة ومتكاملة. وبالتالي ستتكلل جهوده التأملية بالنجاح.

جنانا يوغا: هي طريقة المعرفة. وكلمة جنانا قد تسمى بـ "Gyana" أيضاً هي كلمة سنسكريتية تعني المعرفة. وهذا النوع يختلف عن غيره من أنواع اليوغا بمعنى أن الأنواع الأخرى تؤكد على طريقة منظمة لتجربة الواقع من خلال عملية خاصة يتم القيام بها عن طريق ممارسة أنواع التأمل المختلفة، إلا أن هذه الطريقة تنص ببساطة أن المعرفة فقط تكفي. وفي المرحلة النهائية تصبح هذه المعرفة حكمة أو إدراكا مباشرا نهائيا لوحدة أساسية من الوجود. وفي الوقت نفسه، يتم الحفاظ على

رياضة اليوغا في المشهد الثقافي الهندي

الوجود الشخصي الأبدى لليوغي. وهناك أربعة متطلبات أساسية في نظام جنانا يوغا التي يدرّب فيها اليوغي نفسه. وهي: فيفيكا (التمييز)، وفيراغيا (الهدوء)، وساتسامباتي (سنة إنجازات وهي: تهذيب العقل، وضبط النفس عند العمل، والقضاء على الرغبة في الاستيلاء، والصبر، والثقة، وارتكاز العقل)، وموموكسوتفا "Mumuksutva" (التوق إلى التحرر).

بهاكتي يوغا: هي الطريق الروحي أو الممارسة الروحية داخل الهندوسية التي تركز على رعاية الحب والإخلاص تجاه الله. وربما هي طريقة وحيدة للحب الإلهي في مدرسة اليوغا التي تستند كلياً إلى الاعتقاد في وجود الإله الشخصي. وقد عرفت بأنها "تعبّد إلهي خالص يهدف لإرضاء الرب فقط." كما هي وسيلة لإدراك الله، ويتم تدريسها في معظم الأحيان بطريقة أسهل للشخص العادي، لأنها لا تتطوي على ممارسات يوغية شاملة. وتعتبر "بهاغافاد غيتا"، و"بهاغافاتا بورانا"، و"بوراناس" من الكتب المهمة التي تشرح فلسفة بهاكتي. والحركات الهندوسية التي تنتمي لها بهاكتي كممارسة رئيسية، تسمى الحركات البهاكتية، ومن أبرز مدارسها فايشنافية، وشيفية، وشاكتية.

اليوغا في العصر الحديث: اليوغا كما يرجع أصلها إلى الهند، كانت دائماً في شكل أو آخر، جزء لا يتجزأ من الحضارة الهندية. إنها تبوّأت مكان الصدارة إبان القرنين السادس والخامس قبل الميلاد. كما سيطرت في القرن الثامن عشر الميلادي ظواهر اليوغا المختلفة على مشهد الحياة والتاريخ الهندي، عندما كانت الإمبراطورية المغولية تتدهور، وبدأ البريطانيون يتدخلون في شؤون البلاد حتى استولوا على حكومة الهند. ولكن التقليد الحي لليوغا باعتباره طريقاً فردياً قد انتقل على مر العصور من جيل إلى جيل حتى يومنا هذا.

وقد ظهر العديد من اليوغيين البارزين على ساحة التاريخ الهندي خلال جميع هذه القرون. اكتسب بعضهم شهرة واسعة على مستوى الإقليم، كما ذاع صيت بعضهم في جميع أنحاء الهند. واحتل البعض الآخرون مكانة مرموقة في الفلسفة،

حتى تخضع تعاليمهم للبحوث الأكاديمية في الوقت الحاضر. واشتهر بعضهم فقط في عصرهم، كما أصبح معظمهم نسيا منسيا.

وكان رامكريشنا أول ناسك هندي في العصر الحديث الذي تجاوزت شهرته آفاق الهند، كما يعتبر فيفيكاناندا أول داع للروحانية الهندية في الغرب، وهو تلميذ رامكريشنا. ويحسن بنا أن نقدم تاريخا موجزا عن حياتهما.

رامكريشنا: إنه ولد في عام 1836م في كاماريكور، وهي قرية صغيرة في ولاية بنغال الغربية. وكانت أسرته فقيرة متدينة تقليدية، تنتمي للطبقة البراهمية. وكان يتميز منذ نعومة أظفاره بالذكاء المتوقد والطاقة الروحية. درس الأدب الهندوسي بكل جد وعناية بالغة. له موهبة كبيرة في التمثيل الذي ارتبط، في الأسلوب الهندي التقليدي، بالغناء والرقص، كما شكّل فرقة مسرحية لتمثيل حلقة من "رامايانا" و"ماهاباراتا". وأصبح كاهنا في "معبد داكشينييسوار كالي" Dakshineswar Kali Temple، وكان هذا المعبد مخصصا لخدمة إلهة "كالي"، التي أثرت في الفروع الرئيسية للتقليد البهاكتي البنغالي. وكانت "بهيراوي براهماني" أول معلمته الروحانية، وهي امرأة متقشفة اشتهرت على نطاق واسع، وبرعت في تانترا وفيشنافا وبهاكتي. وفي وقت لاحق، علّمه ناسك اسمه "توتا بوري" طريقة التأمل، فقام بممارسة "تيرفيكالبا سامادهي" (نوع من التأمل) تحت إشرافه.

اكتسب رامكريشنا سمعة فائقة في مجال اليوغا. ولا يستطيع أحد أن يشك في إنجازاته السامية وقوته الهائلة لتحويل الآخرين. وقد بلغ أعلى درجات الروحانية حتى جعل عامة الناس والمتقفون الهنود والزائرون من الخارج يشعرون بأنه مثال رائع للقوة الروحانية. وعندما توفي عام 1886م، شكلت مجموعة من أقرب تلاميذه جماعة رهبانية تحت قيادة فيفيكاناندا. وفي وقت لاحق تطورت هذه الحركة إلى منظمة عالمية.

فيفيكاناندا: يعتبر اسم فيفيكاناندا من أبرز الأسماء التي ترتبط بنشر المعرفة عن اليوغا في العصر الحديث. وقد جعله ذكاؤه وقدرته الفكرية داعياً متفوقاً لتعاليم

رياضة اليوغا في المشهد الثقافي الهندي

راماكريشنا في الغرب. إنه ولد عام 1863م بمدينة "كولكاتا" في عائلة أرستقراطية. وكان طالباً في المرحلة الجامعية الأولى عندما زار "راماكريشنا" أول مرة، فاختره راماكريشنا لترويج مهمته بشكل مستمر. وبعد عدم الثقة والكفاح الداخلي إنه تأثر بسحر راماكريشنا ونفوذ الروحي. وفي النهاية، ساعده راماكريشنا في تحقيق أعلى تجربة سامادية.

وبعد وفاة معلمه راماكريشنا، قضى فيفيكاناندا بعض أوقاته في العزلة في جبال هيمالايا، ثم سافر في الهند لمدة سنتين لنشر رسالة راماكريشنا. وفي عام 1893م غادر إلى الولايات المتحدة الأمريكية عن طريق الصين واليابان للمشاركة في "برلمان الأديان" في شيكاغو حيث تبوأ مكانة مرموقة. وبعد نجاحه في البرلمان، قام بجولة في الولايات لإلقاء المحاضرات والدروس. وفي السنوات اللاحقة، زار أوروبا ووجد هناك عددا لا بأس به من متبعيه وتلاميذه، وخاصة في إنجلترا. ثم عاد إلى الهند كبطل قومي بعد أربع سنوات من الرحلة.

وكان فيفيكاناندا يوغيا جيانيا يتمتع بمعرفة تعاليم الفيدا بشكل واسع. والفضل في أن الفلسفة الهندية واليوغا قد بدأت تنقد في خيال العديد من الناس في الدول الغربية في وقت مبكر من نهاية القرن الماضي، يرجع إليه. وقد بدأ فيفيكاناندا اتجاها لشعبية اليوغا بعد أن شجعه على ذلك معلمه راماكريشنا وساعده عليه الوضع التاريخي للهند.

وعلى الرغم من أن كلا من راماكريشنا وفيفيكاناندا ينتميان للقرن التاسع عشر الميلادي، إلا أن تأثيرهما لا يزال يبقى حتى يومنا هذا. ويحسن بنا أن نتحدث أيضا عن اليوغيين الآخرين الهنديين اللذين عاشا بشكل رئيسي في القرن العشرين، واكتسب كل منهما شهرة فائقة عالمية على حد سواء. وهما "رامانا ماهارشي" من أروناتشالا (Arunachala) و"أوروبيندو غوش" من كولكاتا.

رامانا ماهارشي: ولد رامانا ماهارشي في الثلاثين من شهر ديسمبر عام 1879م في "تيروتشولي Tiruchuli" بتامل نادو في جنوب الهند لأسرة براهمية. إنه

تلقى تعليمه في المدرسة الثانوية إلا أنه لم تظهر عليه أي علامة الذكاء والفتنة، كما لم يرغب في متابعة أنشطة الحياة العادية. ونتيجة لذلك، غادر منزله سراً وأخذ طريقه إلى "تيرووننامالاي" عند سفح التل "أروناتشالا"، الذي يتميز بكونه مكاناً مقدساً. فمكث هناك جالساً في التأمل العميق وعدم الاهتمام بأي شيء في حرم المعبد وخاصة في حفرة تحت الأرض، وذلك فراراً من انتباه الجمهور إليه.

وبالرغم من أن رامانا لم يتكلم ولم يتواصل مع أي شخص بأي شكل من الأشكال لمدة ثلاث سنوات، إلا أن الناس قد علقوا به واستمروا في زيارته كما شعروا بالارتياح عند رؤيته. كان يعيش في معظم الأحيان في تأمل عميق، ولكنه بدأ يردّ على الأسئلة الموجهة إليه من بعض الزوار عن طريق خريشتها على فُصاصات صغيرة من الورق. وتمثل هذه المجموعة من القصاصات مخطوطات لعمله الصغير التي تم نشرها في وقت لاحق باسم "تحقيق الذات" و "من أنا؟". كما أنه كتب بعض القصائد أو أغاني الحب التي كثيراً ما تغنى بها المتسولون الذين لازموه.

وقد بقي رامانا في أروناتشالا حتى مات في الرابع من شهر أبريل عام 1950م. وقد ذاع صيته في جميع أنحاء العالم، حتى زاره الساسة المتميزون، وكان من بينهم الدكتور راجندرا براساد والبروفيسور سرفيبالي راداكريشنان، وقد تولى كل منهما منصب رئيس جمهورية الهند بعد الاستقلال. كما تأثر به الزوار الذين زاروه بغية الحصول على المساعدة في البحث عن الإرشاد الروحي. إنه لم يقدم أي تعليم جديد أو فلسفة جديدة. ويمكن بيان تعليماته بأنها متابعٌة لجنانا يوغا، ولكنها وضعت بشكل حيث يمكن فهمها بسهولة في العصر الحاضر.

أوروييندو غوش: هو يمثل نوعاً مختلفاً تماماً عن اليوغا التي قدمها رامانا. وهذا ينعكس بالفعل في حياته المبكرة والتعليم. إنه ولد في الخامس عشر من شهر أغسطس عام 1872م في كولكاتا. وكان والده مفكراً وطبيباً. إنه أرسل ابنه أوروييندو إلى مدرسة في دارجلينغ وهو في الخامسة من عمره، وبعد عامين سافر إلى إنجلترا حيث تلقى تعليمه العالي. وقد أثارت فيه حياته في إنجلترا الاهتمام

رياضة اليوغا في المشهد الثقافي الهندي

ببلاده الهند ومصيرها، حتى أصبح مؤمنا بالقومية الهندية وملتزما بالكفاح الوطني من أجل استقلال الهند.

وبعد وقت قليل من عودته إلى الهند، بدأ "أوروبيندو" يهتم باليوغا. وأخذ يمارسها بجدية من عام 1904م، كما كان يقوم بممارسة "براناياما" لمدة خمس ساعات في كل يوم. وشعر بأنه قد اكتسب طاقة متزايدة وكفاءة عقلية، كما سعى لإرشادات الخبراء للحصول على مزيد من التقدم. فاتصل بمعلم اليوغا اسمه "فيشنو بهاسكار لي لي" الذي علمه طريقة التأمل. وخلال ثلاثة أيام من استهلال ممارسة الطريق التأملي مع معلمه، بلغ أوروبيندو حالة من الهدوء الداخلي الذي تبقى معه للأبد.

وقد جعل أوروبيندو اليوغا والفلسفة الروحية الهندية أنيقة ومقبولة في الدوائر الأكاديمية الغربية. وفي الوقت نفسه وجد أشخاصا يتبعونه من جميع الطبقات في جميع أنحاء العالم. كما جعلته شموليته شخصية بارزة في الكفاح الإنساني من أجل التركيب الثقافي المستقبلي.

هذا، وكل من يدرس أدب اليوغا، سواء القديم أو الحديث أو كليهما، فلا بد له أن يتأثر بحيويتها الاستثنائية، وأشكالها المتنوعة، وإنجازاتها السامية التي لا يمكن تجاهلها وطرقها العديدة الممكنة المؤدية إلى هدفها النهائي. وعلى الرغم من تواجد الأنواع العديدة لليوغا، إلا أن هدفها النهائي واحد، وهو حالة من التحرر النهائي أو الخلاص، حسب التعابير المختلفة، وهو بدوره يطابق مع هدف جميع الأديان البارزة على الرغم من اختلاف الأفكار أو المفاهيم.

فوائد اليوغا للصحة العامة: يتفق جميع كتب اليوغا قديمها وحديثها على أن اليوغا وممارسة تمارينها وروحانيتها تسبب بعد فترة من الزمن في تحسين الصحة العامة للإنسان والمزاج الشخصي له، وترتقي بالحالة الذهنية والصفاء الذهني، وتقوي المناعة الكلية للجسم، وتقلل من التوتر والقلق والإجهاد النفسي، كما تساهم

في تقليل أعراض الاكتئاب وربما تساعد في الشفاء منه وحل مشكلة البدانة المفرطة وزيادة الوزن.

وهكذا، في الأيام الحالية نسمع كثيرا عن اليوغا ونشاهد الناس يقومون بممارسة تمارينها في التلفزيون والمواقع المفتوحة زرافات ووحدانا. فقد أصبحت هي الآن شعبية وانتشرت في كل مكان. كما هي ليست مجرد تمارينات يقوم بممارستها معظم الأشخاص في أنحاء العالم كله، بل هي أعمق وأشمل من ذلك بكثير. فهي علم قديم تمتد جذوره لأكثر من أربعة آلاف عام. وهي مُنتج حضاري قديم قدمته حضارة الهند للإنسانية وبشرت بها جميع أنحاء العالم.

ويؤكد خبراء اليوغا ومدربوها بأن الفلسفة العميقة لليوغا هي أداة التواصل أو القدرة على التواصل بين عالم السماء وعالم الأرض، ومن أهم متطلباتها الوصول بأعلى قدر من التحكم في وضع تنفس هادئ يعتمد على الشهيق والزفير من خلال فتحات الأنف فقط وليس الفم.

اليوغا كما تحافظ على الطاقة الروحية في جسم الإنسان، فهي تتحكم أيضا الأمراض الكامنة المؤثرة سلبيا على صحة الإنسان. وقد أفادت الدراسة أن ممارسة اليوغا وأوضاعها المختلفة قد تكون مفيدة للقلب ومتحكمة في الأمراض الخطيرة الناتجة عن العوامل العديدة. وذلك بقدرما يفيد ركوب الدراجات أو المشي السريع أو الرياضة البدنية الأخرى، إلا أن اليوغا وممارستها أيسر على كبار السن ومن يعانون من مشاكل صحية ويصابون بالأمراض الخطيرة. واستناداً إلى سبعة وثلاثين تجربة سريرية وصل الباحثون إلى نتيجة أن ممارسة اليوغا في أشكالها المختلفة أدت إلى خفض ضغط الدم والكوليسترول ومعدل ضربات القلب وعوامل الخطر الأخرى المسببة لأمراض القلب والأوعية الدموية.

وقالت "بولاتشو" التي أشرفت على الدراسة وهي طالبة الدكتوراه في السياسات الصحية بجامعة هارفارد بولاية ماساتشوستس الأمريكية، "إن النتائج التي خلصت

رياضة اليوغا في المشهد الثقافي الهندي

إليها المراجعة إذا أخذ بها فإنها "تكمل نظاما نحو صحة أفضل للقلب والأوعية الدموية".¹²

وبالإضافة إلى أمراض القلب التي يمكن علاجها عن طريق اليوغا، نجد هناك أيضا الكثير من الأمراض يمكن التغلب عليها عن طريق اختيار الأوضاع المختلفة لممارسة اليوغا مثل التحكم في التنفس وأوضاع الجسم أثناء ممارسة اليوغا مما يساعد في زيادة الوعي الذاتي والسيطرة على الإجهاد الذهني والجسدي وتطوير القوة البدنية والتوازن.

كما يلعب التركيز على شيء واحد دورا بارزا في القيام بواجباته المفروضة في هذه الحياة، فتثبيت النظر أثناء التفكير ينقله من عالم الحقيقة إلى عالم الخيال، ومن عالم المعقول إلى عالم اللامعقول، حيث يعيش بسعادة لا مثيل لها، ويتمتع بحياة بعيدة عن الحزن واليأس. وللوصول إلى هذا فإن الأمر يحتاج إلى تدريب مستمر حتى يصل إلى حد التركيز التام.

وقبل الدخول في تدريب اليوغا، يجب الرعاية بوصايا المعلم الآتية:

أن يبتعد عن الإضرار بالغير، ويمتنع عن شهادة الزور، ويخلص في كل مشارب الحياة، ويبتعد عن الدعارة وقبول الرشوة، ويטהر الجسم ويركز العقل، ويقتنع ويتعبد.¹³

وعند القيام بممارسة التركيز الصحيح يستحسن أداء أحد الأوضاع الخاصة بتمرينات ضبط النفس والتأمل، وهي وضع اللوتس، والوضع الكامل، والوضع السعيد، والوضع الحر، والوضع السهل. وأحسن الأوقات لأداء تمرينات التركيز في الصباح أو في المساء بالنسبة للمبتدئين، أما بالنسبة للأشخاص المتقدمين فيمكن إضافة نصف الليل مع الصباح والمساء.¹⁴

كما يجلب التأمل أيضا فوائد هامة لمن يقوم بممارسته في الأوضاع المختلفة الخاصة باليوغا. فهو يزيل الهم والغم عن القلب، ويجلب الفرح والسرور، ويذهب بالترحم والسرور، ويقوي القلب والبدن، ويبهج القلب والوجه وينوره. كما يخلق المحبة

في القلب لجميع مخلوقات الله، وينير الفكر، وينبه القلب ويذهب منه القساوة، ويقوي الأعصاب ويزيد من حيوية الجسم وما إلى ذلك من الفوائد الأخرى.¹⁵

وفي النهاية، يجب على كل من يريد الحصول على نتائج سريعة وملموسة لليوغا، أن يتناول طعاما يحتوي على الكثير من الفواكه والثمار والخضراوات الطازجة الغنية بالفيتامينات، كما يجب أن يشمل هذا الطعام المكسرات والجبن والبروتينات لأنها تعتبر غذاء مغذيا وهاما جدا للرياضة الروحية. ويجب التخلي عن التدخين وتناول المخدرات بأنواعها المختلفة، لأنها تزيد بضغط الدم. وبالممارسة اليومية المنتظمة لنظام اليوغا يحصل الفرد على عقل صافٍ وواعٍ وذاكرة قوية وجسم صحي. ويستحسن أن يستحم قبل ممارسة اليوغا، لأنه مفيد للغاية.

الهوامش:

¹ جريدة الرياض: النسخة الإلكترونية من صحيفة الرياض اليومية الصادرة من مؤسسة اليمامة الصحفية، المؤرخة في 12 ديسمبر 2014م.

² B.K.S Iyengar: The Illustrated Light on Yoga, p. 1.

³ Karel Werner: Yoga and Indian Philosophy, p. 99-100.

⁴ Karel Werner: Yoga and Indian Philosophy, p. 120-128.

⁵ Karel Werner: Yoga and Indian Philosophy, P. 131.

⁶ Swami Vivekananda: Raja Yoga (Conquering the Internal Nature), p. 13.

⁷ Karel Werner: Yoga and Indian Philosophy, P. 134-135.

⁸ ب. ك. نارايان: فلسفة اليوغا، ص: 26.

⁹ Ernest wood: Yoga, p. 236

¹⁰ Karel Werner: Yoga and Indian Philosophy, P. 136.

¹¹ Swami Vivekananda: Raja Yoga (Conquering the Internal Nature), p. 48-66.

¹² جريدة الرياض: النسخة الإلكترونية من صحيفة الرياض اليومية الصادرة من مؤسسة اليمامة الصحفية، المؤرخة في 29 ديسمبر 2014م.

¹³ عباس المسيري: الراجا يوجا وحقيقة الإنسان، ص: 17

¹⁴ محمد عبد الفتاح فهيم: اليوجا والطاقة الروحية في الإنسان، ص: 74.

¹⁵ محمد عبد الفتاح فهيم: اليوجا والطاقة الروحية في الإنسان، ص: 106.

المصادر والمراجع

1. ب. ك. نارايان: فلسفة اليوغا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1986م.
2. عباس المسيري: الراجا يوجا وحقيقة الإنسان، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
3. محمد عبد الفتاح فهيم: اليوجا والطاقة الروحية في الإنسان، دار صادق للنشر، الإسكندرية، 1995م.
4. B.K.S Iyengar: The Illustrated Light on Yoga / Harper Collins Publishers, India, 1997.
5. Ernest Wood: Yoga / Penguin Books, England, 1959.
6. Karel Werner: Yoga and Indian Philosophy / Motilal Banarsidas Publishers Private Limited, Delhi, 1998.
7. Swami Vivekanand: Raja Yoga (Conquering the Internal Nature) / Bharatiya Kala Prakashan, Delhi, 2012.

رابندرانات طاغور في ضوء الكتابات العربية

د. محمد بديع الرحمان*

دعا أمير الشعراء أحمد شوقي بك طاغور لزيارة بيته لحضور حفلة تكريمية، فأرسل شوقي ابنه حسين شوقي إلى فندق شبرد ليرافقه إلى بيته. قلبى طاغور بدعوة الشاعر العربي و وصل منزله¹. قال الدكتور طه حسين عن هذا اللقاء: "كان شوقي يستقبل الشاعر الهندي العظيم تاجور. و قد دعا لهذا الاستقبال من شاء الله أن يدعوهم من أصحاب الثقافة و رجال السياسة و الحكم. و كان صاحبنا [أي طه حسين] أحد المدعوين"²

حينما ذاع خبر نيل رابندرانات طاغور جائزة نوبل عام 1913م، سرت البلاد العربية به سرورا كبيرا و نشر الخبر مع صورة طاغور في معظم صحفها اليومية. ونشرت جريدة الهلال تعليقا بمناسبة فوزه بالجائزة على الأدب. فرحب به وديع البستاني و قدم الشكر الوافر إلى محررها جرجي زيدان (1861-1924) و ظهر الأمل في أن يزيد قراءة "الهلال" بعد التعرف على هذا العبقرى الشرقى. و في عام 1914 قام البستاني بزيارة رابندرانات في الهند و مكث في ضيافته يومين في بيته. و أغلب الظن أن وديع البستاني³ أول عربي اتصل بطاغور مباشرة و سجل خبراته الذاتية في مقالة صدرتها "الهلال". فوصف هذا الشاعر ما بدا له عن طاغور أثناء يومين قضاهما في بيته قائلا: "فازدت بآثاره إعجابا، و لذاته إكراما

* أستاذ ورئيس القسم العربى والفارسى السابق بجامعة كلكتا

رابندرانات طاغور في ضوء الكتابات العربية

لعبقريته إجلالا. و أيقنت أن له نفسا سامية تتبعث من عينيه أشعة سنية، تسيل مع صوته العذب الرخيم نغمات شجية، و تتلأأ خلال عباراته فرائد معان درية⁴. وأضاف الوديع في نفس المقالة بأنه قرأ كل ما صدر لطاغور حتى ذلك اليوم و مما نقله الشاعر بقلمه إلى الإنكليزية من شعره و نثره، مثل *The Gardener* (البستاني)، و *Gitanjali* (قرايين الأغاني)، و *Sadhanā*، و *The Crescent Moon* (الهلال) و غير ذلك. ثم أبدى رأيه بالعبرة الآتية: "هو شاعر فيلسوف قديس و إنسان يحب الله و الطبيعة و الإنسان بنفسه و عقله و روحه". و بعد أن نال طاغور جائزة نوبل اشتهر أمره و ذاع صيته في جميع أنحاء العالم. فزاد عدد قرائه في الهند و في خارجها الذين طلبوا منه ترجمة أعماله إلى الإنكليزية لتسهل قرائتها و الإفادة منها لغير الناطقين باللغة البنغالية. ثم دعاه الزعماء العمالقة من كثير من البلاد الأجنبية ليشرفهم بزيارة بلادهم. و لكن طاغور كان منهمكا في الترجمة و الكتابة بالإنكليزية فلم تسعفه الفرصة لزيارة بلادهم بشكل عاجل حسب التماسهم منه. و لكن الفرصة أسعفته بصورة آجلة. فعند عودته من سفره إلى أوربا، نزل بالإسكندرية في 27 من شهر نوفمبر عام 1926، ثم وصل القاهرة بعد يوم⁵. فاحتفت به الأوساط الثقافية و رجال الفكر و أدباء مصر احتفاء مهيبا. و حضر حفلة التكريم هذه من أبرز الشخصيات المصرية من أمثال الدكتور طه حسين⁶، وعباس محمود العقاد⁷، و أحمد لطفي السيد⁸ و أمير الشعراء أحمد شوقي بك⁹. عقدت حفلة التكريم هذه في مسرح حديقة الأزكية يوم 29 نوفمبر، و قدم الأستاذ أحمد لطفي السيد طاغور للجمهور المصري¹⁰ و قال في الافتتاحية: "لا عجب في أن نكرم طاغور، و هو الذي جرى في حياته على فلسفة أفلاطون، و ورع عمر بن الخطاب و هدي تولستوي"¹¹.

في نهاية الحفلة، قال طاغور مشيرا إلى كلمة وزير المعارف المصرية : "إنني آسف على أن لا أستطيع الكلام بينكم بلغتي القومية، كما تكلم صديقي وزير المعارف بلغته العربية؛ فمفسر أن يؤدي الإنسان ما في عواطفه بغير لغة أهله"¹².

ثم جعل طاغور يتحدث بثقة و سعة و عمق عن فلسفة الهند و فلسفة الغرب والفرق بينهما، و قال: "إن فلسفة الهند ليست تشاؤمية بل تخلد الوحدة الروحية، التي هي سر الوجود. و أن الطيرة المبتثثة لاتوجد إلا في الغرب و عند العلماء الذين لا يرون للوجود وحدة. فنؤمن بشئٍ لانهائي و هو سر الوجود و ليس فيه شئٍ من معنى العدم". و بعد اختتام طاغور حديثه الفلسفي، أنشد بعض قصائده باللغة الإنجليزية ثم بالبنغالية و أنشد بعد ذلك بعض أبيات من ديوانه 'غيتانجِي' (اي قرابين الأغاني) و هي كالتالي:

هناك، حيث لا يلبس الفكر خوف، و يكون الرأس متلعا إلى العلاء،
هناك حيث تكون المعرفة حرة.

هناك، حيث لم يجزأ العالم بين حواجز ضيقة مشتركة

هناك، حيث تنبثق الكلمات من أغوار الإخلاص

هناك، حيث يتقدم الفكر - الذي تقوده أنت - في المدى الرحيب من الفكرة والعمل.

أجل، في نعيم الحرية، أبتاه، دع وطني يستيقظ¹³.

دعا أمير الشعراء أحمد شوقي بك طاغور لزيارة بيته لحضور حفلة تكريمية، فأرسل شوقي ابنه حسين شوقي إلى فندق شبرد ليرافقه إلى بيته. فلبى طاغور بدعوة الشاعر العربي و وصل منزله¹⁴. قال الدكتور طه حسين عن هذا اللقاء: "كان شوقي يستقبل الشاعر الهندي العظيم تاجور. و قد دعا لهذا الاستقبال من شاء الله أن يدعوهم من أصحاب الثقافة و رجال السياسة و الحكم. و كان صاحبنا [أي طه حسين] أحد المدعوين"¹⁵.

و قد حضر هذه الحفلة الزعيم المصري سعد زغلول الذي أّخر اجتماع مجلس النواب عن مياعده المحدد بساعة. و في هذا اللقاء غنى المطرب الشهير محمد عبد الوهاب¹⁶ مقطوعة شعرية من مسرحية مصرع كليوباترا لشوقي احتفاء بطاغور، والمقطوعة كالتالي:

رابدرانات طاغور في ضوء الكتابات العربية

أنا أنطونيو وأنطونيو أنا ما لروحينا عن الحب غنى
غننا في الشوق أو غن بنا نحن في الحب حديث بعدنا

.....

نحن قربنا له ملك الثرى ولقينا الموت فيه هينا
في الهوى لم نأل جهد المؤثر وذهينا مثلا في الأعصر
هو أعطى الحب تاجي قيصر لم لا أعطي الهوى تاجي منا¹⁷؟

استمع طاغور الأغنية العذبة برغبة شديدة وأبدى إعجابه بها.

وعلاوة، كانت زيارة طاغور لمصر أمرا سارا لا للمصريين فحسب بل للعرب أجمعين. و يدل على ذلك أن الصحفيين العرب نشروا جميع الأنباء عن زيارته في الصحف و الجرائد. و قام محب الدين الخطيب بنشر الأخبار عن طاغور في جريدة "الضوء" و كان مراسلا لها، و بعد سنتين ألف كتابا بعنوان "تاغور" محتويا على 59 صفحة. و قال محب الدين الخطيب، أثناء بحثه لأدب طاغور و كلامه عن اهتمام الأوربيين به: "إن المزية التي امتاز بها تاغور هي أنه جعل ديانته ينبوعا لتفكيره فأرضى بذلك ضميره الملى ... و هو كجميع الأفاضل من رجال الهند يحسن اللغة الإنكليزية كأرقى أهلها، فاستطاع أن ينقل بعض كتبه و منظوماته إلى اللغة الإنكليزية التي يسهل على غير الإنكليز من الإفرنج أن يفقوا على ما يكتب بها ... فلما طلع تاغور على الأوربيين بأساليب أخرى من الشعر، تجلت لهم فيها تصورات غير تصوراتهم، و قد أجاد إفراغها في لغة من لغاتهم؛ أقبلوا على قرائتها معجبين بها"¹⁸.

و يبين الدكتور محمود مكي سبب ميل القارئ العربي إلى أدب طاغور فيقول:
"إن ما ضاعف من استجابتنا لأدب طاغور ماكان يغلب عليه من طابع رومانسي يتفق مع طبيعتنا و مقومات أدبنا، و لهذا فقد رأى رواد النهضة الأدبية الحديثة في أعمال طاغور تعبيرا صادقا عن اتجاهاتهم و مشاعرهم"¹⁹. و لذلك قام العرب

بترجمة العديد من أعمال طاغور الغنائية و المسرحية. و أول ما ظهر في لغة الضاد من مؤلفات طاغور مسرحيته 'شيترا'. و قد نقلها إلى العربية محمود المنجوري أفندي. و قام الدكتور شكري محمد عياد بنقل *The Home and the World* (في البنغالية: *Ghore o Baire*) إلى العربية، كما نقل عبد الرحمان صدقي بعض مسرحيات طاغور كاملة معنونة بـ 'طاغور المسرح الهندي'. و لا يخلو عام إلا و يصدر كتاب عن طاغور في العالم العربي. و من هذه الكتب: *شاعر الحب و السلام* لمحمد عياد، نشره وزارة الثقافة المصرية، عام 1961، و *طاغور وآخرون: شعراء الهند* لعدنان بغجاتي، نشرته دار الأهالي بدمشق في 1991، و *طاغور الجانب الإيماني* لسهيلة الحسيني، نشرته الهيئة المصرية العامة بالقاهرة سنة 2007، و *ديانة الشاعر* لموسى الخوري و غسان الخوري، نشره دار غربال بدمشق، في عام 1988، و *طاغور المعلم الإنسان* لمشال أوبري، نشرته دار الريحاني للطباعة و النشر، ببيروت، في سنة 1974 و *طاغور: فيلسوف الهند وحكيمها*، لنجيب زبيب، نشرته دار الهادي للطباعة و النشر و التوزيع ببيروت في عام 1974. و احتل التليسي الليبي رأس قائمة هؤلاء الكتاب من خلال تأليفه كتابا سماه "هكذا غنى طاغور" الذي نشره الدار العربية للكتاب، في ليبيا، سنة 1989م. و قد لقيت إبداعات طاغور قبولا حسنا لدى كثير من المفكرين العرب؛ وأظهر عباس محمود العقاد إعجابا شديدا بـ *سادهنا* و هي مجموعة خطب ألقاها طاغور بالبنغالية على تلاميذه في مدرسة شانتيكيتن (الآن جامعة وشو بهاروتي) و ترجمها فيما بعد إلى الإنجليزية، ثم ألقى محاضرات مستمدا منها في جامعه هارفارد و بعض الجامعات الأوروبية. فقال العقاد في مدح *السادهنا* : " لست أريد أن ألخص *السادهنا* ؛ لأن الكتاب صلاة والصلوات لا يجوز فيها التلخيص والاقتضاب، ولست أريد أن أنقد آرائها؛ لأن هذه الآراء إن هي إلا زهرة روحية و الزهرات لا تطيب على النقد و التحليل"²⁰. و أما رأي العقاد حول جودة كتابات طاغور، فهو: أن مستوى أعماله أعلى من كثير ممن حازوا على جائزة نوبل من أدباء الغرب،²¹ ولذا حث

رابندرانات طاغور في ضوء الكتابات العربية

الكتاب على ترجمة أعمال طاغور. فامتثلوا لأمره، و ترجموا إنتاجات طاغور بالعربية. فوجد ترجماتهم كالتالي: *أغاني وأشعار لعبد الوحيد لؤلؤة*، نشره المجمع الثقافي، بأبو ظبي، عام 1995، و *نكرياتي (My Reminiscences)* تعريب صلاح صلاح، نشره نفس الناشر في نفس السنة. و قد ترجم وديع البستاني ثلاثا وثلاثين منظومة من جملة خمس و ثمانين منظومة توجد في *Gardener* بعنوان *'البستاني'*²². ويرى في مقدمته أن بعض قصائد *البستاني* أروع وأحلى من قصائد *غيتانجلي* و يقول أن قصائده مملوءة بالحب و الكشف عن أسرار قلب الفتى الحزين. و من ميزات هذا الكتاب أن البستاني قام، بالإضافة إلى ترجمة النصوص، بشرح المصطلحات الهندية الغامضة و التعليق على أساطير الهند و طقوسها ورسومها؛ أحيانا يكتب أبياتا أردية مشابهة لأبيات *البستاني* معنى.

وأول من قام بتعريب *"جيتانجلي"*²³ هو بديع حقي²⁴ الذي ترجم عام 1955م مئة وثلاث قصائد للطاغور في تسع وسبعين صفحة؛ وله تراجم عربية وهي: *"جنياثمار"*²⁵، و *"البستاني"*²⁶، و *"الهلال"*²⁷ و *"دورة الربيع"*²⁸ و *"شيترا"*²⁹. وقد طبعت هذه المجموعات معا و في مجلد واحد بعنوان *"روائع طاغور في الشعر والمسرح"* مع مقدمة طويلة احتوت على إحدى و أربعين صفحة. و قد ألع المترجم بكلام طاغور إيلعا فاقنيس قول الكاتب الفرنسي رومين رولاند (Romain Rolland) تعبيرا عن هذا الولوج: *"حين تقترب من طاغور، يناسم نفسك شعور أنك في معبد"*. ثم ألقى حقي الضوء على بداية طفولة طاغور و بيئة أسرته العريقة، قائلا: *"و عرف طاغور في فجر طفولته بلهنية الحياة و هنائتها، و استمد من الجو الذي عاش فيه، كل ما كانت نفسه الطلعة تتشوق إليه..."*³⁰ و أشار حقي إلى كيف أخذ طاغور ينبض بالشعر و يهزج به و هو صغير لم يتجاوز الثامن من عمره. ثم وصف كيف أصبح طاغور حزينا حين توفيت أمه الحبيبة فأصبح وحيدا، ثم وجد التعزية في الطبيعة و أصبحت الطبيعة رفيقا له طوال حياته. تزوج طاغور في الثانية و العشرين مع مرياليني ديوي فرزق ثلاثة أطفال. لكن لم تدم سعادته طويلا.

فماتت زوجته، و عقب ذلك مات ابنه و بنته و أبوه في فترات متقاربة. و هذه الكارثة الجارفة خلفت في نفسه حزنا عميقا كادت تكسر همته للأبد. لكن كان واثقا بأن الموت هو صفحة تطوى لتفتح صفحة خالدة أنضر و أظلى. بيد أن حزنه الذي استبد بقلبه، تسلل إلى شعره فطبعه بطابع الأسي. و قصائده مواجهة بحزن عميق ورنينها يوجد في ديوانه الرائع "جيتانجلي".

و في الحق ان شعر طاغور ليس شعرا يتعد فيه اللفظ و النغم و المعنى بل هو رسالة فكرية إنسانية تماثل رسالة المفكرين العظام. و تحمل رسالته الإنسانية السامية القائمة على المحبة و الأمل، و تشرئب قمما شوامخ في الأدب العالمي كله. و سلط بديع حقي الضوء على حب طاغور لوطنه و وصف كيف اهتاج اهتياجا عنيفا حينما قمعت الحكومة البريطانية ثورة بنجاب عام 1919 بصورة فظيعة. فأعاد طاغور لقب 'سر' إلى ملك إنكلترا الذي كان قد منحه إياه تقديرا لعبقريته³¹. وكذلك أبدى غضبا شديدا ضد تقسيم البنغال عام 1905. لم يكن طاغور محبا لوطنه فقط بل كان يحب الكون كله و يشغف به و يؤمن بربه. و من مزايا شعر طاغور أنه يتعاقق فيه الشعر و الغناء، فوضع أكثر من ثلاثة آلاف أغنية تطابق جميع المواسم و الطقوس و الشعور الإنساني و كذلك جميع الظروف والأحوال. و قد نجد في مقدمة *روائع طاغور* آراء بديع حقي عن مسرحيات طاغور³². فيقول حقي: إن كل مسرحية [طاغور] تحمل جانبا من رسالته الفكرية و الإنسانية³³. وبالإضافة إلى ذلك، نجد في أواخر مقدمة *الروائع* أن صاحبها ذكر طاغور كفننان حاذق ورسام ترك حوالي ألفي لوحة تعد تراثا فنيا ذا شأن.

أقيمت حفلة مئوية لذكرى طاغور عام 1961 في مصر، و باعتناء هذه الحفلة طبع *روائع طاغور في الشعر و المسرح بالقاهرة* أيضا. و ختم حقي هذه المقدمة باقتباس بيت لطاغور، و هي:

من أنت أيها القارئ،

أنت الذي تقرأني بعد مائة عام؟³⁴

رابندرانات طاغور في ضوء الكتابات العربية

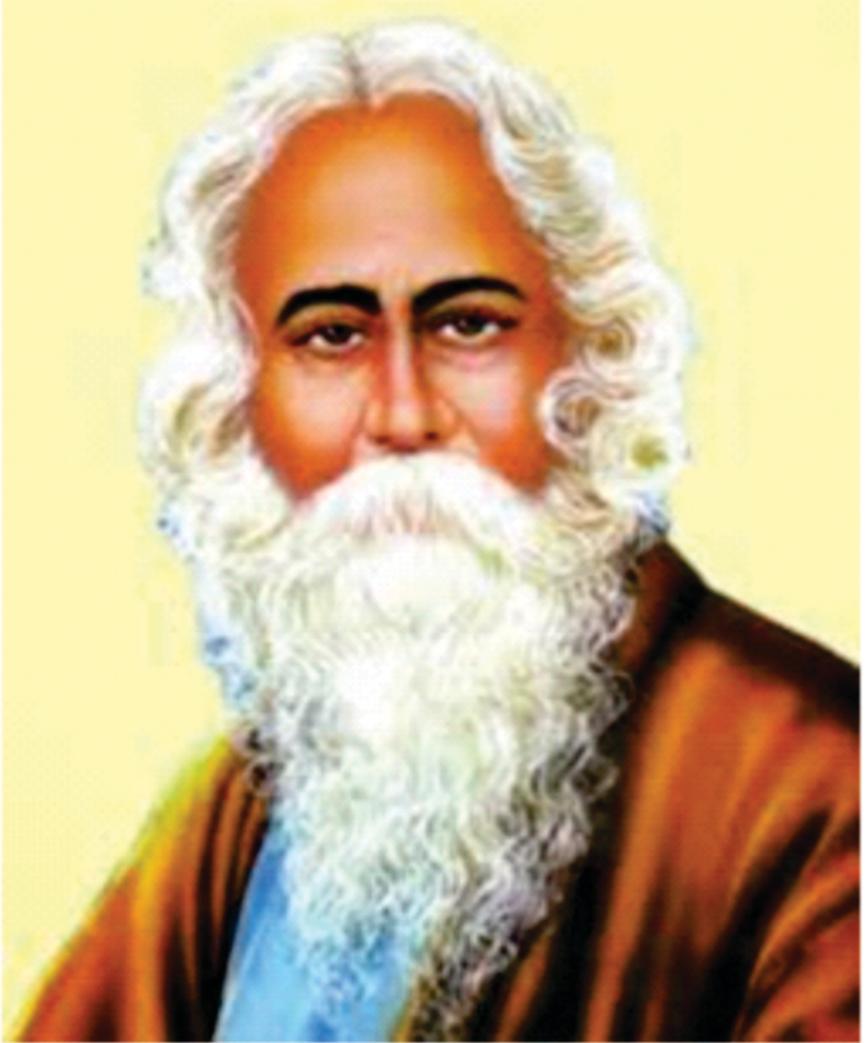
وبمناسبة ذكرى طاغور المئوية صدر عديد من المقالات و الكتب، و نكتفي بذكر كتابين، و هما كالتالي:

(1) طاغور في الذكرى المئوية لميلاده، 1961

(2) ذكرى تاجور

فالأول هو مجموعة سبعة مقالات قيمة عن طاغور، الصادر عن وزارة التربية والتعليم بالتعاون مع المجلس الأعلى لرعاية الفنون و الآداب و العلوم الاجتماعية ومقدمة بقلم الأستاذ السيد محمد يوسف، وزير التربية و التعليم آنذاك. فجلى الوزير من نواحي عبقرية طاغور بأن له فضل وضع أسس التربية القومية، و إن طاغور أحس بحاجة الطفل إلى الحرية و إلى النمو في بيئته الاجتماعية و الثقافية. كان طاغور رجلا عمليا فاستخدم نظرياته في حقل التربية، فأنشأ مدرسة في سانتينيكيتان وجامعة وشوبهارتي. و لهذه المبادئ التربوية وحدها، يستحق طاغور الخلود والمجد. وعلاوة ممن هذا كان من رواد الإنسانية، واثقا بقوميته وبالشرق ومؤمنا بالحرية والعدالة الإنسانية...

ويبتدئ الكتاب المذكور ببحثه الأول "رابندرانات طاغور (6 مايو 1861- 7 أغسطس 1941) ثمانون سنة من الأدب و الفن" للدكتور مهدي علام³⁵. ادعى الدكتور بأن طاغور من أبرز الشخصيات الذين خلفوا آثارا رائعة في الحياة الأدبية في المجالات الأدبية و الفنية والفكرية. وأضاف قائلا: " فهذا رجل قد جمع الله فيه الأدب، و الفن، و الشعر، و الكتابة، و الخطابة، و التربية، و الموسيقى، والرسم، وقد سخرها جميعا في خدمة الحق و الخير و الجمال و الإنسانية"³⁶. إنه أنفق جميع ثمانية آلاف جنيه أسترليني حصل عليه من جائزة نوبل في إنشاء جامعة وشوبهارتي و تطويرها. رغم تقدير الشاعر لمحاسن الحضارة الغربية، لم يكن "بهاء الغرب يبهر عينيه فيحجب عنهما جرائم الغرب"³⁷. فلذلك أعاد لقب 'سر' (Sir) إلى الحكومة البريطانية التي منحتة إياه، و ذلك احتجاجا على فظائع الإنجليز في



رابندرا نات طاغور

قمع ثورة بنجاب سنة 1919م³⁸. و نجد أيضا في هذا البحث زبدة مقالة طاغور 'الشرق و الغرب'.

البحث الثاني من البحوث الواردة في هذا الكتاب، "الفلسفة الدينية و التصوف عند طاغور" للدكتور زكي نجيب محمود³⁹. بحث فيه الكاتب في عقيدة طاغور الدينية التي سماها بـ"عقيدة شاعر". و ركز البحث على العلاقة بين الإنسان الأزلي و هو الله نفسه و فكرة الإنسانية التي تتمثل في الأفراد. فقال: "إن الفرد حادث و الإنسانية أزلية أبدية واحدة لا كثرة فيها و تباين. و نجد في هذا البحث فحوى فلسفة طاغور عن حرية الروح و سبل الحصول عليها. و إذا توج رجل بهذه الملكة، يصبح مطمئنا، فإذا جاء أجله لم يغلبه الحزن. و ختم الكاتب البحث بإيراد قصيدتين رائعتين من غيتانجلي.

سجل محمد كامل النحاس في بحثه "طاغور المربي" الأسباب التي حملت طاغور على إنشاء مدرسة خاصة في شانتيينيكيتون و على تأسيس جامعة وشوابهاري. فقام بالتجديد في تعليم الأطفال و حث على تربيتهم في حضن الطبيعة و في بيئة ملائمة تنوب فيها الأجناس و الأديان و المعتقدات. رغم تفضيل طاغور التعليم بوساطة اللغة الأم، إنه لم يعارض أية ثقافة أجنبية. و كذلك أحس طاغور بضرورة تعليم الطفل جغرافية بلاده و تاريخها و تراثها كما شدد على معرفة الموسيقى و الفنون الجميلة، و الأحوال الاجتماعية و الاقتصادية و حث على الخلو من كل نوع من أنواع التعصب و النشأة بروح المحبة و التعاون.

و البحث الرابع "طاغور و المسرح الهندي: الغنائي - الرومانتيكي - الرمزي" لعبد الرحمان صدقي⁴⁰. في الحقيقة، إن هذا البحث مقتطفات من كتابه الأصلي. وفي تمهيد البحث تحدث الكاتب عن أثر البيئة و مقومات التكوين المسرحي في حياة طاغور؛ فعثر على بذور هذه المقومات في أسرته نفسها التي كان أعضاؤها متقنين. نجد في هذا البحث خلفيات لأوائل تمثيلات طاغور مثل *رودراشاند/ Rudrachanda*⁴¹ و *القلب الكسير (Broken Heart)*⁴². ثم سجل في بحثه

رابدرانات طاغور في ضوء الكتابات العربية

تحليل مسرحيتين، و هما: "عبث الأوهام" و"النايك"⁴³. قام الكاتب بكتابة التعليقات على خمس مسرحيات طاغور الشهيرة، و هي: الملك و الملكة"⁴⁴ و "التضحية"⁴⁵، و"شيترا"⁴⁶، و "ملك الغرفة المظلمة"⁴⁷ و "مكتب البريد"⁴⁸. تتجلى في هذه التمثيليات عبقرية طاغور لا كفنان فحسب بل كمفكر عظيم و مصلح كبير في تاريخ الإصلاح الديني. و جدير بالذكر أنه يبدو في مسرحيات طاغور أثر كتاب التمثيليات الأقدمين من الهند كما يبرز فيه أثر الأوربيين خاصة شكسبير و إيسن (Ibsen).

و يرى إسماعيل مظهر (1891-1962)⁴⁹، كاتب البحث الخامس المعنون بـ"عناصر القصة القصيرة في أدب طاغور" أن أدب طاغور لا يتجزأ بل يوجد فيه مادة الوحدة في تمثلياته و شعره و أغانيه و قصصه. و إن له روح الشرق؛ و دائما يصدر منه رسالة الإنسانية. ثم قام الكاتب بتحليل العناصر التي تكتمل بها القصة القصيرة في عدة صفحات. ثم قال: "في القصص القصيرة في أدب طاغور كل الكمالات التي ينبغي أن تكون الأساس لهذا الفن الرفيع"⁵⁰. و لكن لم يأت باسم أي قصة لطاغور و لم يقدم أية قصة من قصصه كنموذج في بحثه.

و يليه البحث السادس بعنوان "نظرية النقد عند طاغور" للدكتور شكري محمد عياد (1921-1999م)⁵¹. في بداية البحث، حاول صاحبه شرح معنى نظرية النقد و علاقتها مع الأساطيقا و علم الجمال. و نظرية النقد لطاغور منتشرة في عدة محاضراته و مقالاته و خاصة في كتابيه "الشخصية" (Personality)⁵² و"الوحدة الخالقة" (Creative Unity)⁵³. لم يقدم طاغور أي تعريف خاص بالنقد، بل عرض أفكاره معتمدا على القياس و التشبيه و أحيانا على الذوق. و فلسفة نقده مستمدة من فلسفة فيدا (Vedic Philosophy) التي تسير من مبدأ الإثنينية إلى مبدأ الوحدة. و هذه الإثنينيات تقدم مشكلة في تحديد القيمة الفنية: أ هي في الفن نفسه أم في شيء خارج عن الفن. والاختلاف في هذه المسئلة قديم؛ فكان أرسطو مخالفا لأستاذه أفلاطون في هذه المسئلة. و تليها مشكلة أخرى: هل "الفن للحياة" أو "الفن للفن"؟

هكذا يعالج العياد في بحثه المشتمل على ثلاث و عشرين صفحة، في حبكة فيلسوفية، نظرية النقد عند طاغور .

والبحث السابع من كتاب "طاغور في الذكرى المئوية لميلاده" هو "طاغور والغرب" للدكتور لطفي فام⁵⁴. و مما ورد في هذا البحث أن طاغور كان واسع الاطلاع على الأدب الإنجليزي، و الألماني، و الفرنسي و الإيطالي. فكتب مقالات نقدية عن جوته (Goethe)، و فيكتور هوجو (Victor Hugo)، بترارك و دانتي في أوائل عمره. كان شديد الإعجاب بتراجيديات شيكسبير كما كان مولعا بنثر ملتن للتعبير الحماسي المنطلق، و مغرما بنغم بيرون النائر،⁵⁵ و محبا لأعمال شيلي و كيتس لشعره الغنائي. ففتحت دراسته الواعية المستوعبة لأعمال المذكورين من الأدباء و الشعراء أمامه آفاقا جديدة و أكسبت تفكيره ثروة واسعة. و جدير بالذكر أن طاغور، رغم استقائه من مناهل الذين ذكروا أنفا و الذين لم يذكروا، تميز بعبقريته الشرقية الأصيلة؛ إنه اعترف بخدمات الغرب في ميادين العلوم و التكنولوجيا و لكنه أنكر عليهم ماديتهم اللانهائية و دعا إلى الإنسانية و المحبة و السلام. و قد شرح لطفي فام موقف طاغور من حب الوطن و حب العالم⁵⁶. و ذكر الكاتب في الجزء الثاني من هذا البحث آراء الغرب في طاغور، في شعره، و رسمه، و موسيقاه و مسرحياته.

ذكرى تاجور لمحمد ظاهر الجبلوي

هذا هو الكتاب الثاني الصادر من مصر في الذكرى المئوية من ميلاد طاغور، ألفه صاحبه بعد مطالعة ثمانية كتب لطاغور. أورد في أواخر الكتاب قطعات من تمثيلات طاغور و شعره و أغانيه بالعربية. و يتبدى هذا الكتاب بذكر نشأة الأدب في البنغال. فتحدث فيه الكاتب عن الأعمال الشعرية لتشاندي داس (1761-1834)، و بهارت شندرا و رام برساد سين حسب معرفته بها، ثم كتب عن خدمات ويليم كاري (William Carey)⁵⁷، و راجا رام موهن روي (1774-1833) و هو أول من كتب البنغالية الصحيحة في نثره.

رابندرانات طاغور في ضوء الكتابات العربية

درس رام موهن روي الفارسية و العربية ثم السنسكريتية و الإنجليزية. و أصبح فيما بعد مصلحا دينيا و مؤمنا بالوحدانية و مؤسس 'مجتمع براهيمو'. حارب الوثنية و بذل جهد طاقته في إزالة الشرور السائدة في مجتمعه مثل إحراق الأرامل و عدم الرغبة في نكاحهن و غير ذلك من التقاليد القبيحة و الفعال الشنيعة. و له كتاب موجز مسمى بـ'تحفة الموحدين' بالفارسية مع مقدمة بالعربية. كان ديبندرانات تاجور والد الشاعر يؤمن بآراء رام موهن. فحارب الوثنية و عمل بجد في بدء الحركة البرهومية في الهند. و قد أثرت هذه العقيدة عقيدة التوحيد على أبنائه و في مقدمتهم رابندرانات تاجور. فظهر طاغور كواحد أبرز رجال الإصلاح و التغيير في تاريخ البنغال.

لا يصغر دور طاغور في مجال ترقية اللغة البنغالية و ترويجها. فإنه هو الذي أنقذ اللغة البنغالية و أحيها و خلع عليها الروعة و الجمال⁵⁸. يقول الجبلوي: "لم تكن أغانيه و مسرحياته للهند وحدها لكنها كانت للعالم أجمع". لم يكن طاغور فيلسوفا بالمعنى الحقيقي بيد أنه شرح في مکتوباته فلسفة الحياة شرحا وافيا. وكتاباته تدل على أنه كان من أكبر معلمي الأخلاق و الدين عبر القرون. كان لأحاديثه ومحاضراته أثر السحر على المستمعين⁵⁹.

قد كتب الجبلوي عن زيارة طاغور إلى مصر في كتابه فقال: " و زار مصر 1926 فاستقبل فيها بحفاوة بالغة، و ألقت اللجان لتكريمه ... و أفاضت في الكتابة عنه سائر الصحف و المجلات و على الأخص صحيفة 'البلاغ' الأسبوعية التي نشرت البحوث الضافية للأستاذ الكبير عباس محمود العقاد عن الضيف الكريم وأدبه و آرائه في الحياة"⁶⁰.

كان طاغور داعيا إلى السلام و المحبة و الإخاء بين الأمم و الأفراد. ولذلك نقد فكرة القومية الأوربية القائمة على الانفصال و الأنانية و التملك، و أنكر احتقار الغرب الطبيعية الذي يظن أن من واجبه السيطرة عليها و يظن أنها عدوه الجبار.

والحقيقة أن الإنسان و الطبيعة جزء لايتجزأ. فالوصول إلى الهدف ممكن إذا قمنا بتعزيز عواطف الحب و الإخاء.

تحدث الجبلاوي عن علاقة طاغور مع غاندي فقال حينما بدأ زعيم الهند مهماتما غاندي حركته و نضاله لتحرير الهند ، كان طاغور أول المؤيدين له. وكان دائما ضد الاستعمار⁶¹. لكن طاغور لم يؤمن بسبل مهاتما للحصول على التحرير بما فيها "اتخاذ المغزل"⁶² و "السوراج". كان طاغور محبا لوطنه و لأبنائه؛ فلم يتردد في رد لقبه "سير" إلى الحكومة الإنجليزية لقيامها بأسوأ كارثة في تاريخ الهند في بنجاب عام 1919م. و ادعى الجبلاوي "أن طاغور لم يكن شاعر الهند فحسب بل كان شاعر الإنسانية جمعاء"⁶³. و في أواخر الكتاب قدم الجبلاوي نماذج لمسرحيات طاغور و أغانيه، ثم ألقى الضوء على 'سادهانا'. انتهى الكتاب بمقتبسات من أبيات موجزة لطاغور معروفة في العربية ب'طيور شاردة'، مثل:

يتمنى الطائر أن يكون سحابا

و يتمنى السحاب أن يكون طائرا.

كان لطاغور أثر عميق على أبرز الشخصيات العربية في مجال النقد العربي كمثل أحمد الشائب، و أحمد أمين و سيد قطب. فاستعار هؤلاء كثيرا من آرائه في معرفة معاني الفن و الحق و الجمال، و علاقة الإنسان مع الطبيعة، و دين الشاعر و حريته. و قدم سيد قطب مدحا و افرا إلى طاغور عبقريا و شاعرا و مجددا، ووضح عبقريته بعد مقارنة شعره بالشعر الحماسي الإغريقي و الفارسي و الهندي. ثم قال إن الشاعر الكبير ينفخ اطمئنان القلب و سكونه في البشرية جمعاء⁶⁴.

تبحث كثيرة من الكتب العربية أفكار طاغور المتمركزة حول الإنسانية و تشرح آراءه الفلسفية و الدينية كما تعالج هذه المواضيع عدة مقالات كتبها جميل غير في سلسلة "قُرُور" (دائرة المعارف، القاهرة، 1958). و توجد أيضا مقالات على طاغور بالوفرة في الإنترنت. و تم تعريب غيتانجلي مؤخرًا بيد طيبة خميس (المولودة:

رابندرانات طاغور في ضوء الكتابات العربية

(1958). و على مرور خمسين و مائة سنة لميلاد طاغور، عقدت الحفلات والمعارض و الندوات العلمية تحت إشراف مركز مولانا آزاد للثقافة الهندية و وزارة التعليم المصرية.

و قل من الأفتاد الذين قدروا على التغلغل في الآفاق التي تغلغل فيها طاغور. و هذا التغلغل حفر اسمه في قائمة الفلاسفة و الأدباء و الشعراء و الفنانين العباقرة على مر العصور.

الهوامش:

¹ ذكر حسين شوقي هذا اللقاء في كتابه *أبي شوقي*، مكتبة النهضة، القاهرة، 1947، ص 119-123.

² طه حسين، *الأيام*، القاهرة، 1947، ج 3، ص 142.

³ وديع البستاني (1886-1957)، أديب و شاعر لبناني ترجم *رباعيات الخيام*

⁴ *الهلال*، عدد الأيار، 1916

⁵ إن طاغور زار العراق أيضا بدعوة من الملك فيصل في سنة 1932 و قضى هناك أسبوعا يلقي محاضرات في حفلات و ملتقيات و يتفاعل مع زعمائه وشعرائه من أمثال الزهاوي و غيره.

⁶ الدكتور طه حسين (1889-1973): كان أديبا و ناقدا. رغم إصابته بالعمي في صغره، حفظ القرآن الكريم حفظا محكما من كتاب قرينته، ثم التحق بالأزهر ثم بالجامعة المصرية، و حصل نهائيا على شهادة الدكتوراه من سوربون بباريس. من أهم مؤلفاته: *في الشعر الجاهلي*، *الأيام* (3 أجزاء)، *حديث الأربعاء*، *ذكرى أبي العلاء*، مع *أبي العلاء في سجنه*، و *مستقبل الثقافة في مصر* و غيرها.

⁷ عباس محمود العقاد (1889-1964): كان أديبا، ناقدا، صحفيا و مفكرا كبيرا. و له دواوين و مؤلفات كثيرة؛ من أهمها: *هدية الكروان*، *عابر سبيل*، *عبقرية محمد*، *عبقرية عمر*، *ساعات بين الكتب و ديوان في الأدب و النقد* و غيرها.

- ⁸ أحمد لطفي السيد (1872-1963): مفكر شهير و فيلسوف من مصر. كان رئيسا للجامعة المصرية و تولى عددا من المناصب الأخرى، فعمل وزيرا للمعارف ثم وزيرا للخارجية في وزارة اسماعيل صدقي.
- ⁹ أحمد شوقي: كان من أعظم شعراء العرب. و له ديوان شعر يسمى بـ'الشوقيات' (4 أجزاء)، كما صنف مسرحيات أهمها: 'مجنون ليلى، مصرع كليوباترا، قمبيز و ألسنت هدى و غيرها.
- ¹⁰ راجع: عبد الرحمان، الدكتور محمد، رحلة طاغور إلى مصر، في ثقافة الهند، المجلد 62، العدد 4، 2011.
- ¹¹ الروائي و الفيلسوف الروسي. ولد عام 1828 و توفي في 1910. و له عدد كبير من الروايات، أشهرها: الحرب و السلام (*War and Peace*)، انا كارنينا (*Anna Carnina*) و البعث (*Resurrection*) و غيرها.
- ¹² الخطيب، محب الدين، تاغور، القاهرة 1317هـ، ص 29
- ¹³ تعريب بديع حقي في روائع طاغور في الشعر و المسرح، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة، 1984، ص 68-69.
- ¹⁴ ذكر حسين شوقي هذا اللقاء في كتابه 'أبي شوقي، مكتبة النهضة، القاهرة، 1947، ص 119-123.
- ¹⁵ طه حسين، الأيام، القاهرة، 1947، ج 3، ص 142.
- ¹⁶ موسيقي مصري كبير لحن و غنى كثيرا من شعر شوقي.
- ¹⁷ الفصل الثاني من مصرع كليوباترا لأحمد شوقي، شركة فن الطباعة، مصر، لا تاريخ، ص 43-45.
- ¹⁸ الخطيب، محب الدين، تاغور، المطبعة السلفية، القاهرة، 1317هـ، ص 25-26. أثبت الخطيب في كتابه هذا، أن طاغور كان وطنيا ثم هاجم على عقيدته البرهماوية. كما نجد أن مصطفى صادق الرافعي يشير في مقدمة الكتاب المذكور أعلاه إلى العيوب التي توجد في فلسفة طاغور.

- ¹⁹ عبد الرحمن، الدكتور أحمد محمد، 'رحلة طاغور إلى مصر'، في ثقافة الهند، المجلد 62، العدد 4، 2011، ص 92.
- ²⁰ العقاد، عباس محمود، كتاب سادهاانا للحكيم الهندي تاجور، في ساعات بين الكتب، مطبعة المقتطف و المقيم، 1929؛ و في المجموعة الكاملة للعقاد، ج3، ص 29-36.
- ²¹ كما صرح في كتابه شاعر أندلسي و جائزة عالمية، الصادر من دار الكتاب العربي، بيروت، 1971.
- ²² نشره مطبعة المعارف بالقاهرة بدون تاريخ النشر، و أغلب الظن أنه صدر بين 1916 و 1928.
- ²³ نشره مطابع الآداب، عام 1955م.
- ²⁴ بديع حقي: ولد في دمشق عام 1922 و درس القانون و حصل على الدكتوراه. عمل دبلوماسيا في فترة 1945-1986. كان أدبيا و مترجما كبيرا. و له كتب عديدة. من أهمها: *التراب الحزين* (مجموعة قصصية)، و *جفون تستحق الصور* (رواية)، و له ديوان مسمى *بُسر* ورواية أخرى و هي: *أحلام على الرصيف*.
- ²⁵ *جني الثمار (Fruit Gathering)*: نشر هذا الكتاب من مطابع الآداب، 1955. و يحتوي على ست و ثمانين قصيدة.
- ²⁶ *البستاني (The Gardener)* يحتوي على خمس و ثمانين قصيدة.
- ²⁷ *الهلال (The Crescent)*: عربت فيه ستون منظومة.
- ²⁸ *نورة الربيع (Spring Season)*: هذا الكتاب مسرحية.
- ²⁹ *شيترا (Chitra)*: إن هذا الكتاب مسرحية شعرية.
- ³⁰ مقدمة الروائع، ص 10
- ³¹ مقدمة روايات طاغور...، ص 22
- ³² لطاغور أربع و عشرون مسرحية. فلخص بديع حقي منها *نورة الربيع*، *الضحية*، *مكتب البريد*، *شيترا* و غيرها في روايات طاغور...
- ³³ مقدمة روايات طاغور، ص 36

³⁴ نفس المرجع. و يوجد البيتان في منظومة معنونة بـسنة 1400 في *سنجايتا (المنتخبات)* بالبنغالية، وشوابهاري، الطبعة الحادية عشرة، 1418 سنة بنغالية، ص، 268.

³⁵ محمد مهدي علام (1900-1991م): بعد نيل البكالوريوس من مصر، درس الأدب الإنجليزي و اللغات العبرية، و الروسية و الألمانية و غيرها في أكستور (Extor)، لندن و حصل على الدكتوراه. و له كتب متعددة أهمها: *فلسفة العقوبة، و فلسفة الكذب، و العفو في القرآن و تربية الشباب في الإسلام و غيرها.*

³⁶ طاغور في النكري المئوية، ص 15

³⁷ طاغور في النكري المئوية، ص 20

³⁸ قرض طاغور على أثر ذلك منظومة رائعة تبتدئ بـ:

إنها لاتزيني إلا لتسخر مني، هذه السلسلة الثمينه التي تخصني.

إنها لتؤلمني حين تطوق عنقي و إنها لتخنقني حين احاول نزعها.

إنها تتشبث بعنقي، و تخرس أغنياتي ...

(بديع حقي، جني الثمار، رقم الأغنية، 11)

³⁹ زكي نجيب محمود (1905-1993): كان أستاذ الفلسفة بجامعة القاهرة. و له كتب عديدة، من أهمها: *قصة الأدب في العالم*

⁴⁰ عبد الرحمان صدقي (1896-1973): كان موظفا في وزارة التعليم و مديرا لدار

الأوبرا. له ديوانان و مؤلفات على بودلير (Boudelaire) وجوتي (Goethe)

⁴¹ ألفها عام 1877 و لم يتجاوز السابعة عشر من عمره.

⁴² ألفها بعد عودته من إنجلترا عام 1878

⁴³ هي، في الأصل، *انتقام الطبيعة (PrakritirProtishodh)* التي سماها في

الإنجليزية *Sanyasi*. و كتبها بالبنغالية عام 1878. وهي تشتمل على سبع وثلاثين

صفحة في البنغالية. راجع: *رايندر رتشنايلي (المجموعة الكاملة لرايندرنات)*، وشوابهاري

عام 1402 (السنة البنغالية)، ج1، ص 355-392.

رابندرانات طاغور في ضوء الكتابات العربية

⁴⁴ الملك و الملكة: كتبها عام 1889. و هي تحتوي على ثمانين صفحة في أصلها البنغالي. راجع المرجع السابق، صفحات 447-527.

⁴⁵ التضحية: كتبها عام 1890، و هي تشتمل على إحدى و ستين صفحة في الأصل، انظر المرجع السابق، صفحات 537-598.

⁴⁶ شيترا: كتبها عام 1891 و ترجمها بالإنجليزية و سماها 'Chitra'، و طبعت من ماكملين، لندن، سنة 1914. و عنوانها في البنغالية شيترانغادا (Chitrangoda)؛ ويحتوي أصلها البنغالي على أربع و ثلاثين صفحة. و توجد ترجمتها الكاملة من الإنجليزية في 'روائع طاغور... لبديع حقي. راجع: المجموعة الكاملة لرابندرانات، ج 2، صفحات 207-241.

⁴⁷ ملك الغرفة المظلمة: كتبها عام 1910، و هي في الأصل 'راجا'. المرجع السابق، ج5، صفحات 268-317.

⁴⁸ مكتب البريد: كتبها عام 1912. هي، في أصلها البنغالي تحتوي على ثماني عشرة صفحة. انظر: المرجع السابق، ج6، ص 353.

⁴⁹ كان من أبرز الشخصيات في تاريخ النهضة التعليمية بمصر. ⁵⁰ طاغور في النكري...، ص 183.

⁵¹ كان عميد كلية الآداب بجامعة القاهرة، كما كان قصصيا، و روائيا و مترجما شهيرا، نقل *The Home and the World* إلى العربية عام 1967، و سماها 'البيت و العالم'

⁵² نشره Macmillan & Co. 1921

⁵³ نشره نفس الناشر في 1922.

⁵⁴ خبير بفن النحت الفرنسي المعاصر، و له كتاب المسرح الفرنسي المعاصر.

⁵⁵ طاغور في النكري المئوية، ص 215-216.

⁵⁶ كما تشير إلى ذلك مسرحيته 'ماليني'، و أمال (شخص مركزي في مكتب البريد)، وأعماله الشعرية: جني الثمار، و البستاني، و هدية المحب، و الهلال، و طيور شاردة وفي المحاضرات النقدية سادهانانا.

- ⁵⁷ ويليم كاري: جاء إلى كلكتا سنة 1799 و مكث في سريرامبور بمديرية هغلي حوالي أربعين سنة، و جاء بالطباعة في الهند. هو أول من طبع كتابا في النحو للغة البنغالية. إنه أصدر جريدة بنغادرين (مرآة البنغال) بالبنغالية.
- ⁵⁸ نكريتاجور، ص 33
- ⁵⁹ نفس المصدر، ص 35
- ⁶⁰ نفس المصدر، ص 38
- ⁶¹ 'الاستعمار' مصطلح خاطئ؛ لأن المستعمرين لا يستعمرون، في الحقيقة، الأراضي التي يحكمونها بل إنهم يحتلونهم ثم يستعبدون أهلها. فمن المستحسن أن نستخدم كلمة 'الاستعباد' بدلا من كلمة 'الاستعمار'.
- ⁶² نكريتاجور، ص 35-51
- ⁶³ نفس المصدر، ص 56
- ⁶⁴ راجع: النقد الأدبي أصوله و مناهجه، لسيد قطب، دار الشروق، القاهرة، 2003، ص 18-20، و ص 28، و ص 32-38

مولانا أبو الكلام آزاد والتضامن القومي

د. هيفاء شاكري*

لوقام بعدة أسفار إلى دول مختلفة عام 1908م، فزار الشرق الأوسط وتركيا بالإضافة إلى البلاد الأوربية. وأثناء زيارته لهذه البلدان تعرف على الحركات الدينية والوطنية فيها واتصل بقادتها. ففي مصر التقى برجال الأزهر الشريف وتأثر بأراء جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده. وفي تركيا التقى بقيادة جماعة شباب الترك، وفي العراق أيضاً قابل قادة الداعين إلى خروج المستعمرين، وبعد محادثاته مع هؤلاء القادة، وبفضل نكائه وفطنته أدرك آزاد أنه لا مفر للمسلمين من أن يشتركوا في سياسة بلادهم، بل يجب عليهم أن يكونوا الدعامة القوية التي تستند عليها حركة تحرير الهند.

حين تقف قافلة أمة ما حائرة على مفترق الطرق، تعلم أن مصيرها مرتبط بمسيرها ونجاتها رهن بصحة اختيارها، حينئذ عليها أن تبذل غاية جهدها في التحري والنظر، لتضع أقدامها على الطريق الصحيح ولو طال المسير. وعجلة الزمن تدور دون انتظار، تتساقط القصور الشامخة للملوك ذوي التيجان، وتنتهار الحضارات للأمم ذوات الماضي العريق. بالرغم من ذلك فالله تعالى رحيم بخلقه، ولذلك فإن بقاع العالم المختلفة لا تحرم بين الحين والآخر ومن أناس يدعون إلى الصراط السوي، إلى الدين الصحيح، إلى الحب والوئام والسلام. وذلك ما حدث للشعب الهندي حين أنشبت الاستعمار الإنجليزي مخالفه في صميم القارة الهندية، حكمها

* أستاذة مساعدة، قسم اللغة العربية، الجامعة المليية الإسلامية، نيودلهي، الهند.

بالقوة والاستبداد والجبر الذي لا يعرف الرحمة، وأبى الشعب الهندي الأبى أن يخضع لبرائث الاستعمار، وخلع ثوب الذل والمهانة الذي لازمه طوال تسعين عاماً، حتى تحررت الهند في 15 أغسطس 1947م. وبين الاحتلال والاستقلال نستطيع أن نضع كثيراً من الكلمات، وهي غير كافية للتعبير عن ما حدث في تلك الفترة من ظلم --- جبر --- استبداد --- قهر --- معاناة --- ألم --- حرقة --- دموع --- دماء --- جثث --- انفجارات --- شهداء --- تضحيات --- رصاص --- طلقات --- مكاييد --- خيانة --- غدر --- اغتيال --- إعدام --- وما إلى ذلك من تعبيرات تبعث في النفوس الفخر أحياناً والندم أحياناً أخرى. وفي مثل هذه الظروف الحالكة، والأوقات المدلهمة، كان هناك من أنار الطريق أمام الشعب الهندي، إنها جماعة الزعماء الذين قادوا حركة تحرير الهند، مولانا محمد علي جوهر --- مهاتما غاندي --- جواهر لال نهرو --- مولانا أبو الكلام آزاد --- الدكتور ذاكر حسين --- وشيخ الهند مولانا محمود الحسن وغيرهم، لا نستطيع أن ننسى دورهم وفضلهم على الأمة الهندية والإنسانية جمعاء. ومن بين هؤلاء اسم يتلأل في سماء الحرية بكل جرأة وفخر وكرامة، ألا وهو اسم مولانا أبو الكلام آزاد. وقبل التعريف بمولانا آزاد والدور القيادي الفعال الذي قام به لتشجيع الوحدة القومية للشعب الهندي من خلال كتاباته، قبل ذلك كله أودّ التعريف بذلك البلد العريق الذي يعرف على خريطة العالم باسم الهند. بلاد وصفها فقال: "بلاد بحرها درّ وجبلها ياقوت وشجرها عود وورقها عطر"¹.

غابر الهند وحاضرها:

إنها بلاد زاخرة، ازدهرت فيها الحضارات منذ قرون، من الألف الثالث إلى الأول قبل الميلاد. وتتابع على هذه الأرض هجرات من أجناس مختلفة، وقد أثبتت الأبحاث أن أقدم من سكن الهند قوم سود قطنوا الغابات، ثم أتت إليها موجة الآريين الذين سكنوا البنجاب ثم التورانيين. وهناك قبائل الجات (الزط). وكما تباينت العروق والأجناس في هذه البلاد، تباينت كذلك الديانات والعقائد من برهمية وبوذية

مولانا أبو الكلام آزاد والتضامن القومي، دراسة تحليلية

وهندوسية ومسيحية وزرداشتية وإسلامية. اختلفت كذلك لغات السكان من منطقة إلى أخرى من سنسكريتية وتامل وتلجو بالإضافة إلى الأردية والهندية والإنجليزية. وقد راجت في الهند أكثر من مئتين من اللغات ولهجات تفرعت منها بلغت أكثر من ثلاث مئة لهجة. احتل الفرس واليونان أجزاء منها في القرن الرابع قبل الميلاد، ثم بلغت الحضارة الآرية الهندوسية ذروتها. وقد تعاقبت على احتلال الهند شعوب عديدة حتى دخلها الإسلام عن طريق القوافل التجارية العربية التي كانت تقف إلى الهند، وبالعكس السفن الهندية التي كانت ترسو على الموانئ العربية محملة بالبضائع الهندية الذائعة الصيت². وقد فتحها المسلمون في عصر الوليد بن عبد الملك على يد محمد بن القاسم الثقفي عام 93 للهجرة. وقد ازدهرت الدولة الإسلامية العربية في الهند مع مرور الزمن وفتحت أمام المنبوذين والطبقات السفلى من المجتمع الهندي باب الأمل والتطلع والمساواة، فاعتنقوا الإسلام ونبذوا عن أنفسهم عادات الوثنية وتقاليد العبودية العمياء. ومما زاد من رغبة الهندوس في اعتناق الإسلام التسامح الذي تميز به هذا الدين تجاه السكان الذين لم يعتنقوا الإسلام حيث أعطاهم حرية كاملة في شؤونهم الدينية وإصلاح معابدهم³، وإقامة شعائرهم الدينية. بالإضافة إلى ذلك فإن المسلمين قد نقلوا إلى الهند الكثير من العلوم والفنون الإسلامية سواء كانت طبية أو صناعية أو معمارية. وبلغ الشعب الهندي منزلة عالية من التقدم والازدهار أيام الحكم المغولي، حيث عاش المسلمون والهندوس والسيخ وفرق أخرى كثيرة إخوة متحابين فيما بينهم حتى استطاع الإنجليز عن طريق شركة الهند الشرقية البريطانية، وبمعاونة عدد من الخونة القضاء على الثورة الوطنية 1857م والتي نشبت نتيجة النفوذ المتصاعد لشركة الهند الشرقية وتدخل الإنجليز في أمور الدولة واحتلالهم لكثير من المناطق الشمالية والجنوبية للهند. وبعد القضاء على الثورة قام الإنجليز بنفي آخر الملوك المغوليين وهو السلطان بهادر شاه ظفر وقتل أبنائه وذويه وإعلان ضم شبه القارة الهندية إلى تاج ملكة فكتوريا. وبالرغم من أن مدة الاحتلال هي تسعون عاماً إلا أن السيطرة الإنجليزية كانت قد بدأت قبل ذلك

بكثير، حيث استطاع الإنجليز أن يقللوا من النفوذ البرتغالي والهولندي ثم الفرنسي على السواحل الهندية، وأخلوا لأنفسهم الجوَّ بإثارة النزاع والدسائس بين الأمراء الهنود والحكومات الطائفية المختلفة. ولكن يشاء الله أن تستيقظ الأمة الهندية من سباتها، وتتقد فيها شعلة الإحساس بمسئولياتها بنمو الوعي القومي فيها حتى قامت حركة تحرير الهند على أيدي زعماء أجلاء، ونالت هذه الدولة العظيمة استقلالها في 15 أغسطس 1947م كما سبق ذكر ذلك، ومنذ ذلك الحين فإن جمهورية الهند المستقلة تحتل مكانة مرموقة بين دول العالم، وبالرغم من المشكلات الداخلية فيها، فهي تسير اليوم على طريق التقدم والازدهار خاصة في مجال الزراعة، والتقنية المعلوماتية، الصناعات الحديثة، والأبحاث الطبية وسبر أغوار الفضاء، المجال النووي. ونبغ من بين أفرادها علماء اعترف بهم العالم كله من خلال منحهم أعلى الجوائز اعترافاً بفضلهم في سبيل البشرية.

إن السطور السابقة تحمل في طياتها عرضاً مختصراً لتاريخ الهند، حيث كانت هذه البلاد بوتقة انصهرت فيها الأجناس والعناصر والديانات المختلفة. وظهرت على شكل الوحدة القومية في المنظمات السياسية والاقتصادية وأساليب الحياة والآداب والفنون. إنها ميزة قلما وجدت في أي دولة من دول العالم، فكانت أرض الهند تربة ماصة لحضارات مختلفة تزعزعت فيها وازدهرت، ثم خرجت للعالم في أحسن زينة وأبهى حلة. إن الغرض من هذه الإطلالة السريعة على صفحات الماضي والحاضر الهندي هو بيان الخلفية التي كان لها أكبر دور في تشكيل السياسة الهندية من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن القارئ للسطور السابقة يستطيع تقويم الموقف الصحيح الذي اتخذته مولانا أبو الكلام آزاد تجاه القومية في هذا القطر العظيم.

دور مولانا أبو الكلام آزاد في تحرير الهند وآراؤه في الوحدة القومية من

خلال كتاباته:

حياته: ولد مولانا آزاد عام 1305هـ/1888م في مكة المكرمة و والده هو مولانا خير الدين ووالدته هي عالية بنت الشيخ محمد ظاهر الوتري⁴ مفتي المدينة

مولانا أبو الكلام آزاد والتضامن القومي، دراسة تحليلية

المنورة. كان والده قد هاجر إلى مكة المكرمة ومكث فيها تسعة وعشرين عاماً، عاد بعدها إلى كولكاتا حيث توفيت زوجته ودفنت هناك. سمّاه والده "فيروزخت" ولكنه استعمل أيضاً أسماء مختلفة مثل "غلام محيي الدين آزاد" أو "أبو الكلام محيي الدين أحمد آزاد". واشتهر أخيراً بـ"أبو الكلام آزاد". كان عمره ست أو سبع سنوات⁵ حينما قدم مع والده إلى كولكاتا. اهتم والده بتعليمه على الطريقة التقليدية، فتعلّم القرآن الكريم والعربية والفارسية. ثم مرض والده فتعلم على أيدي علماء مختلفين في منزلته. وبذلك فلم يلتحق آزاد بمدرسة أو جامعة ولم يحصل على شهادة رسمية. لم تعرف الأمة الهندية خطيباً مفوّهاً أحسن منه في اللغة الأردية، وكانت له دراية تامة بدقائق اللغة الإنجليزية، بالإضافة إلى ذلك فقد كان يقرأ الكتب الفرنسية والتركية وبألفاظ أخرى كان رجلاً صنع نفسه بنفسه وكان يعتقد أن أصحاب الهمة يشقون طريقهم بأنفسهم وبينون مجدهم بالأسباب التي هي من صنع أيديهم⁶.

شرف العصاميين صنع نفوسهم من ذا يقيس بهم بني الأشراف⁷

العوامل التي أثرت في تكوين تفكيره:

وقام بعدة أسفار إلى دول مختلفة عام 1908م، فزار الشرق الأوسط وتركيا بالإضافة إلى البلاد الأوربية. وأثناء زيارته لهذه البلدان تعرف على الحركات الدينية والوطنية فيها واتصل بقادتها. ففي مصر التقى برجال الأزهر الشريف وتأثر بأراء جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده. وفي تركيا التقى بقيادة جماعة شباب الترك، وفي العراق أيضاً قابل قادة الداعين إلى خروج المستعمرين، وبعد محادثاته مع هؤلاء القادة، وفضل ذكائه وفطنته أدرك آزاد أنه لا مفرّ للمسلمين من أن يشتركوا في سياسة بلادهم، بل يجب عليهم أن يكونوا الدعامة القوية التي تستند عليها حركة تحرير الهند. أدرك أيضاً أنه يجب أن يوظف المسلمين من غفلتهم، واتخذ صحيفة الهلال وسيلة فعالة لهذا الغرض. وكان قد أصدر من قبل لسان الصدق، له أيضاً نيرنك عالم (نيرنج عالم) والمصباح وبعض المجالات والجرائد التي أصدرها تحت



مولانا أبو الكلام آزاد

إشرافه وإدارته مثل بيغام-الجامع-الوكيل- أما في ايوارديجت فقد كان مديراً. شارك أيضاً في الكتابة لجريدة الندوة الصادرة من ندوة العلماء في لکناؤ.

في ميدان السياسة:

تقلد عدة مناصب بعد دخوله إلى خضم الحياة السياسية. ظل رئيس حزب المؤتمر لمدة ست سنوات، وكان ذلك اعترافاً لدور مولانا آزاد بالرغم من أن مؤيدي حزب المؤتمر أشاروا أن انتخابه لم يكن نادرة، لأن منذ تشكيل حزب المؤتمر عام 1885م قد سبق آزاد أكثر من ستة مسلمين لهذا المنصب⁸. انتخب وزيراً للتعليم والموارد الطبيعية والأبحاث العلمية عام 1952م، وظل على هذا المنصب حتى وفاته في 22 فبراير 1958م عن عمر يناهز 69 عاماً وستة أشهر.

إن مولانا آزاد قد تحمل أذى كثيراً من قبل السلطات الإنجليزية من نفي وسجن وحبس بسبب دوره الذي قام به في سبيل استقلال الوطن ونشاطاته المعادية للاستعمار الإنجليزي، ومطالبته هو وزملاؤه الإنجليزية بإعطاء الشعب الهندي حق تقرير المصير. ولقد تحمل كل ذلك وكأنه قد وضع أمام عينيه قول المتنبي:

تريدان لقيان المعالي رخيصة لا بد دون الشهد من إبر النحل

ولقد اعترف كثيرون بحنكته السياسية وخبرته الواسعة في هذا المجال، منهم البندت جواهر لال نهرو، حيث قال: "لم يهاجم أبو الكلام آزاد المعقل المعادي للقومية بصورة مباشرة وقد أحدث هذا الكاتب والصحفي الشاب تأثيراً عظيماً في الأوساط الإسلامية المتقفة، وبالرغم من أنه لم يعجب الشيوخ، فإن كلماته قد كونت خميرة في عقول الجيل الناشئ التي بدأت بسبب تطور الحركة الوطنية الهندية، ولكن آزاد وجهها وجهة نهائية عندما أشار بأنه لم يكن هناك تعارض بين الإسلام والعطف على البلدان الإسلامية وبين الوطنية الهندية، مما ساعد على تقريب العصبية الإسلامية من المؤتمر الوطني الهندي⁹. كذلك اعترف نهرو بأن آزاد يتحلى ببعد النظر وشعور حساس، وهو رجل محنك ومدير للمؤتمر يكرمه الجميع.

مولانا أبو الكلام آزاد والتضامن القومي، دراسة تحليلية

آزاد والوحدة القومية:

كان لآزاد هدف واحد فقط وهو خدمة وطنه وشعبه من خلال دعوتهم إلى الوحدة القومية فيما بينهم ونبذ الخلافات التي كان يرى بنظرته الثاقبة أنها ستؤدي بهذه الأمة الهندية إلى شفا حفرة الهلاك، واستخدم لذلك الأسلوب الساحر الخلاب والرنان الذي امتاز به في خطابه وكتاباته، سواء كان ذلك في مذكراته أو رسائله أو الخطابات التي ألقاها لشحذ همم الشعب الهندي. فبدأ بالذكاء والبصيرة اللتان عرفتا عنه بالإضافة إلى قواه العقلية والجسمية بإقناع الهندوس بأن المسلمين ليسوا ضد الحرية السياسية وضد الطائفة الهندوسية. يقول: "أوضحت لهم أن اتخاذهم موقفاً عدائياً من المسلمين، أو عدم الاكتراث بهم على الأقل سيزيد الكفاح في سبيل الحرية السياسية صعوبة، فلا مناص إذن من بذل الجهود الصادقة لبناء الثقة بينهم وبين المسلمين، بل ومصادقتهم ليكونوا عوناً على كسب الحرية والاستقلال¹⁰.

كان من الواضح أن تحرير الهند وخروج شعبها من تحت وطأة الاستعمار لن يتحقق إلا بالاتحاد بين أصحاب الديانات، وأن على المسلمين والهندوس أن يسيروا متكاتفين الأيدي لأن الاستقلال هو حاجة كليهما، إن عليهم أن يدركوا أن الحرية لن تأتي إليهم مزينة لهم في طبق من ذهب، لكنها حقهم، ويجب عليهم أن ينتزعوها انتزاعاً من مخالبي الإنجليز، أما إذا اكتفوا بوعود زائفة من قبل الإنجليز ف:

عهد الفرنج وأنت تعلم عهدهم لا يبخسون المحسنين فتيلاً¹¹

فعندما وضع آزاد قدمه في ميدان السياسة أدرك أن الحكومة البريطانية تمارس سياسة "فرق تسد"، لأن الانقسام الذي حلّ بالهندوس والمسلمين يضرّ بكليهما، وكلما زاد الفاصل بين المسلمين والهندوس أحكم الاستعمار الإنجليزي قبضته على الهند. لذلك فإن ما كان يصبوا إليه الشعب الهندي لم يكن ليحقق إلا بالتسامح والمدارة فيما بينه، والوحدة القومية التي دعا إليها أغلب زعماء حركة التحرير، خاصة مولانا أبو الكلام آزاد، فكان المهندس المعماري لعمارية حركة التحرير، تصور الطريق الصحيح لها، ووضع خططها، وقوم نتائجها، ثم دعا أفراد الشعب إلى الإيمان بها

ويذل كل غال ونفيس في سبيلها. قال: "إن من الواجب الشرعي لمسلمي الهند أن يرتبطوا مع الهندوس بكل صدق في رباط العهد والمحبة، ويكونوا معهم أمة واحدة. أريد أن أقول لإخواني المسلمين أن أعلى صوت بعد صوت الله تعالى هو صوت محمد صلى الله عليه وسلم الذي عقد معاهدة مع من لم يدخل في الإسلام وكتب: "إنها أمة واحدة، نحن نصالح جميع القبائل التي تسكن أطراف المدينة، نتفق معهم ونريد أن نكون أمة واحدة"¹². أشار آزاد إلى ميثاق المدينة المنورة واستلهم منه الخطوط للاتحاد القومي بين المسلمين والهندوس في الهند، فالمراد بكلمة "أمة" ما يراد بكلمة (Nation) الإنجليزية. كان آزاد يعلم إزالة اليأس وتعزيز الثقة بين أبناء الأمة لن يكون إلا بتشكيل مجتمع سياسي يتسم بالوحدة والقوة. كان المسلمون والهندوس قد وضعوا أقدامهم في ميدان السياسة مع بعضهم في مناسبات قبل هذا، ولكن لم يفكر أحد أن دعوة الفرقتين إلى الاتحاد تأتي من صميم التاريخ الإسلامي كما أشار مولانا آزاد إلى ذلك في خطابه السابق.

إن النظرية التي تبناها مولانا آزاد لم تكن ذات فائدة للشعب الهندي فقط إنما لرجال السياسة أيضاً، فعندما انقسم حزب المؤتمر على نفسه، وخيف عليه من التفرقة عقدت جلسة خاصة للمؤتمر 1923م في دلهي ترأسها آزاد برغم صغر سنه، ولكنه وجد حلاً مناسباً للمشكلة بسبب حنكته السياسية وأخرج الحزب من تيار كاد يجرف به حيث قال: "أقول بصورة جلية بدون أي حرج أننا في الهند لا نحتاج إلى منظمة هندوسية أو منظمة مسلمة، إننا نحتاج فقط منظمة واحدة وهي منظمة المؤتمر القومي الهندي"¹³.

إن الظروف كانت صعبة جداً لآزاد، تزلزت فيها قدم الزعماء المحنكين وانجرفوا مع التيار، لكن قدم آزاد ظلت ثابتة لم تتحرك قيد أنملة، ثبت إلى آخر لحظة وواجه السيل بكل جرأة وبسالة، واعتبر ذلك واجب دينه لأجل وطنه، قال: "إن المصباح المنير الذي لا ينطفئ هو مصباح الحرية الصحيحة. إن المسلمين يعيشون في الهند وخدمة الهند واجبهم الديني. لا يليق بمؤيدي الإنسانية والحق والعدالة التمييز بين

مولانا أبو الكلام آزاد والتضامن القومي، دراسة تحليلية

هذا وذلك. إن خدمة العالم هي هدف المسلمين، إنهم خدّام الإنسانية، وكل جزء من أرض الله وكل فرقة من عبادته محترمة لديهم¹⁴.

أدرك آزاد أن طبيعة العلاقة بين الهندوس والمسلمين وأصحاب الديانات الأخرى حساسة، ولا يمكن بث الثقة فيما بينهم إلا بإزالة الشكوك فقال: "كنت أريد أن أبين لكم حقيقة العلاقة بين الهندوس والمسلمين، إذا كان المسلمون قد مدّوا إليكم يد المحبة والاتحاد والصداقة، فهذا العمل ليس مؤقتاً أو دفاعياً أو خدعة سياسية، بل إن المسلمين قد فتحوا لكم أحضانهم بأمر الله وقوانين الشريعة، لأن الأساس هو الشريعة فموقفى هو نفسه الذي كان قبل عشرين سنة"¹⁵.

ومتخذاً الشريعة أساس موقفه اعتبر آزاد الوحدة القومية هدية من الخالق للمسلمين والهندوس، فيجب أن لا يكون الدين والثقافة مانعين في طلب الحرية، ويبيّن للمسلمين أن الجهد المشترك هو روح الإسلام الحقيقية ولا مفرّ من أن يتقدّم المسلمون ويضحّوا بالأموال والأرواح¹⁶.

إن آزاد بتعاليمه وإرشاداته قد أثار الطريق أمام الجميع إلى الحرية والمستقبل الزاهر، ويتضح بما قاله عند إنهائه خطابه الشهير في اجتماع حزب المؤتمر في رام جره 1940م: "أودّ أن أذكركم بأن نجاحنا يعتمد على ثلاثة أشياء: الوحدة القومية، الانضباط و الثقة في تعاليم مهاتما غاندي. إنها التعليمات التي أقامت صرح الماضي وبها نستطيع أن نتوقع لأنفسنا مستقبلاً زاخراً"¹⁷.

الهند ملتقى للديانات المختلفة:

كان مولانا آزاد يعلم أن أديانا ومللا ونحلا للهند، ولكنه كان يؤمن أن الدين هو ريبط الإنسان بالله والبشر بالبشر عن طريق حقوق الله وحقوق العباد، وكان يدعو إلى العلمانية ولكن ليست العلمانية الغربية التي تهدف إلى نفي الأديان. إنما العلمانية التي تحافظ على حقوق الإنسان في المجالات السياسية والاجتماعية، وإعطاء كل فرد الحرية في اختيار الدين الذي يرغب فيه مع احترام الأديان الأخرى. وكان يعتقد أن الإسلام يتضمن هذه المعاني جميعها، ومن عارض ذلك فقد عارض

الإنسانية. قال آزاد: "إن الاتحاد بين المسلمين والهندوس لهو اللبنة الأولى لبنائنا، وبدونه تصبح أحاديث الاستقلال الضرورية لحياة ونمو أي دولة من دنيا الأحلام والخيال. ليس هذا فقط بل إننا لن نستطيع أن نخلق في أنفسنا المبادئ الأساسية بدوننا (الاتحاد). إذا أتى ملك من بين غيوم السماء وأعلن من فوق منارة قطب في دلهي أننا سنحصل على الحرية في غضون أربع وعشرين ساعة بشرط أن نتخلى عن الوحدة بين المسلمين والهندوس، فأتخلى أنا عن الحرية. لأنه إذا تأخرت الحرية فذلك ضرر للهند. أما إذا انحلت الوحدة فتلك هي خسارة الإنسانية جمعاء"¹⁸. لقد حاول آزاد أن يجعل جميع الفرق تؤمن بأنها شعب واحد برغم اختلاف أديانها. وبحكم كونه مسلماً فقد حاول أن يزيل الشبهات التي تسيء إلى سمعة المسلمين. كتب في جريدة الهلال: "إذا كنا مسلمين حقيقيين فإن القرآن سيكون بيدنا، واليد التي تحمل القرآن لا يمكن أن تحمل المتفجرات وآلات القتل"¹⁹. كذلك رفع الشكوك التي تثار حول الهندوس، فقد كان قلقاً من أن الهندوس تنتشر عنهم أخطاء بالنسبة لمكانتهم الدينية والفقهية، وهذه الأخطاء تؤثر على العلاقات بين أفراد الشعب، وقد فعل ذلك في عدة حلقات في مجلة المعارف 1965م أثبت فيها أن الفاتحين العرب والعلماء المرافقين لهم كانوا يعتبرون الهندوس شبيهي أهل الكتاب، وكانوا يعترفون بحريتهم الدينية والتسامح في علاقاتهم الاجتماعية معهم، لكنهم لم يضمومهم إلى اليهود والنصارى في قضايا الذبيحة والزواج²⁰.

إن آزاد قد أرسى قواعد القومية على أساس العلمانية التي كان يؤمن بها في معناها الواسع، وأمر أن نجعل مبادئها فلسفة لحياتنا، إن الوحدة القومية تحتاج إلى المداراة وسعة النظر واحترام العقائد الأخرى، وذلك لا يعتبر شيئاً جديداً في تاريخ الهند. كانت خبراته في حياته قد ولدت في نفسه إحساساً لا يمانع فيه الإسلام وهو فخره العارم بكونه هندياً وأنه جزء من القومية التي لا يمكن تقسيمها، والتي تركز على دعائم الثقافة الهندية المشتركة. قال في اجتماع حزب المؤتمر في رام جره 1940م:

مولانا أبو الكلام آزاد والتضامن القومي، دراسة تحليلية

"إن الثقافة الموحدة هي نتيجة التبادل الثقافي بين الهندوس والمسلمين، لقد أعنى هذا التبادل منذ ألف ومائة عام الهند بخزينة الثقافة المشتركة. فبطولاتنا، ولغتنا، وأدبنا، وفنوننا، ولباسنا، وطريقة تعاملنا، وعاداتنا، وتقاليدنا، وذكرياتنا، كل ذلك مختوم بخاتم الجهد المشترك وهو تراث وطنيتنا الموحدة الذي لا نريد أن نتركه إلى عصر الحياة الماضية، إن إخواننا الهندوس الذين يريدون إحياء الحياة التي كانت سائدة قبل ألف عام، فإنهم يعيشون في عالم الأحلام وإذا كان هناك إخوان من المسلمين يريدون العودة إلى الحضارة التي جلبوها من إيران ووسط آسيا فأولئك أيضاً فكرتهم لن تكفل بالنجاح"²¹.

لقد رسم آزاد الخطوط السليمة لإبراز الملامح الحقيقية للوحدة القومية بقوله: "أنا مسلم وأعتزّ بذلك، وقد ورثت المثل العليا للإسلام الذي تمتدّ جذوره عبر ثلاثة عشر قرناً. ولا أَرْضَى أن يتلف جزء صغير منها، إن تعاليم الإسلام وتاريخه وعلومه وحضارته رأس مالي ومن واجبي أن أحافظ عليها، وبصفتي مسلماً لي شخصية متميزة في الدوائر الدينية والحضارية ولا أتحمّل أن يتدخل فيها أحد، ولكن إضافة إلى هذه المشاعر يتواجد شعور آخر لا يمنعني منه الإسلام، بل يرشدني إليه وهو أنني أشعر بالاعتزاز بصفتي هنديةً. وأنا أشكل عنصراً مهماً للوطنية الهندية الموحدة التي لا توزع، ولا يكتمل صرح عظمتها بدوني. وأنا عامل حاسم لتواجدها ولن أتخلى عن هذه الدعوى"²². وبذلك فقد دعا آزاد المسلمين والهندوس إلى الترابط فيما بينهم ليقفوا في وجه الاستعمار الإنجليزي متحدين، لأنه الطريق الوحيد الذي يوصلهم إلى آفاق الحرية والاستقلال.

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسراً وإذا افترقن تكسرت أحادا

موقفه المعارض لتقسيم البلاد لإيمانه بالوحدة القومية:

كان آزاد يعتبر تقسيم الهند إلى دولتين على أساس العنصرية الدينية خطأً فادحاً يرتكبه زعماء الرابطة الإسلامية (مسلم ليك) وعلى رأسهم محمد علي جناح وقد اعتبر التقسيم آلة قاطعة للوحدة القومية في الهند، وقد أخبر بذلك أبناء الهند

وحذر المسلمين من مغبة تصديق دعاوي الداعين إلى التقسيم، لأن نظريته الصائبة كانت قد اخترقت ستار المستقبل، وعبونه الثاقبة كانت ترى كل المشكلات التي ستواجهها دولة باكستان. لقد أخبرهم آزاد أن قيام دولة كهذه ضار للمسلمين خصوصاً، لأنه حتى بعد تأسيسها سيظل كثير من المسلمين في الهند، وسينقسمون على أنفسهم في طوائف صغيرة، ويصبحون ضعافاً أمام الأكرثية الهندوسية. أضاف أيضاً أن المسلمين سيدركون في يوم من الأيام أنهم صاروا غرباء في وطنهم وقد تخلفوا عن الركب الصناعي والعلمي والاقتصادي²³. وصار آزاد ينتهز كل فرصة تتاح له لدعوة شعب بلاده إلى الوحدة والتضامن فيما بينه، كان يعتبرهم أعضاء أسرة واحدة، وكان يرى الطائفية أشنع مآثم العالم وقد ظهر ذلك في خطبته بمناسبة ذكرى جليانواله باغ 13/ أبريل 1939م: "إنها الأرض التي أيقظ فيها هدوء الموت، الصوت العالمي للوحدة القومية، لقد سألت دماء الهندوس والمسلمين والسيخ مع بعضها في آن واحد. إننا حصلنا على غذاء لحياتنا من دماء هذا الموت. كل سنة في الثالث عشر من أبريل نجتمع لهذه الذكرى المؤلمة. واليوم أيضاً أطلب كل هندوسي ومسلم وسيخي أن يعيد ذكرى هذه الحادثة في صميم قلبه ويحتسب نفسه، هل أثرها باق على عقلنا وقلبنا أم قد زال؟"²⁴.

لكن برغم كل المعارضة التي أبداها مولانا أبو الكلام آزاد وزملاؤه لفكرة قيام باكستان، إلا أن ما كانوا يخشونه قد حدث وظهرت دولة باكستان قبل يوم واحد فقط من حصول الهند على استقلالها، ظهرت على أشلاء وجثث المستضعفين من الجانبين وامتزج الشعور بالحزن والتحسر لدى آزاد. قال: "تأتي اللحظة التي تضطرب فيها الأمواج بين يدي الزعيم الذي صنعها، وهو ما حدث قبل التقسيم، ولم تكن هناك قضية من يريد، ومن لا يريد، ولذلك فقد غرق وطننا، والبندت (جواهر لال نهرو) وغاندي والسيد جناح في هذه الأمواج المتلاطمة"²⁵.

وبدأ المسلمون في الانتقال إلى باكستان بدعوى الهجرة، وبالعكس قدمت قوافل الهندوس والسيخ الذين كانوا يقطنون المناطق الشمالية إلى الهند. وانتشرت معها

مولانا أبو الكلام آزاد والتضامن القومي، دراسة تحليلية

أنبأ أحداث العنف الطائفية وقتل الشيوخ والنساء والأطفال من كلا الجانبين. لقد آلمت هذه الأحداث مولانا آزاد كثيراً، وظهر ذلك في خطابه الذي أذاعته إذاعة عموم الهند يوم 12/ أكتوبر 1947م بمناسبة عيد ميلاد غاندي الثامن والسبعين: "ليس هناك سلام للمسلم في بنجاب الشرقية، وكذلك عدم الأمن للهندوس والسيخ من غرب الولاية. وهذه دلهي التي أخاطبكم من أحد أبنيتها ما حدث فيها يقطع نياط قلب كل هندي غيور والسؤال هو: ماذا حدث لنا فجأة؟ وإلى أين نحن ذاهبون؟ بالأمس تطلعنا إلى حرية البلاد ووضعنا خطاً عديدة لهند مستقلة. إن من واجبكم أن تبدلوا قسارى جهدكم لإيقاف أحداث العنف الطائفية وتساعدوا الحكومة في إخماد نار الشعب"²⁶.

وقد اعتبر آزاد تقسيم الهند أمراً مؤلماً، وحاول جهده ليجنب الشعب مغبة الانقسام ولكنه فشل، بالرغم من ذلك فلم ينس أن الشعب واحد، وحياته الثقافية موحدة. وقد مثل لذلك بوضع العصا في الماء حيث ظهر أن الماء قد انقسم ولكنه منسجم وبمجرد رفع العصا، يختفي حتى التقسيم الظاهري²⁷. وقد حاول أن يقوي أواصر المحبة بين الأديان المختلفة، ونادى بالتضامن والتسامح والمداراة لتسير الأمة الهندية بخطى واثقة على طريق التقدم والازدهار فقال: "الحقيقة أن الفكر الجديد للهند بعد الاستقلال آمن بأن أرض الهند وطن واحد، وأن الهندوس على مختلف طبقاتهم وطوائفهم نسيج واحد"²⁸.

كان آزاد على استعداد تام للتضحية بجميع مصالحه من أجل تحقيق هدفه، وهو خلق الثقة بين المسلمين والهندوس، لأنه حسب قوله: "إن حلاوة الوصول إلى الهدف يدركها من ذاق الحرمان"²⁹. أراد أن يشرح لهم أنه قد قدر للهند أن تكون أرضها مهذاً لأجناس بشرية متعددة وحضارات وديانات متنوعة أنت إليها القوافل بألوانها الحضارية والدينية العديدة، ووحدت مكاناً بين أحضانها الرؤومة، آخر تلك القوافل، كانت قافلة المسلمين، وإنما نتلمس بصمات التبادل الثقافي على اللغة

والأدب والشعر والفنون، ونحن، الهندوس والمسلمين، عناصر القومية غير القابلة للتفكك³⁰.

وهكذا فإن آزاد حاول بكل ما أوتي من قوة أن يثني المسلمين عن إرادة ما يسمّى الهجرة، كان يرغب في خلق حبّ الوطن وأهمية الوحدة التي تميز بها الشعب الهندي منذ أقدم العصور. قال مخاطباً المسلمين: "دعوا عقولكم تفكّر، سترون أن قراركم مستعجل، إلى أين أنتم ذاهبون؟ ولماذا؟ ماذن المسجد تسألكم عن تاريخكم، حيث توضع قوافلكم على ضفاف نهر جمنا، والآن أنتم خانفون من العيش بالرغم أن دلهي قد رويت بدمائكم³¹. وقد تأثر كثير من المسلمين بخطابه وغيروا موقفهم وبقوا في الهند بدل الذهاب إلى باكستان.

استلهامه معاني الوحدة القومية من القرآن الكريم:

وبعيداً عن صولة السياسة وجولاتها، كان لآزاد آراء تدلّ على تقويمه الصحيح للمواقف وبصيرته النافذة، وهي لم تنزل قيد أنملة عن الهدف الذي كان يسمو إليه وهو الوحدة القومية والتسامح بين أفراد هذا الوطن الغالي. ويظهر ذلك جلياً واضحاً في كتاباته وخطاباته غير السياسية، فتحت عنوان "الروح التعليمية لسورة الفاتحة" بين لنا آزاد أن الفاتحة دعاء، ومن يداوم عليه ليل نهار لا يمكن أن يفكّر في التفرقة بين الأصل والقوم والبلد. ولا يجدر به أن يتحزب لطائفة دون أخرى لأنه يتعوذ من الحرمان والضلال ويطلب الهداية والطريق المستقيم لنفسه وللجميع. من هذه تربيته فسيكون ذهنه ممتلئاً برحمة الله وجماله، ولن يكون شخصاً طائفيّاً وهذه هي روح الدعوة القرآنية. وفيما يتعلق بمعاملة الإنسان للآخر، فإن القرآن يبين أن الأصل في هذا الباب هو الحب، والشفقة والرحمة، والسلوك والحسن والتعاون. وكان النبي صلّى الله عليه وسلّم أكثر المعترفين بهذه الحقيقة: "اللهم أشهد أن الناس كلهم إخوة (أبو داود ومسلم)³².

لقد كفل القرآن الكريم في رأي آزاد حقوق أصحاب الديانات الأخرى، ودعا إلى ضرورة التسامح والترابط، يقول آزاد: "لم يبرر القرآن أي نوع من موقف المصلحة

مولانا أبو الكلام آزاد والتضامن القومي، دراسة تحليلية

في العقيدة فيما إذا اتصل الأمر بالذات الإلهية، إنه يصون التوحيد والتنزيه من جميع الشكوك ومع ذلك لا يمنعنا من التسامح مع الآخر في أي حال من الأحوال³³.

نشاطات ثقافية لأجل الوحدة القومية:

لم يكن آزاد مقتنعاً بفكرة الوحدة في وطنه فقط، إنما أراد أن تمتد جذور هذا الاتحاد إلى أرجاء العالم المختلفة، وتكون الهند هي المفخرة والمنارة التي تبت أفكار التضامن السياسي والثقافي الحضاري، ولذلك اتخذ من اجتماع مؤتمر العلاقات الآسيوية منبراً تتطرق منه دعوته للتفاهم والصداقة المشتركة، وقد شكر الدول المشاركة مع إيمانه القوي أن الوفود المشتركة حينما تعود إلى أوطانها، ستحمل معها مشاعر الصداقة والمحبة الهندية³⁴. بالإضافة إلى ذلك فإنه كان حريصاً على أن يظهر وطنه العظيم بصورة مشرقة أخاذة أمام دول العالم المختلفة، صورة تظهر تضامن الشعب ووحدته، وقد قال في خطاب بمناسبة تأسيس المجلس الهندي للعلاقات الثقافية يوم 14/ فبراير عام 1958م: "إن باكستان قد قدمت أمام العالم وجهاً واحداً فقط للقضية (قضية اللاجئين والقتلة أثناء التقسيم)، وبدأت حملة الدعاية ضد الهند بأن الهند بلد للهندوس فقط، ولكن يسرني أن أخبركم أن الصورة قد تغيرت بمجرد قيام المجلس الهندي للعلاقات الثقافية. وقد عرفت دول العالم أن ذلك تشويه لصورة الهند ودعاية مبنية على الأكاذيب لا أساس لها من الصحة. وقد عرفت الدول أيضاً أن الحكومة الهندية ليست حكومة هندوسية ولكنها حكومة وطنية علمانية تضم كل الهنود"³⁵.

إن التفكير المنفتح والنظرة السليمة التي امتاز بها آزاد جعلته يتحدث في أمور قلما يتحدث فيها رجل مثله، ولكن سعة فكره وتسامحه كان المصدر الذي يستمد منه ما كان يكتبه ويقول، وذلك ما ظهر عند افتتاحه أكاديمية الموسيقى والمسرح حيث قال: "إن جوهر الثقافة الهندية هو أنها تمتص عناصر الثقافات المختلفة وتمتزج معها، ولا يظهر ذلك بشكل جلي وواضح أكثر من حفل الموسيقى"³⁶.

الثبات إلى آخر لحظة:

قد يعتقد البعض بحكم كون إمام الهند مسلماً أنه كان ينحاز إلى المسلمين في بعض آرائه ولكن ذلك خطأ فادح لا يجب أن نقع فيه لأنه كان رجل كلمته ومبادئه، وخير دليل على ذلك هو آخر خطاب له في حياته، حيث خاطب الجمع في اجتماع من قبل جمعية تنمية اللغة الأردية، الهند (أنجمن ترقى أردو، هند) الذي عقد في الفترة بين 15-17/ فبراير 1958م بقوله: "أذكر أنه قبل أربعين سنة كان هناك جدال حول ماهية اللغة الرسمية للهند، أتكون الهندية أو الأردية؟ كل فريق كان يناصر اللغة التي يريد، وتحررت البلاد واتخذ القرار بأن اللغة الهندية ستكون اللغة الرسمية للبلاد. فالآن يجب على كل مواطن يحترم الدستور والقانون أن يلتزم به ولا يفعل خلافه"³⁷.

كان ذلك هو آخر خطاب لـ"أبو الكلام آزاد"³⁸ انتقل بعده بأسبوع إلى جوار ربه

ولكن:

ما دام ذكر العبد بالفضل باقياً فذلك حيّ وهو في التراب هالك³⁹
 نعم إننا نذكره بالفضل، ذلك الرجل الذي نهلنا من أفكاره النيّرة من خلال مقتبسات من كتاباته وخطاباته، الرجل الذي لم يتوان لحظة واحدة عن الدعوة إلى السلام العالمي والأخوة الإنسانية، ورفع نزاع الأديان والمذاهب. كان قائداً أخذ بيد الشعب الهندي إلى آفاق الحرية والاستقلال، استطاع أن يكتشف ببصيرته الفذة الاتحاد الذي يكمن وراء التنوع، وظهر على مسرح التاريخ الهندي الحديث رجلاً ومفكراً يحسب له الجميع ألف حساب.

كان آزاد يعلم أن أهلك الساعات التي تسبق الفجر، فاتخذ ظلام الليل له سرجاً وفتح أمام الشعب الهندي طريقاً للمجد والعظمة يوصلهم إلى هدفهم، كان يعتبر الهند بستاناً تفتحت فيه ألف وردة، كل لها لونها وأريجها المختلف، لكنها تجمل هذا البستان. وإننا وفي ظروفنا الراهنة من النزاع وانتشار العنف الطائفي والتحزب والإرهاب حيث ظهرت مصداقية ما قاله آزاد قبل خمسين سنة، لفي أشد حاجة إلى

مولانا أبو الكلام آزاد والتضامن القومي، دراسة تحليلية

أن نتخذ من مبادئه نبراساً، ومن شعلة قلبه دفئاً، ومن كلماته نوراً، ومن عباراته ضوءاً، ومن كتاباته أشعة تستنير بها الأنجم الموجودة في سماء الهند الحبيبة، حتى لو تكبدنا في سبيل ذلك خسائر فريضة.

وكم من رجل ما كان يملك أن ينصر وطنه ومبادئه وشعبه ولو عاش ألف سنة، كما نصرها آزاد بجهد وكفاحه، وما كان يملك أن يودع القلوب من المعاني الكبيرة، ويحفز الألوفا إلى الأعمال العظيمة بمثل هذه الكلمات والعبارات التي خطها بيده إن ساعة واحدة حافلة من الأمجاد تسامى عصرًا برمته عاطلاً عن المجد، والساعات الحافلة في حياة آزاد لا تعد ولا تحصى، تلك التي صرفها في رفع شأن وطنه وشعبه، ودعوته إلى حياة موحدة قوية، إن عباراته سوف تبقى حافزاً محرّكاً للأبناء والأحفاد، بل ربما كانت محرّكاً لخطى التاريخ كله على مدى أجيال وأجيال.

قد كنت تسقي النشء ذوباً صافياً
من فيض قلبك لم تصب بملال

المرء يرجو من بحارك شفة
ليعيش في وعي رخي البال

فهناك يحيا الشعب في حرية
وتموت فيه قسوة الأغلال

الهوامش:

- ¹ ثمار القلوب في المضاف والمنسوب (تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم)، دار المعارف، القاهرة، جمهورية مصر العربية، سنة الطبع لم تذكر، ص 533
- ² تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية، مكتبة الآداب، القاهرة، جمهورية مصر العربية، سنة الطبع لم تذكر، ص 44
- ³ العرب والملاحة في المحيط الهندي، تفاصيل الطبع لم تذكر، ص 23

⁴ في ذلك اختلاف، راجع: هماري آزادي، أورينت لونجمان، سنة الطبع لم تذكر (استقلالنا)، ص 20 حيث ذكر آزاد أن والدته هي بنت أخت الشيخ محمد طاهر وتري⁵ في ذلك اختلاف، راجع: هماري آزادي، ص 2 حيث ذكر أنه انتقل إلى كولكاتا عام 1890م وعمره سنتان، وراجع: مقالة شورش كشميري، مجلة "جامعة" ديسمبر، 1999م، ص 10 فقد ذكر أنه انتقل إلى كولكاتا وعمره ست أو سبع سنوات. وراجع: مولانا أبو الكلام آزاد، شخصيت، سياست، بيغام، المجلس القومي لتطوير اللغة الأردية، 2000م، ص 149 ذكر فيه أن آزاد انتقل إلى كولكاتا 1897م وعمره تسع سنوات.

⁶ تذكره (تحقيق: مالك رام)، ساهتيه أكاديمي، دلهي، سنة الطبع لم تذكر، ص 37
أحمد شوقي

⁸ سنة الطبع لم تذكر، الأثيد بلبشرز، (تصوير الهند الجديدة)، The Shaping of Modern India، ص 86

⁹ من السجن للرياسة، دار العلوم للملايين، بيروت، 1959م، ص 242

¹⁰ India Wins Freedom, p. 8

¹¹ أحمد شوقي

¹² خطبات آزاد (تحقيق: مالك رام)، ساهتيه أكاديمي، دلهي، 2000م، ص 51

¹³ المصدر نفسه، ص 207-208

¹⁴ مولانا آزاد شخصيت اور كارنامي، ص 260

¹⁵ خطبات آزاد، ص 53-54

¹⁶ India wins Freedom. P. 7

¹⁷ خطبات آزاد، ص 300

¹⁸ المصدر نفسه، ص 205

¹⁹ الهلال، العدد: 9 لسبتمبر 1912م، ص 7-8

²⁰ مجلة "جامعة"، ديسمبر، 1999م، ص 174

²¹ خطبات آزاد، ص 299

²² المصدر نفسه، ص 97-98

مولانا أبو الكلام آزاد والتضامن القومي، دراسة تحليلية

²³ إمام الهند مولانا أبو الكلام آزاد، المجلس الهندي للعلاقات الثقافية، دلهي، سنة الطبع لم تذكر، 367/4

²⁴ المصدر نفسه، 16-17/ أبريل 1946م، ص 357

²⁵ مولانا أبو الكلام آزاد شخصيت اور كارنامي، ص 176-177

²⁶ India's Maulana Abul Kalam Azad، المجلس الهندي للعلاقات الثقافية، نيو دلهي، 1990م، ص 166

²⁷ India Wins Freedom, p. 27

²⁸ المصدر نفسه والصفحة ذاتها

²⁹ غبار خاطر، آزاد هند بيليشرز، سنة الطبع لم تذكر، ص 72

³⁰ خطبات آزاد، ص 298

³¹ المصدر نفسه، ص 340

³² ترجمان القرآن (تحقيق: مالك رام)، ساهتيه أكاديمي، دلهي، 1980م، 49/2

³³ المصدر نفسه، ص 140

³⁴ India's Maulana: Abul Kalam Azad, 2/213

³⁵ خطاب ألقاه يوم 28/ يناير 1952م، نقل هنا من إمام الهند مولانا أبو الكلام آزاد، ص 279

³⁶ خطاب ألقاه يوم 15/ فبراير 1958م، نقل هنا من إمام الهند مولانا أبو الكلام آزاد، ص 130-131

³⁷ كلمة "أبو" لم أخضعها لقواعد الإعراب لأن "أبو الكلام آزاد" استعمل كاسم للشخصية

³⁸ لم يعرف اسم الشاعر

³⁹ آزاديء هند (ترجمة: رئيس جعفري لاهوري)، حقق بك أكاديمي، 1959م، ص 132

عبقرية العلامة عبد الحي الفرنجي محلي

- د. محامد حسين*

إن العلامة الفرنجي محلي كان علماً من الأعلام الكبار وعبقرياً من عباقرة الإسلام، ولد ونشأ في عصر يُعد من أخطر العصور من حيث السياسة الملكية والاقتصادية والاجتماعية بالنسبة لأهل الهند عامة وبالنسبة للمسلمين الهنود خاصة، فإن وقعة "الثورة الهندية -1857م" وقعت في هذا العصر حينما كان العلامة الفرنجي محلي ابن عشرة أعوام، كان العلامة الفرنجي محلي كثير الشغل بالدراسة والمطالعة، دائم الاشتغال بالتعليم والتدريس، حتى أن الكتب الدراسية كلها كانت مستحضرة عن ظهر قلبه وجارية على لسانه بدون النظر إليها. ولم يكن عنده شئ أحب إليه من الاشتغال بالدراسة والمطالعة والتعليم والتدريس حتى آثره على مناصب إدارية عالية كي لا تعوقه منه علائقها.}

مما يدل على كرامة أية أمة ونباهتها ومقدرتها على احتفاظ وجودها في هذا العالم الفاني هو نبوغ العباقرة فيها في مختلف نواحي الحياة وميادينها المتشعبة وأصناف العلوم والفنون، والشعب الإسلامي في الهند من أغنى الشعوب في إنتاج نوابغ الرجال والعباقرة في ضروب الكمال الإنساني.

فلا يخفى على من يمعن النظر في تاريخ أمم العالم وحضارتها أن الهند هي من البلدان السعيدة التي أدركتها العناية الإلهية منذ بدء التاريخ الإنساني، وأضاءت أرضها بنور الإسلام في فجر تاريخه كما جذبت لها عدداً من أختيار العالم

* محاضر ضيف، كلية ذاكر حسين، جامعة دلهي.

عقربة العلامة عبد الحي الفرنجي محلي

الإسلامي من التجار والدعاة والغزاة والعلماء والصلحاء... ثم أنجبت بفضلهم جيلا ورجالا ذوي الهمة وعلو المرتبة أُعتبروا محاسن الدنيا ونجوم السماء ومفاخر الأرض كلها فضلا عن الهند فحسب.

ومن بين تلك الطوائف الخيرة والأسر العلمية المقدسة التي حالفتها العناية الإلهية وساققتها إلى الهند من خارجها واستخدمتها لها ولما جاورها استخداما كثيرا هي أسرة فرنجي محل. أما أسرة فرنجي فهي أسرة يرجع إليها فضل نشر العلوم الإسلامية والعقلية في الهند وفي ما جاورها بثلاثة قرون ماضية متوالية على طريق الإحسان والإيجاد حيث لا يضارعا أحد في العالم كله لا في الكيفية ولا في الكمية، وفيضها العلمي لم يحط بجميع شبه القارة الهندية وآسيا الشرقية فحسب بل بجميع العالم الإسلامي، فالتاريخ العلمي الهندي يشهد بأن في هذه الأسرة نشأ ونبغ - في كل جيل من أجيالها السالفة وفي كل عصر من عصورها الماضية - رجال نابغون في ميادين التدريس والتعليم وفي مجال التشريع والقضاء وفي سائر العلوم والفنون المتداولة بحيث قلما يوجد نظيرهم وعديلهم في الأسر والبيوتات العلمية الأخرى، وخليتها التي كانت أنسجتها أذهان عباقرتها الفذة والشجرة التي كانت غرستها الأيادي الكريمة لرجالها المخلصين هي لم تزل ولا تزال تعسل وتثمر وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها على مرّ العصور وكرّ الدهور.

ومن أعظم وأجل النبغاء العباقرّة الذين كانوا مفخرة فخمة لأسرة فرنجي محل ودررا متألّأة في سلكها المتين الطويل سماحة العلامة الجليل النبيل والمحقق المدقق النبيه عديم المثال في آفاق العلم والفضل ومنقطع النظر في سماء التحقيق والبحث أبو الحسنات محمد عبدالحى، وهو من آخر دررها النادرة أيضا حيث لا يرى في هذه الأسرة بعده عديله ومثيله.

مولده واسمه وكنيته:

ولد الشيخ عبد الحي الفرنجي محلي يوم الثلاثاء في السادس والعشرين من ذي القعدة عام أربعة وستين ومأتين وألف من الهجرة النبوية (26 - 11 - 1264هـ)

الموافق: الرابع والعشرين من تشرين الأول عام ثمانية وأربعين وثمانين مئة وألف من المسيحي (24 - 11 - 1848م) في بلدة "باندِه"¹ حيث كان هناك والده الكريم مدرسا في مدرسة النواب (الأمير) "ذو الفقار الدولة بهادر"² -رسمي بـ"عبد الحي" بعد ولادته بسبعة أيام، سماه به والده العلامة رحمه الله، و من الجدير بالذكر هنا أنه عندما سمع هذا الاسم بعض الظرفاء من أصدقاء والده قالوا له متفائلين به: سبحان الله! سميت ابنك بعد ما حذفنا من اسمك حرف النفي لأن يطول عمره ويحسن عمله، و يوقيه الله عن كل موارد المنكرات والمنهيات... ببركة اسم المضاف³!!.

ولما بلغ سن الرشد والتميز ظهر فيه النبوغ المبكر الذي كان يبشر له بمستقبل مشرق، وأدرك فيه والده الكريم المربي العطوف من صفات حميدة وعادات حسنة... فكانه متفائلا باليمن والسعادة - "أبا الحسنات".

وفيما بعد أضاف الإمام بنفسه إلى اسمه الكريم كلمة "محمد" تقدسا وتيمنا باسم النبي صلى الله عليه وسلم. وهذا هو دأب شائع بين المسلمين في بلاد الهند من الزمن القديم، لذلك نجد في بقايا آثاره - رحمه الله - من خواتمه وتوقيعاته وفي أكثر كتبه اسمه الكامل هكذا "أبوالحسنات محمد عبدالحي"⁴.

ومن الملاحظ هنا أن بعض مترجميه قد أخطأوا في ضبط سنة ولادته واسمه ونسبه أيضا، فالأستاذ أَلطاف الرحمان ذكر أنه ولد في سنة 1265هـ⁵، وكذلك الأستاذ فصيح الله سطر هذه السنة نفسها لولادته، ونظم لضبط هذا التاريخ- وفقا لحساب الجمل الأبجدية - قطعة من البيت في اللغة الفارسية، فقال: "م ر افلاك حشمت و إقبال" (م ر = 245 + افلاك = 132 + حشمت = 748 + و = 6 + إقبال = 134، الحاصل: 1265هـ)⁶.

وكذلك وقع بعض الباحثين في مثل هذا الخطأ حين ذكروا اسمه أو نسبوا إليه بعض مؤلفاته، فقد أخطأ في هذا الصدد المجهز لـ"فهرس الكتب الموجودة بالمكتبة الأزهرية" في مجلده الثاني، حيث أنه ذكر اسمه "محمد بن عبد الحي" أو "أبالحسنات محمد بن عبد الحليم" فقال في صفحة 121 من الكتاب المذكور: "تدوير

عقربة العلامة عبد الحي الفرنجي محلي

الفلك في حصول الجماعة بالجن والمَلَك" تأليف الشيخ محمد بن عبد الحي اللكهنوي" وفي صفحة 129 من ذلك: "النافع الكبير لمن يطالع الجامع الصغير" للشيخ محمد بن عبد الحي اللكهنوي، وفي صفحة 239 منه: "القول الجازم في سقوط الحد بنكاح المحارم" تأليف أبي الحسنات محمد بن عبد الحلیم اللكهنوي الأنصاري من علماء القرن الحادي عشر الهجري، فإنه أخطأ أيضا هنا في ذكر القرن الذي تمتع فيه - رحمه الله - بحياته، وفي صفحته 296: "الهسة في نقض الوضوء بالفقهة" تأليف أبي الحسنات محمد بن عبد الحي بن عبد الحلیم اللكهنوي المتوفى سنة 1304هـ⁷.

وكذلك أخطأ من أعد "فهرس الكتب العربية الموجودة بدار الكتب المصرية" في صفحته: 76 من مجلده الأول (حيث أنه ذكر: "ظفر الأمانى في مختصر الجرجاني" تأليف الشيخ محمد بن عبد الحي اللكنوي)، وفي صفحته: 94 من المجلد نفسه (حيث أنه ذكر: "تحفة الأخيار في إحياء سنة سيد الأبرار" تأليف الشيخ محمد بن عبد الحي اللكنوي) وفي صفحته: 262 من مجلده الثامن (حيث أنه ذكر "النافع الكبير لمن يطالع الجامع الصغير" هي مقدمة لأبي الحسنات عبد الحي بن محمد بن عبد الحلیم بن أحمد أبي الرحم ابن محمد بن يعقوب⁸). وهكذا أخطأ صاحب "إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون" في صفحته: 581 من مجلده الأول (حيث أنه ذكر: "الرفع والتكميل في الجرح والتعديل" تأليف محمد ابن عبد الحي بن محمد بن محمد عبد الحلیم اللكنوي الهندي المتوفى سنة 1304هـ⁹).

وأما الأستاذ عمر رضا كحالة فقد وقع في زلة فاحشة مضللة وذهب إلى بعيد عن الحق المضبوط حتى لا يمكن إدراكه إلا لمن له علم واف به حيث أنه كتب عند ما ذكر ترجمته: "محمد بن محمد بن عبد الكريم بن أحمد بن محمد بن يعقوب اللكنوي الأنصاري الهندي، محدث، مؤرخ، فقيه، من مؤلفاته: الأنوار المرفوعة في

الأخبار الموضوعة...¹⁰ فإنه أخطأ في ذكر اسمه واسم أبيه واسم جده الأول والثاني والثالث وكذلك في ضبط اسم مؤلفه المذكور¹¹ أيضا.

مع أن العلامة عبد الحي الفرنجي محلي قد ذكر نفسه تاريخ ولادته وقصة تسميته في أكثر كتبه أوائلها أو خواتمها قائلا هكذا: "أنا العبد الراجي رحمة ربه القوي، كنيته أبو الحسنات، كناني به والدي بعد بلوغي، واسمي عبدالحى، تجاوز الله عن ذنبي الخفي والجلي، سماني به والدي في اليوم السابع من ولادتي، وقد ولدت في بلدة "بانده" حين كان والدي مدرسا بها في مدرسة النواب ذي الفقار الدولة في السادس والعشرين من ذي القعدة يوم الثلاثاء من السنة الرابعة والسنتين بعد الألف والمائتين.¹²"

نسبته

يقال له: "الأنصاري" أو "الأيوبي" لكونه من قبيلة الأنصار، تنتهي سلسلة نسبه بنحو ثلاث و أربعين واسطة إلى سيدنا أبي أيوب (خالد بن زيد بن كليب) الأنصاري - رضي الله عنه - وهو صحابي شهير معروف في التاريخ الإسلامي بمضيف الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة.

ويقال له: "اللكهنوي" نسبة إلى مدينة "لكهنؤ" (Lucknow) التي هي موطنه الأيوبي والجدى، وهي الآن عاصمة لولاية أترپردیش Uttarapradesh (الإقليم الشمالي للهند) من الهند، كما هي كانت دار الإمارة لإقليم "أوده" قبل استقلال الهند، وهي منذ القديم مركز تجاري وصناعي، ولها تاريخ مجيد في روايات العلم والحضارة والثقافة.

ويقال له: "الفرنجي محلي" نسبة إلى "فرنجي محل" (قصر للإفرنج) حصلت له هذه النسبة كابرا عن كابر من أجداده لاتخاذهم إياه مسكنا لهم، و فرنجي محل هو الآن حي من أحياء مدينة لكهنؤ، وفي القديم كان قصرا بالاسم المذكور.

وقد يعرف بحنفي نسبة إلى الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت بسبب اختياره مسلّكه، اختار العلامة عبد الحي الفرنجي محلي هذا الاسم لنفسه قصدا - مع أنه

عقربة العلامة عبد الحي الفرنجي محلي

كان متوسعا في المسلك، وقد خالف الأحناف في بعض الأصول - وذلك ردا على من كان ينكر من العلماء في زمانه مثل ذلك النسب ويصرون على ذلك قائلين - بلا دليل - إنه مظهر من مظاهر الشرك، فأراد - رحمه الله - على سبيل ذلك تفنيد زعمهم الكاذب، ولقد سطر عن ذلك ملاحظات بليغة، فقال: "ينسب به (بذلك الاسم المنسوب) لمن يتمذهب بمذهبه، ويسلك مسلكه، كالشافعي لمن يختار أقوال محمد بن إدريس الشافعي، والمالكي لمن يقلد الإمام مالك الأصبحي، والحنبلي لمن تتبع الإمام أحمد بن حنبل البغدادي، والظاهري لمن يقلد داود الظاهري، وهذه النسب وأمثالها قد شاعت في المتقدمين والمتأخرين، وسطرت في زير من غير نكير وامتراء في جوازها ومن غير اشتباه في صحة إطلاقها، والعجب كل العجب ممن يستكره إطلاقها ويتنفر عن الانتساب بها، وأعجب منه جعله شركا أو مكروها وممنوعا من غير حجة و دليل، ولو كان مظنونا، وقد قلت لبعضهم: لو كان ممنوعا أو شركا لكان الانتساب إلى البلاد كالمدراسي والدهلوي واللكهنوي أيضا ممنوعا وشركا، مع أنه لا قائل به، ولما جاز ذلك جاز هذا أيضا، فبهت ولم يُبدِ شيئا"¹³.

وقد يضاف إلى مستهل اسمه بعض ألقاب علمية، أعطاه إياها أهل عصره ومن جاء بعده من العلماء لما وجدوا فيه من مؤهلات علمية وافرة وصفات نابغة سامية، وشأن عظيم فائق وقبول عام بين العامة والخاصة على حد سواء في دنيا العلم والمعرفة والتحقيق، فمن تلك الألقاب التي كانوا أطلقوها عليه مع توقيير و تقدير و تحبيب هي: "المولوي" أو "مولانا" وبعض الأحيان "العلامة" و"الإمام" وغيرها.

نشأته

نشأ هذا الطفل الفريد الوحيد في حجر أبويه الكريمين الفاضلين،¹⁴ ورضع منهما الدين والعلم والصلاح عملا وسلوكا منذ أول أيامه، ونما في أسرة¹⁵ علمية عريقة ذات فضائل دينية ومظاهر أدبية كان له جميع أفرادها بمثابة دوحة علمية، وخليّة نشطة للعلم والمعرفة، وبما أنه كان ولدا وحيدا فريدا لأبويه بالطبع كانا يحبانه

حبا جما، فريباه تربية حسنة ورعياه رعاية فائقة، ولما بلغ مبلغ الشعور والإدراك كثر حرصهما في إرشاده وتوجيهه إلى ما ينفعه في الدنيا والآخرة، فكانا دائما يحثانه على العمل الصالح و اكتساب العلم النافع، وكذلك يرغبانه في اجتناب الرذائل والقبائح، فما كانا يسمحان له بأن يلعب في الشوارع والأزقة لكي لا تتسرب إليه العادات القبيحة، بل كانا يجعلانه يلعب مع أولاد الصلحاء الذين كانت لهم صفات طيبة، وكان والده الكريم العلام يلزمه في معظم الأوقات، فكثيرا ما كان يشجعه ويشوقه إلى الأعمال الصالحة، كما كان يذهب به منذ صغره إلى جلساته ومحاضراته العلمية، لكي يتعلم العادات الطيبة وتسمع أذنه اللغة الفصيحة ويصون لسانه من الكلمات السوقية، فإلى ذلك يشير العلامة عبد الحي نفسه متحدثا عن شخصيته الكريمة وتوجيهه له: " ... وكان شفيقا رحيفا وبمقتضى اسمه حليما ... علمني ما ينفعني في ديني ودنياي¹⁶".

هذا، وقد هيأت له أيضا اليد الربانية بيئة رائقة وظروفا ملائمة، لا يتيسر مثل ذلك إلا للفلائل التي يريد الله بها خيرا، فشاء الله رب الكائنات وما فيها أن ينشأ ويترعرع في حمى النوابين و الأمراء الذين كانوا محبي العلم والعلماء، فمنذ نعومة أظفاره كان يشاهد هذا الطفل الناشئ في ما حوله القصور والبساتين والحدائق الواسعة والمراتع الخصبة وكثيرا ما كان يتمتع بها من التسهيلات والنعم الأخرى. فنشأ هذا الطفل الذكي الفطين بين مسارج الجمال والجلال والظروف الملائمة والبيئات الرائقة، ملء الصدر ببسر وغبطة، مغمور النفس والقلب بمشاعر السعادة والرضا، على أفق واسع وخيال متين ونظرة رحبة تنفرج لفكر دقيق نير في المستقبل وتحمل الأفكار العميقة والنظريات الدقيقة الطريفة، فهذه هي التي جعلته فيما بعد حافلا زاخرا بفضائل الأخلاق والشيم الكريمة، فعالا نشيطا بالعلم والعمل إلى مبلغ عيي عنه لاحقوه وسابقوه ومن جاء بعده من العلماء البارزين.

ولقد آتاه الله حظا وافرا من المواهب التي جعلته في الذروة الأولى بين قادة الفكر والعلم وحملة لواء التحقيق والحياد ... فكان الشيخ بالفطرة غاية في الذكاء

عقربة العلامة عبد الحي الفرنجي محلي

والفطنة وسيلان الذهن، بعيد المدى في الفهم وقوة الحفظ، حتى قال عن نفسه وهو في (في نهاية الثلاثينات من عمره): "من منح ربي أنني رزقت قوة الحفظ من زمن الصبا، حتى إنني أحفظ كالعيان جميع وقائع تقريب قراءة الفاتحة حين كان عمري خمس سنين، بل أحفظ ضربة وقعت بي حين كان عمري ثلاث سنين تقريبا"¹⁷.

دراسته الابتدائية

اشتغل بالعلم منذ باكورة عمره، فحصل مبادئ العلم في أحضان أبيه الكريمين أثناء نعومته أظفاره، وعندما بلغ الخامسة من عمره تفرس فيه والده الماجد الكريم النبوغ، فعهد به إلى الحافظ قاسم علي اللكهنوي ليعلمه القرآن الكريم، فبدأ القراءة عليه القرآن الكريم حفظاً من سورة "عم يتساءلون"، ولكنه لم يتم هذا الجزء إلا أن أرسل رئيسُ جونفور الحاج محمد إمام بخش إلى والده العلام ليتولى عنده مسؤولية التدريس في مدرسته (المدرسة الإمامية الحنفية)، فذهب به إليه، فتلمذ هناك على الحافظ إبراهيم - رحمه الله - من سكان مملكة الفورب، وكان والده أيضاً يدرسه القرآن، وبما كان - رحمه الله - غاية من الذكاء والفطنة وقوة الحفظ والإدراك فرغ من حفظه بكل اتقان وإحكام حتى استطاع أن يصلي بالناس إماماً في التراويح، وهو حديث السن ما كان يتجاوز عشرين من عمره.

وفي هذه الأثناء تعلم أيضاً الخط والإنشاء والحساب وبعض مبادئ الكتب الفارسية - التي كانت لغة رسمية ولغة العلم والثقافة آنذاك - على يد والده العلام وعلى أرشد تلامذته ورفيقه المولوي خادم حسين المظفرپوري العظيم آبادي.

ومن الجدير بالذكر هنا أن قول الأستاذ الدكتور يونس النجرامي الندوي من "أن صاحب "تذكرة علماء هند" كتب أن الشيخ عبد الحي أكمل بحفظ القرآن الكريم في السنة الحادية عشرة من عمره"¹⁸ ليس بصحيح. لقد حققت ذلك في الكتاب: "تذكرة علماء هند" للأستاذ رحمان علي فوجدت فيه قول الأستاذ رحمان علي بهذا الصدد مذكوراً هكذا: اشتغل (الشيخ عبد الحي الفرنجي محلي) بحفظ القرآن الكريم في الخامسة من عمره، وفي العاشرة من عمره فرغ منه وصلى بالناس إماماً في

صلوات التراويح أول مرة في المسجد الجامع بجونفور، ثم شرع بتحصيل العلوم المروجة في الحادية عشرة من عمره على يد والده¹⁹.

تحصيله العلوم المتداولة

بعد الفراغ من حفظ القرآن الكريم مال هذا الغلام النشء إلى العلوم والفنون لدى حضرة أبيه العلام، فاغترف وعب منه كثيراً، وأكثر تحت إشرافه من المطالعة والمراجعة والممارسة متواصلاً حتى اتسع أفق معلوماته وحصل له من العلوم والفنون السائرة في عصره حظاً وافراً، وتخرج من جميعها على يد أبيه الكريم في السابعة عشرة من عمره في حين كان معه في "المدرسة النظامية" بحيدر آباد.

قضى - رحمه الله - من هذه الفترة الدراسية نحو تسع سنين في المدرسة الإمامية الحنفية بجونفور (حين كان والده العلام مدرساً فيها)، وسنة واحدة في وطنه العزيز (حين كان والده مقيماً به بعد مغادرة المدرسة المذكورة وذلك سنة 1276هـ)، وحوالي سنتين في المدرسة النظامية بحيدر آباد (حين كان والده مدرساً فيها وذلك من سنة 1277هـ إلى آخر المدة).

ومن العلوم والمعارف التي تزود بها في هذه الفترة هي العلوم العربية من نحو وصرف ومعان وبيان وأدب وإنشاء وغيرها، ومن العلوم الشريعة من تفسير وحديث وفقه وأصول فقه وكلام ومناظرة، والعلوم العقلية المعروفة في عصره من منطق وحكمة وطب ورياضيات (علم حساب) وغيرها، وذلك كله وفقاً للمنهج الدراسي النظامي الذي كان شائعاً آنذاك²⁰.

وعن ذلك قال العلامة عبد الحي نفسه في مواضع شتى، فهو يقول في "التعليق الممجد على مؤطأ الإمام محمد": "ثم شرعت على حضرة الوالد في تحصيل العلوم، ففرغت من تحصيلها منقولاً ومعقولاً حين كان عمري سبع عشرة سنة، ولم أقرأ شيئاً من كتب العلوم على غيره إلا كتباً عديدة من العلوم الرياضية، قرأتها على خال والدي وأستاذه مولانا محمد نعمت الله ابن مولانا نورالله المرحوم"²¹.

عقربة العلامة عبد الحي الفرنجي محلي

وقال في "النافع الكبير لمن يطالع الجامع الصغير": "ومن بدء السنة الحادية عشر شرعت في تحصيل العلوم، ففرغت من قراءة الكتب الدراسية في الفنون الرسمية: الصرف، والنحو، والمعاني، والبيان، والمنطق، والحكمة، والطب، والفقه، وأصول الفقه، وعلم الكلام، والحديث، والتفسير، وغير ذلك حين كان عمري سبع عشرة سنة، مع فترات وقعت في أثناء التحصيل، وطفرات واقعة في أوان التكميل"²².

وقال فيه أيضا: "... إلا أن علم الرياضي لم أقرأه على حضرة أستاذ إلا شيئا من التشریح، وشرح الجغميني، تشرفت بملازمة إمام الرياضيين مقدم المحققين خال والدي وأستاذه مولانا محمد نعمت الله المتوفى سنة التسعين فقرأت عليه في سنة ثمان وثمانين "شرح الجغميني" مع مواضع من "حواشي البرجندي" وإمام الدين الرياضي، والفصيح وغيرها عليه، و"رسالة الأسطرلاب" للطوسي، وقدر كثيرا من "شرح التذكرة" للسيد، وشرحها للخفري وشرحها للبرجندي، و"التحفة" و"زيج ألغ بيك" مع "شرح البرجندي" و"رسائل الأكر والتسطيح" وغير ذلك، مع تحقيق تام بحيث كان مولانا الممدوح يثني علي كثيرا بين أحبابه"²³.

اشتغاله بالتدريس والتأليف

اشتغل الإمام الفرنجي محلي في الممارسة بالتدريس والتأليف مع اشتغاله في الدرس والتحصيل، واستمر على ذلك طول حياته بكل جد وجهد، فقد ساعدته في ذلك كثيرا مواهبه الفطرية من نكاه متوقد وقوة فهم سريع وشوق صادق في الجهد المتواصل والظروف التي عاش فيها من معاشرة مدرسية في وسط ثقافي رفيع ممن كانوا حول أبيه وهم ليسوا إلا علماء وأدباء وصلحاء وفقهاء تلامذة وأساتذة، وبالإضافة إلى ذلك أنه منح من عند الله فرص متفرغة واسعة للعلم والتحصيل والدرس والتدريس، فهو لم يكن يدرس أي كتاب إلا وهو كان يمارس فيه بعد الفراغ منه تدريسا بين الطلاب الذين كانوا حول أبيه العلام.

وإلى جانب ذلك كان يكتب في نفس الوقت تعليقات وحواشي على بعض الكتب التي كان يتابعها درسا و تدريسا حسب إرشاد والده القويم وتوجيهاته

النافعة²⁴، فبذلك حصلت له براعة ودقة ومقدرة تامة على سائر العلوم والفنون التي زاولها وجربها وفتح الله عليه أسرارها وأصدافها وسهل له مجالات التحقيق والتدقيق فيها إلى مستوى محمود، حتى استطاع أن يدرس بعض الكتب التي لم يقرأها على حضرة أستاذ. فعن ذلك يقول العلامة نفسه متحدثاً بنعمة الله عليه: "وقد ألقى الله في قلبي من عنفوان الشباب بل من زمان الصبا محبة التدريس والتأليف، فلم أقرأ كتاباً إلا درّسته بعده"²⁵. ويقول في موضع آخر: "كلما فرغت من تحصيل كتاب شرعت في تدريسه فحصل لي الاستعداد التام في جميع العلوم بعون الله الحي القيوم، ولم يبق عليّ تعسر أيّ كتاب كان من أيّ فن كان، حتى أني درست مالم أقرأه على حضرة الأستاذ كـ "شرح الإشارات" للطوسي و "الأفق المبين" و "قانون الطب" و رسائل العروض وغير ذلك، ورضيت من درسي طلبية العلوم"²⁶.

وبعد الفراغ من التحصيل وقف نفسه كلياً مع الإخلاص وانسراح الصدر لخدمة الدين ونشر العلم، فبذل حياته كلها مشغولاً بالدراسة والتدريس والتحقيق والتصنيف، حتى أثر ذلك على بعض مناصب عالية في أمور الدنيا، فإنه - رحمه الله - لما توفي والده الكريم الذي كان ناظماً للمحكمة العالية في مدينة "حيدرآباد"، ألح عليه أصحاب الأمور والشؤون والأحباء المخلصون لقبول منصب أبيه، فأبى قائلاً: إن ذلك يعقوني عن التدريس والتأليف وخدمة العلم والدين، وكان دائماً على هذا التوفيق شاكرًا لله تعالى مع أن الأرزاق لا تكون تأتي في نصيبه إلا قدراً مقدوراً، وقد ذكر تلك القصة في ترجمته الذاتية مفتخراً وشاكراً لله تعالى على هذا الصنع، فقال:

"ومن منحه تعالى عليّ أنه ألقى محبة العلم في قلبي، وأخرج ألفة أمور الرياسة مني، حتى إن الوالد العلام - أدخله الله في دارالسلام - لما توفي في حيدر آباد من مملكة الدكن، وكان ناظماً للعدالة، أصر مني جميع الأحباب إيثار عهدة القضاء ففتفرت منها ظناً مني أن إيثاره مع ما فيه من خطر الحساب يعوقني عن الاشتغال بالتدريس والتصنيف، ففتنعت باليسير وتركت الكثير، والله على ما نقول شهيد"²⁷.

عقربة العلامة عبد الحي الفرنجي محلي

وقد رزقه الله ذوقا علميا سليما وشوقا دراسيا نادرا فكان يجد في نفسه في الاشتغال بالدراسة والتدريس والتصنيف حلاوة ولذة، لذلك نراه كثير الشغل بالدراسة والمطالعة، دائم الاشتغال بالتعليم والتدريس، حتى يقال فيه إن الكتب الدراسية كلها كانت مستحضرة عن ظهر قلبه وجارية على لسانه بدون النظر إليها، وهذا هو الشيخ محمد حفيظ الله من أرشد وأقرب تلاميذه يشهد بذلك قائلا: "كان حافظا بالكتب الدراسية فلا يزال درسه من غير النظر إلى الكتب إلا في كتب الحديث، فإنها كانت عنده وهو ينظر ويسمعها، وتطبيقه بين الخبرين المتناقضين كان بصورة أعجب مما تراه من غيره"²⁸.

ومن العلوم التي كانت أحب إليه درسا وتديسا هي : علم الحديث وما يتعلق به، فإلى ذلك يشير نفسه قائلا: "ومن منحه تعالى أني رزقت الاشتغال بالمنقول أكثر من الاشتغال بالمعقول، وما أجد في تدريس المنقول والتصنيف فيه لاسيما في الحديث وفقه الحديث من لذة وسرور لأجده في غيره"²⁹.

سفره إلى الحجاز للحج والاستفادة من علمائها

لقد شرفه الله تبارك وتعالى بزيارة الحرمين الشريفين مرتين، مرة في 1279هـ مع والده الكريم حين كان يتمتع بالربيع الخامس عشر من عمره، ومرة ثانية في 1292هـ بمفرد نفسه، فتشرف في كل مرة بأداء مناسك الحج وزيارة الحرمين، ومكث هناك عدة شهور، قضاها مطفئا حُمم أمانيه وشدة شوقه بعبادة الله وحده في الحرم المكي والمسجد النبوي - صلى الله عليه وسلم - متضرعا مبتهلا إلى الله، كما جمع في هاتين الحجّتين الشيء الكثير من الفوائد العلمية من علماء الحرمين الشريفين، واقتنى كثيرا من الكتب النادرة المخطوطة والمطبوعة من البلاد التي مر بها في السفر ذهابا وإيابا. وقد سطر العلامة الفرنجي محلي قصة هذه الأسفار المباركة في سيرته الذاتية شاكرا لله تعالى على هذا التوفيق السعيد وسائلا منه أن يرزقه هذا التوفيق السعيد مرارا وتكرارا، هو يقول بنفسه متحدثا عن ذلك في "الفوائد البهية في تراجم الحنفية مع التعليقات السننية عليها":

"رزقت حج البيت الحرام وزيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام مرتين، مرّة مع الوالد المرحوم سنة 1279هـ، سافرنا في رجب من حيدرآباد، وركبنا المركب الهوائي (السفينة الشراعية) من بمبئ في شعبان، ووصلنا غرة رمضان إلى "الحديده" وأقمنا هناك عشرة أيام، واشترى الوالد المرحوم من هناك الكتب النفيسة، ثم ارتحلنا منها، وخالفت الهواء، ووقع المركب في الطوفان، فلم يمكن النزول في جدّة بل نزلنا في "ليس" وارتحلنا منه براً في أربعة أيام إلى مكة، حتّى دخلنا فيها في آخر العشرة من رمضان، وأقمنا هناك إلى أداء الحجّ، ثم ذهبنا في العشرة الأخيرة من ذي الحجة إلى المدينة الطيبة، ووصلنا ثاني المحرم (1280هـ)، وأقمنا هناك ثمانية أيام، ثم سافرنا في يوم عاشوراء، ودخلنا مكة، وأقمنا هناك إلى عاشر صفر، ثم ارتحلنا إلى جدّة وركبنا المركب الهوائي، فوصلنا في بمبئ في العشرة الوسطى من ربيع الأول، ووصلنا في حيدرآباد في أوائل جمادى الأولى ومرّة أخرى في السنّة الماضية (1292هـ) سافرنا إلى حيدر آباد خامس عشر شوال، وركبنا المركب الدخاني في الحادي والعشرين، ودخلنا جدّة في خامس ذي القعدة، ومكة في عاشرها، وبعد أداء الحجّ وكان يوم الجمعة سافرنا إلى المدينة في الحادي والعشرين من ذي الحجة، ووصلناها في خامس المحرم، وأقمنا هناك عشرة أيام، ثم ارتحلنا منها إلى مكة في خامس عشر، وبعد دخول مكة أقمنا أياماً قليلة وسافرنا إلى جدّة، وركبنا المركب ثامن صفر، ووصل المركب مع السّلامة إلى بمبئ في الحادي والعشرين، وقد كنت ترخّصت من حيدر آباد للقيام بالوطن قدر سنتين فارتحلت من بمبئ، ودخلت إلى الوطن خامس ربيع الأول، وأرجو من الله تعالى أن يرزقنا العود إلى الحرمين مرّة بعد مرّة، إلى أن يرزقنا الوفاة في المدينة"³⁰.

ومن الجدير بالذكر هنا أن العلامة عبد الحي الحسني قد أخطأ في ضبط السنّة التي تشرف فيها الشيخ بأداء مناسك الحج في المرّة الثانية حيث أنه قال: "وقفه الله سبحانه وتعالى للحج والزيارة مرتين: مرة في سنة تسع وسبعين مع والده، ومرّة في سنة ثلاث وتسعين بعد وفاته"³¹، وكذلك وقع الأستاذ الدكتور يونس

عقربة العلامة عبد الحي الفرنجي محلي

النجرامي الندوي في الخطأ، ولم يستطع أن يقول قولاً صائباً عند ما تتبع أحوال حياة العلامة عبد الحي الفرنجي محلي بل مضى قائلاً: "على ما ذكره صاحب "نزهة الخواطر" تشرف العلامة بسفر الحج مرتين ففي المرة الأولى تشرف به في سنة 1279هـ، وفي المرة الثانية تشرف به في 1293هـ. و الأقوال في تاريخ المرة الثانية تختلف، فصاحب "نزهة الخواطر" يذكر ذلك في سنة 1293هـ، ومؤلف "تذكرة علماء ند" (التذكرة عن العلماء الهنود) يذكر سنة 1296هـ، ومصنف "كنز البركات في ترجمة أبي الحسنات" يذكر 1292هـ).

لقد راجعت (الباحث) بنفسه هذه المصادر فوجدت في "تذكرة علماء ند" (التذكرة عن العلماء الهنود) قولاً مختلفاً عن ما كتبه الأستاذ الدكتور يونس النجرامي الندوي في هذا الخصوص، وإنما وكله المؤلف فيه في هذا الصدد هو: "تشرف بزيارة الحرمين الشريفين - زادهما الله عظمة وشرفاً - مرتين، مرة في 1279هـ مع والده الكريم، ومرة ثانية في 1292هـ"³²

واغتنم العلامة فرصة بقاءه في تلك الأرض المقدسة ومهبط الوحي والأنوار، فلقى في أثناء ذلك عدداً من أكابر العلماء والصلحاء وأخيار الحجاز والبلاد الإسلامية الأخرى للاستفادة والإفادة، فصحبهم وشارك معهم في المجالس والمحافل العلمية، وتكلم وناقش معهم في الموضوعات العلمية الدقيقة ففاز في غالبها بالحق وأفحم الكبار بالأدلة والبراهين وأتى بما تحير منه أعيان العلم والفضل، فأعجبوا بسعة اطلاعه واستقامة فكره وحسن بيانه وتطبيق كلامه وأقروا له بكونه بحراً علمياً متلماً، واعترفوا بعظمته وفضله في حل المسائل الدقيقة للدين والإسلام، وارتسمت له على قلوبهم منزلة سامية، تشهد بذلك إجازاتهم العلمية التي منحوها إياه.

زواجه وسلالته

ولما اكتملت أمنيات والده الكريم التليدة من سعادة الحج وزيارة الحرمين الشريفين ومن فراغ ولده الفريد البار من التحصيل توجه إلى تحصين حياة ولده وإراحة باله واسطيانه نفسه بعقد القران، وذلك حين كان هو في سن شباب مبكر

لا يتجاوز التاسعة عشرة من عمره، لكي يستقر دينه وأخلاقه ويتمتع ببركته ومنافعه ولكي تكون حياته متبعة لأوامر الله ورسوله ومحتذية لهدى مرسله السائرين، فلأجل هذا العمل الجليل حصل على الإجازة من المحكمة العدلية العالية النظامية في جمادي الثانية سنة 1283هـ وجاء مع أهله وعياله وابنه - وهو كان يدرس أيضا بعد الفراغ من التحصيل في المدرسة النظامية - إلى وطنه "لكهنؤ" لكي يقوم بعقد قران ابنه العزيز في حضرة أقاربه وأحبائه، وتم ذلك العقد المبارك في نفس السنة مع ابنة عمه المولوي الحافظ محمد مهدي بن مولانا يوسف. يقول العلامة بنفسه في هذا الخصوص: "وفي الجمادي الآخرة سنة 1283هـ ترخص (والدي) من المدار المهام، وسافر معنا إلى الوطن الأصلي، فأقام هناك سنة واحدة، وفرغ من عقد نكاحي مع بنت عمي المولوي الحافظ محمد مهدي بن مولانا محمد يوسف مدظله العالي"³³.

عقب هذا الزواج رزقه الله تعالى أولادا عديدين، ولكنه تبارك وتعالى ما أراد أن يحيوا، فكلهم ماتوا في حياته إلا بنتا واحدة، نشأت وترتت في أحضان العلم والأدب تحت إشراف والديها الكريمين، تزوجها فيما بعد ابن خالها المألاً محمداً يوسف، فانطلقت منهما سلالة وجيله.

مغادرته المدرسة النظامية وإقامته في لكهنؤ

بعد الفراغ من عقد الزواج عاد هو ووالده الكريم من وطنه العزيز إلى حيدر آباد في شهر شعبان من سنة 1284هـ ليتوليا مناصبهما التي كانا يقومان بمسئولياتها، ويستأنفا أشغالهما من الإفادة والتدريس والتأليف والتصنيف... وغيرها، وظلا يستمران بهذه المهام بكل حسن وجودة إذ وافت المنية والده بعد ما قضى عدة شهور في حالة المرض وذلك في 29 شعبان المعظم من سنة 1285هـ.

ومن الجدير بالذكر هنا أن والده - رحمه الله - منحه الإجازة العلمية بعدما طلبها منه قبل أيام بوفاته كما هو بايعه على يده حينذاك، إلى ذلك يشير العلامة الفرنجي محلي - رحمه الله - قائلا: " ثم ودع - رحمه الله - هذا العبد، وأوصاني بما ينفع ديني وإيماني، جزاه الله عني وعن جميع المسلمين... وطلبت منه أن

عقربة العلامة عبد الحي الفرنجي محلي

يجيزني بما أجاز به شيوخه، فأجابني، وكتب لي ورقة إجازة بهذه العبارة: "... فقد قرأ مني ولدي ورقة عيني المولوي الحافظ الحاج أبو الحسنات محمد عبد الحي، جعله الله من ناشري الشرع المبين، وأيده بالأيد المتين، جميع العلوم العقلية والنقلية، وطلب مني أن أجزه بكل ما يجوز لي روايته ودرايته من كتب المعقول والمنقول، والفروع والأصول... إلخ. وكان ذلك في يوم الأربعاء، ثالث شهر شعبان، من شهر سنة 1285هـ³⁴.

إيثاره خدمة العلم والدين على المناصب العالية

بعد وفاة أبيه المرحوم شغل منصب القضاء في المحكمة العدلية، فبما أن الحكومة قد وجدت في العلامة الفرنجي محلي مقدرة تامة على العلوم وسعة كافية في الثقافة أرادت أن تسند إليه ذلك المنصب، ولكن العلامة الفرنجي محلي لم يقبل هذا المنصب مع أن الأمير وأصحاب الأمور وأحباؤه ألحوا عليه إلحاحا كثيرا كما أسلفت الذكر عن ذلك، والسبب كان من وراء ذلك رغبته الملحة في الدراسة والمطالعة وشغفه بخدمة العلم والدين عن طريق التدريس والتأليف والتصنيف بجعل نفسه مستقلا متفرغا عن كل مسؤولية خارجية، فكانه أبي قائلا بلسان حاله:

ما تطعمت لذة العيش حتى صرت للبيت والكتاب جليسا
ليس شيء أعز عندي من الطلباء، فلم أبتغي سواهم أنيسا
إنما الذل في مخالطة الأمراء، فدعهم، وعش عزيزا رئيسا

هذا هو ما يتفق عليه تلميذه الرشيد المولوي محمد عبد الباقي قائلا: "لما توفي والده الناظم للعدالة العالية ببلدة حيدرآباد المحمية، فمع إصرار الأحباب لم يقبل عهدة القضاء واعتذر، وتجنب عن متاع الدنيا الدنيئة وتفرغ، واكتفى بالقليل دون الكثير متوكلا على ميسر كل العسير كيلا تعوق علائقها من الاشتغال بالتصنيف والتدريس والإنهماك في العلوم والتحقيق والتدقيق والترصيص"³⁵.

ثم لم يزل يقيم في المدرسة النظامية مشتغلا بالتدريس والإفادة وبإذلا جهوده في التأليف والتصنيف، إذ نزعت نفسه إلى زيارة الحرمين الشريفين مرة ثانية فطلب الإذن من الأمير للحج وللقيام في الوطن لمدة سنتين، فتشرف بالحج الثاني ثم عاد إلى وطنه العزيز في ربيع الأول سنة 1292هـ.

وما إن حل ونزل في وطنه العزيز ببلدة لكهنؤ حتى اجتمع حوله جماعة من العلماء والفضلاء، ووفد إليه الناس من كل حدب وصوب للاستفادة والأخذ عنه وحضر لديه الطلاب من أطراف البلاد لتلقي العلوم والمعارف والاستفادة من فيوضه وثقافته، فما ان لبث حتى عَجَّ فرنجي محل بالعلماء والطلبة المشتغلين بالدراسة والتحصيل، فبذلك وجد العلامة في نفس وطنه مجالا أوسع وجوا أهدأ وبيئة أصلح للاشتغال بالتدريس والإنهماك في التأليف والتصنيف والتحقيق مما كان يجده في المدرسة النظامية بحيدرآباد، فلم تستقر إرادته للعود إلى حيدرآباد، فلأجل ذلك أخذ من الولاة الإذن لطول حياته، وأقام بقية حياته ببلدته العزيزة بإذلا جهوده المضنية في خدمة العلم والدين تدريسا وتأليفا وتحقيقا، وما توجهت رغبته إلى أي شئ لا إلى أية وظيفة ولا إلى أية تجارة، بل اقتنع حتى آواخر أيام حياته بالمخصصات التي أجريت له من عند أمير حيدرآباد، وهي ما كانت إلا مأتين وخمسين روبية شهريا، يقول الشيخ قيام الدين عبد الباري الفرنجي محلي في هذا الصدد: "وأقام في الوطن يدرس ويفيد ويصنف ويفتي..."³⁶ ويؤيده العلامة عبد الحي الحسني قائلا: "أخذ الرخصة من الولاة بحيدرآباد وقنع بمأتين وخمسين روبية بدون شرط الخدمة، وقدم بلدة "لكهنؤ" فأقام بها مدة عمره ودرس وأفاد وصنف وذكر"³⁷.

تنظيمه للعمل واستغلال الوقت

كان - رحمه الله - يمتاز بالجد والحرص الشديد على الانتفاع بالوقت، فكان محافظا على أوقات حياته، كما كان يتجنب الوقوع في العبث من الكلام والطعام والمجالسة التي لاتعنيه، كان يقوم دائما بكل عمل من أعماله في الوقت الذي يناسب له، ويحسن الاستفادة منه مشتغلا بالدراسة والتعليم والكتابة والتأليف..، فإلى

عقربة العلامة عبد الحي الفرنجي محلي

ذلك يشير العلامة بنفسه قائلاً: "لست ممن يضيع أوقاته النفيسة في ما لا يعنى ولا ممن يكثر بإيراد ما لا يجدي نفعاً ولا يعنى"³⁸، ولعل هذا الإدراك لقيمة وقته والانتفاع بجميع لحظاته هو أهم وأكبر العوامل التي تسببت عن إسهاماته في العلوم والفنون بحظ وافر.

لقد كانت حياته حياة منظمة، وأوقاته مخصصة محددة لكل عمل من الأعمال التي وقف نفسه لأجلها، لاتثنيه عن ذلك حمارة القيظ ولا يؤخره عنه قس الشتاء، فكل يوم من حياته كان يقضيه مركزاً في الخطة التالية:

- العيادة.
- التدريس.
- الاشتغال بالتأليف والتحقيق.
- وأحياناً في إصلاح الناس بالإرشاد والتذكير.

يقول تلميذه الرشيد عبد الباقي عن تنظيم أوقاته والانتفاع بها: "كان من عادته - رحمه الله - أن يصلي الصبح، ثم يشتغل بالوظائف (الأوراد) إلى طلوع الشمس، ثم يدرس ستة أسباق من المتوسطات والمطولات إلى الضحوة الكبرى، ويأتي بتحقيقات مبتكرة، ثم يقل، ثم يصلي الظهر ويؤلف إلى العصر، ثم يزور الإخوان، ثم يصلي المغرب ويطالع ويصنف إلى قريب نصف الليل"³⁹.

وفاته

في 29 من شهر ربيع الأول سنة 1304هـ كان يوم حفلة الميلاد في بيت المولوي عناية الله الفرنجي محلي (وهو كان أحداً من أقربائه) فشارك فيها العلامة الفرنجي محلي مع فرح وسرور مع أنه كان عليلاً، وشارك الأصدقاء والأقرباء والعلماء الآخرين في الطعام والكلام وفي المزاح المباح والمحادثة الفكاهية مبتهجا ومسرورا، وكان من كلامه بينهم في إحدى الجلسات: "الصحبة غنيمة لا يعلم أحد من يبقى بعد هذه الجلسة" ثم دخل الليل وحان وقت العشاء، فقام - رحمه الله - للصلاة فصرع في حالة الصلاة، فسانده من كان عنده من الخدام ولكنه ظل

يضطرب ويختلج وازدادت حالته تدهورا حتى قارب الليل منتصفه فأصيب بنوبة بعد نوبة من الصرع إلى أن استأثرت به رحمة الله في الساعة الثالثة من الليل، (إنا لله وإنا إليه راجعون) فقد فارق الحياة بعد أن طوي فيها تسعة وثلاثين عاما وبضعة شهور، بذل كلها في نشر العلم وإحياء السنة واطر صفحات لامعة كموسوعة علمية تحقيقية كلها تشهد بفضله ومجده.

وسرى خبر وفاته صباح يوم الإثنين في مدينة لكهنؤ وخارجها بموته فما كان أحد من أهلها سمع إلا بكى عليه وتحسر ودعا له بالخير والمغفرة، وصلى عليه بعد الظهر جم غفير وجمع كثير جماعة بعد جماعة بثلاث مرات، أولهم صلى عليه إماما المولوي محمد عبد الرزاق الأنصاري الفرنجي محلي المتوفى 1307هـ وذلك في "فرنحي محل"، وثانيهم صلى عليه إماما مولانا محمد عبد الوهاب الفرنجي محلي في قاع قريب من مقبرة الشيخ محمد الصديقي المشهور بـ"شاه مينا"، وثالثهم صلى عليه إماما المولوي محمد عبد المجيد الفرنجي محلي المتوفى 1340هـ في بستان أنوار الحق وقد دفن هناك.

يقول الأستاذ أبو الفضل محمد حفيظ الله البندوي: "فوالله ما رأيت جنازة بهذه العظمة والكثرة وما مرّ أحد إلا انكب رأسه إلى جنبه الأقدس، فقيل في الكثرة إنها بلغت إلى عشرين ألف من الرجال وقيل إنها أزيد"⁴⁰.

وجاء العلامة عبدالحى الحسنى بذكر وفاته قائلا: "وكانت وفاته لليلة بقيت من ربيع الأول⁴¹ سنة أربع وثلاثمائة وألف، وله من العمر تسع وثلاثون سنة، ودفن بمقبرة أسلافه، وكنت حاضرا في ذلك المشهد، وكان ذلك اليوم من أنحس الأيام، اجتمع الناس في المدفن من كل طائفة وفرقة أكثر من أن يحصروا، وقد صلوا عليه ثلاث مرات"⁴².

يقع ضريحه في "باغ أنوار الحق" (بستان أنوار الحق) في جانب متصل بسوره المغربي، وضع قبره من تراب إلا أن العلامة عبدالباري أحاطه فيما بعد بالرخام الأبيض المسوّج لإبقاء ذكره⁴³، نصب في جانب رأسه لوح من الرخام منحوت فيه

عقربة العلامة عبد الحي الفرنجي محلي

اسمه وتاريخ وفاته، كما نحت فيه أيضا قوله تبارك وتعالى: "سلام على عباده الذين اصطفى"⁴⁴ ثم بعض الأبيات من قصيدة تلميذه الرشيد عبدالعلي المدراسي التي قالها في رثائه وهي:

أيها الزوار قف وقرأ على هذا المزار سورة الإخلاص والسبع المثاني والقنوت
فيه عبد الحي مولانا إمام العالمين إنه علامة في كل علم بالثبوت
أرخ الآسي آسيآ آسيآ في فوته مات عبد الحي والقبوم حي لايموت

الرثاء عليه

لم تكن حادثة وفاة العلامة الفرنجي محلي كحادثة وفاة عامة العلماء والأساتذة، بل إنها كانت كارثة عظيمة صدمت آلاف القلوب التي كانت تتعلق به حبا وإعجابا وتقديرا لعبقريته ونبوغه في العلوم والفنون وإثرائه في الدراسات الإسلامية وتخريجه أفواجا من العلماء البارعين لذلك نجد أنه قد رثا عليه كثير من الكتاب والمفكرين والشعراء وتأسفوا على موته تأسفا شديدا، من أشهرهم نده في العلم والبحث العلامة النواب صديق حسن خان القنوجي أمير مملكة "بهوپال". فإنه لما سمع عن موته تأسف تأسفا شديدا حتى ما أكل الطعام في تلك الليلة، وصلى عليه صلاة الغائب وأمر بإغلاق مدينة بهوپال لثلاثة أيام نظرا إلى سعة اطلاعه في العلوم و المسائل⁴⁵، يقول الشيخ عبد الفتاح أبو غدة في هذا الصدد: "لقيت في رحلتي إلى الهند و باكستان في العام الماضي سنة 1382هـ حفيد صديق حسن خا : الشيخ رشيد الحسن حفظه الله تعالى ونفع به، فحدثني: أن السيد أمر بإغلاق بلدة بهوپال التي هو ملكها ثلاثة أيام حزنا على الشيخ أبي الحسنات، وقال اليوم مات ذوق العلم وما كان بيننا من منافسات إنما كان للوقوف على المزيد من العلم والتحقيق"⁴⁶ وكذلك رثا عليه تلميذه عبد العلي المدراسي، في قصيدة طويلة مطلعها:

إنما الدنيا فناء ليس للدنيا بقاء

إنما الدنيا وما فيها كنسج العنكبوت

وقد رثى عليه أيضا في قصيدة طويلة باللغة الفارسية ، مطلعها:

هيهات آن خورشيد دين فرياد آن ماه ميبين

شد ناكهان زير زيمن أنه انقلاب جرخ شوم⁴⁷

وقال تلميذه الآخر راثيا عليه وهو المولوي محمد عبد الباقي اللكهنوي:

لوشئت أن أبكي دما لبكيتيه

عليه لكن ساحة الصبر أوسع⁴⁸

قضى العلامة عبد الحي الفرنجي محلي جُلَّ حياته بل كل حياته سوى المدة الطفولية في التدريس والتأليف حيث بدأ بهما منذ سن الشعور، وكان الاشتغال في عمل التدريس والتأليف من الأعمال المحببة عنده منذ زمن الصبا⁴⁹ واستمر بهما طوال حياته إلى أن استأثرت به رحمة الله تبارك وتعالى، وقد تمكن من ذلك لأنه رُزق له القبول العام فيهما، فالطالبة كانوا يتسابقون للدراسة لديه، والعلماء والباحثون كانوا يتبادرون إلى مطالعة مؤلفاته، يشهد بذلك تلميذه الرشيد الشيخ محمد عبد الباقي قائلا: "رزقه الله القبول فرضي بتحقيقاته الماهرة، ومهَّر بتصانيفه الطلبة"⁵⁰، وبفضل هذا القبول العام انتشرت مؤلفاته في أكثر أنحاء العالم الإسلامي في حياته، وحرص الناس على اقتنائها، يقول العلامة الفرنجي محلي حامدا وشاكرا لله تعالى: بأبي لسان أحمدك، وبأبي جنان أشكرك، على أن جعلتني من العلماء المميزين، والفضلاء المعززين، وشهّرت تصانيفي في العالمين، ووقّرت تألّيفي عند العالمين، ونصبتني في مقام إحقاق الحق الصريح، وأقمتني في مقام إبطال الباطل الواهي، وإضلال العاقل الساهي، ووقفنتي لإزاحة الخطأ، وإظهار الصواب وبلغت رسائلي ودفاتري إلى بلاد واسعة وأمصار شاسعة العبور"⁵¹.

خلاصة البحث

من خلال دراستي الطويلة المتأنية الرزينة لحياة العلامة الفرنجي يمكنني أن أوجز أهم النتائج التي توصلت إليها في العبارات التالية:

عقربة العلامة عبد الحي الفرنجي محلي

بعد دراسة طويلة متأنية لحياة العلامة الفرنجي محلي ولإنتاجاته العلمية يمكنني أن أوجز أهم النتائج التي توصلت إليها في العبارات التالية:

- ❖ إن العلامة الفرنجي محلي كان علماً من الأعلام الكبار وعبقرياً من عباقرة الإسلام، ولد ونشأ في عصر يُعد من أخطر العصور من حيث السياسة الملكية والاقتصادية والاجتماعية بالنسبة لأهل الهند عامة وبالنسبة للمسلمين الهنود خاصة، فإن وقعة "الثورة الهندية -1857م" وقعت في هذا العصر حينما كان العلامة الفرنجي محلي ابن عشرة أعوام.
- ❖ ومع ذلك كله كانت له فرص بسيطة متاحة لتحصيل العلم وتثقيف النفس لوجود الظروف الوراثية صالحةً طيبةً حسنةً، فقد تيسر له أن تربي في أسرة علمية عريقة كلها كانت مظهر علم وفضل و دين وصلاح، وكانت أحوالهم الاقتصادية جيدة، وكان لوالده العلام أكبر الأثر والدور الهام في تثقيفه وتعليمه وتكوين شخصيته.
- ❖ أن اسمه الكامل هو "أبو الحسنات محمد عبد الحي"، أضاف العلامة إلى اسمه الكريم كلمة "محمد" بنفسه تقدسا وتيمنا باسم النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا هو دأب شائع بين المسلمين في بلاد الهند منذ زمن قديم، وقد أخطأ بعض إخواننا العرب في ضبط اسمه الصحيح لعدم معرفتهم بطريقة المسلمين الهنود في التسمية لأنفسهم ولأولادهم.
- ❖ وقد رزقه الله غاية من الذكاء والفتنة وقوة الحفظ والإدراك، حتى فرغ من حفظ القرآن الكريم في السنة العاشرة من عمره، ومن العلوم والفنون المتداولة في السابعة عشر من عمره.
- ❖ وقد لوحظ أن شيوخه كانوا قليلين معدودين ولكن ذلك لم يؤثر في مكانته العلمية، وذلك لأن الله تعالى قد كان آتاه ذوقا علميا سليما

وشوقا دراسيا قويا و مواهب نادرة فذة وقدرة عجيبة باهرة على احتواء العلم والتحقيق.

❖ كان العلامة الفرنجي محلي كثير الشغل بالدراسة والمطالعة، دائم الاشتغال بالتعليم والتدريس، حتى أن الكتب الدراسية كلها كانت مستحضرة عن ظهر قلبه وجارية على لسانه بدون النظر إليها. ولم يكن عنده شئ أحب إليه من الاشتغال بالدراسة والمطالعة والتعليم والتدريس حتى أثره على مناصب إدارية عالية كي لا تعوقه منه علائقها.

❖ من غضون هذه البواعث والدوافع تحصلت له علوم جمة ومعارف واسعة وثقافة موسوعية وسمات بارزة لاتوجد عامة إلا في القلائل المعدودين.

سقى الله ثراه وجعل الجنة مثواه وجزاه الله عنا وعن المسلمين وعن العلم والدين خيرا الجزاء.

الهوامش:

¹ - هي بلدة ومديرية مشهورة بولاية أترپرديش حاليا، وهي كانت عاصمة للنوابين (الأمرء) لإقليم "بنديل كهند" قبل الاستعمار الإنجليزي سنة 1905م.

² - يكتب الشيخ عبد الحي في كتابه "حسرة العالم بوفاة مرجع العالم" قائلا: سافر (والدي) من وطنه سنة 1260هـ إلى البلدة المعروفة ببانده - حفظها الله عن شر الأعداء، فعظمه رئيسها النواب ذو الفقار الدولة المرحوم، وجعله مدرسا للمدرسة، وكانت ودلادتي في تلك البلدة... ص: 2.

³ - يعني ذلك أن كلمة "عبدالحميم" إذا حذف منها حرفا اللام والميم تتكون منها كلمة "عبدالحي" ومن المركب باللام والميم يتكون الحرف "لم" الذي يفيد نفي المصدر إذا دخل على المضارع، فمن خلال هذا استخراج الطرفاء نكتة لطيفة ظريفة، وهي: أن الله تبارك

عقربة العلامة عبد الحي الفرنجي محلي

وتعالى سيحفظه من كل ما جاء فيه النهي والنفي في الشريعة الإسلامية، وأن يطيل عمره ببركة صفته "الحي"، ولكن الله تبارك وتعالى قبل هذا الفأل من الناحية الأخرى، وهو أنه رحمه الله وإن توفي في تسع وثلاثين من عمره فقط، ولكن اسمه حي في مجال العلم والتحقيق، فحياته العلمية لم تزل ولاتزال تدوم بإذن الله تبارك وتعالى.

- 4 - يراجع مقدمة "الرفع والتكميل في الجرح والتعديل" للأستاذ عبد الفتاح أبوغدة" ص: 26.
- 5 - "أحوال علماء فرنجي محل" (الأحوال لعلماء فرنجي محل) باللغة الأردية، ص: 63.
- 6 - لاحظ: "تذكر علماء فرنجي محل" (التذكرة عن علماء فرنجي محل) للأستاذ عناية الله الفرنجي محلي (في اللغة الأردية)، ص: 131، ("مهر افلاك حشمت و إقبال" معناه: هو مظهر نير وكوكب لامع على سماء الحشمة والإقبال).
- 7 - "فهرس الكتب الموجودة بالمكتبة الأزهرية" إلى 1364هـ/1945م، الناشر: مطبعة الأزهر-1365هـ/1946م.

- 8 - يراجع "فهرس الكتب العربية الموجودة بدار الكتب المصرية" ج1، الناشر: مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة-1342هـ/1924، و ج8، الطبعة الثانية-1361هـ/1942م.
- 9 - لاحظ الكتاب المذكور للعلامة إسماعيل باشا بن محمد أمين البغدادي.
- 10 - لاحظ "معجم المؤلفين" ج3، ص: 653، الطبعة الأولى - 1414هـ / 1993م.
- 11 - الأسم الصحيح لهذا الكتاب هو: "الآثار المرفوعة في الأخبار الموضوعة".
- 12 - من "مقدمة السعاية" ص: 17-18. و "النافع الكبير لمن يطالع الجامع الصغير" ص: 25. و "التعليق الممجد على مؤطا الإمام محمد" (مع التحقيق والتعليق للدكتور تقي الدين الندوي) ج1، ص: 109-110.

- 13 - مقدمة "إمام الكلام مع غيث الغمام" ص: 4.
- 14 - كان والده الكريم العلامة محمد عبد الحليم بن محمد أمين بن محمد أكبر الأنصاري اللكهنوي، واحدا من أبرز الشخصيات العلمية والفكرية، وأكبر علماء الشريعة الإسلامية في عصره، لم يكن في زمانه مثله في المنطق والكلام وأصول الفقه. عالما متبحرا في العلوم معقولة ومنقولة، مطلعاً على دقائق الشرع وغوامضه، مرجع الأنام في زمانه، ومطلب الأعلام في أوانه، وكان أيضا ثاقب الذهن، كريم اللسان، عفيف اليد، قوي الجنان، قائما

بالسنة الطاهرة المحمدية، وكانت أمه الحنون أيضا عالمة فاضلة متدينة ذكية بصيرة حليلة ذات خلق كريم عظيم ابنة عالم وفاضل كبير ينتهي نسبها أيضا إلى قطب الدين الشهيد الأنصاري.

15 - أسرة الشيخ عبد الحي الفرنجي محلي معروفة باسم "أسرة فرنجي محل" - نسبة إلى القصر الذي يعرف بهذا الاسم - بسبب إقامتهم فيه، وهي من إحدى أعرق الأسر الكريمة التي توارثت العلم والفضل والنبوغ والرسوخ والمناصب الدينية كابرا عن كابر، ويفضلها شهدت الهند العزيزة نهضة علمية وثقافة إسلامية طبقت الآفاق شهرتها.

16 - "حسرة العالم بوفاة مرجع العالم" ص: 24.

17 - "النافع الكبير لمن يطالع الجامع الصغير" ص: 27، و مقدمة "الرفع والتكميل في الجرح والتعديل" (تحقيق وتخريج: العلامة عبد الفتاح أبوغدة) ص: 20.

18 - وكلماته في اللغة الأردية هي: "تذكر ُ علما ُ نذكر ُ نلصنف ن لكها ك مولانان ٤ كيار سال كي عمر مي حفظ ختم كيا... ("عربي علوم و فنون ك ٤ علماء" (علماء العربية وفنونها) ص: 154، باللغة الأردية، وهذا الكتاب موجود في مكتبة العلامة شبلي النعماني بندوة العلماء، لكهنؤ.

19 - "تذكر ُ علما ُ هند" للأستاذ رحمان علي ص: 114. وكلماته في اللغة الفارسية هي: "از عمر پنج سالگی بحفظ قرآن مجید مشغول شد، بد سالگی ازا فارغ گشت و بجامع مسجد جون پور اولاً امامت تراویح کرد، دریازد سالگی بخدمت والد خود تحصیل علوم متعارف آغاز نمود..."

20 - والكتب التي كانت تدرّس في المنهج الدراسي النظامي آنذاك هي:

- في الصرف: "الميزان" و"المنشعب" و"پنج گنج" و"زبدة" و"صرف مير" و"الفصول الأكبرية" و"الشافية".

- في النحو: "النحو مير" و"شرح المائة" و"هداية النحو" و"الكافية" و"شرح الكافية" للجامي إلى مبحث الحال.

- في البلاغة: "المختصر" و"المطوّل" إلى ما أنا قلت.

- في المنطق: "الصغرى" و"الكبرى" و"الإيساغوجي" و"التهذيب" و"شرح التهذيب" و"قطبي" و"مير قطبي" و"سلم العلوم" و"مير زاهد رسالة" و"مير زاهد ملا جلال".
- في الحكمة: "شرح هداية الحكمة" للميذي، وشرحها للصدر الشيرازي إلى مبحث المكان، و"الشمس البازغة" للجونبوري.
- في الرياضية: "خلاصة الحساب" باب التصحيح، والمقالة الأولى من "تحرير الإقليدس" و"تشریح الأفلاك" و"القوشجية" والباب الأول من "شرح الجغميني".
- في الفقه: النصف الأول من "شرح الوقاية" والنصف الثاني من "هداية الفقه".
- في أصول الفقه: "نور الأنوار" و"التلويح" إلى المقدمات الأربع، و"مسلم الثبوت" إلى المبادئ الكلامية.
- في الكلام: "شرح العقائد" للفتازاني إلى السمعيات، والجزء الأول من "شرح العقائد للدواني"، و"مير زاهد شرح المواقف" مبحث الأمور العامة.
- في التفسير: "الجلالين" و"البيضاوي" إلى آخر سورة البقرة.
- في الحديث: "مشكاة المصابيح" إلى كتاب الجمعة.
- في المناظرة: "الرشيدية". (لاحظ: "الثقافة الإسلامية في الهند" للعلامة عبد الحي الحسني، الطبعة الثانية - 1403هـ/1983م، الناشر: مجمع اللغة العربية، دمشق.
- 21 - "التعليق الممدد على مؤطأ الإمام محمد" ص: 110، ج1، (تحقيق وتعليق الدكتور تقي الدين الندوي).
- 22 - "النافع الكبير لمن يطالع الجامع الصغير" - ص: 25. و "الرفع والتكميل في الجرح والتعديل" (تحقيق وتعليق: عبد الفتاح أبو غدة) ص: 15. "فترات وطفرات وقعت في أثناء التحصيل": أراد بذلك - رحمه الله - الرحلتين المعوقتين: إحداهما الرحلة من الوطن إلى حيد آباد الدكن، وثانيتهما الرحلة من حيدر آباد إلى الحرمين الشريفين ("مقدمة عمدة الرعاية" ج1، ص: 29-30).
- 23 - نفس المصدر.
- 24 - فمن مؤلفاته التي ألفها في زمنه الدراسية هي: "إمتحان الطلبة في الصيغ المشكلة" و "التبيان في شرح الميزان" و "جهارگل" و "حسن الولاية بحل شرح الوقاية" وغيرها.

- 25 - "مقدمة السعاية" ص: 41.
- 26 - "النافع الكبير لمن يطالع الجامع الصغير" ص: 25.
- 27 - نفس المصدر، ص: 27.
- 28 - "كنز البركات في سيرة أبي الحسنات" ص: 32.
- 29 - "النافع الكبير لمن يطالع الجامع الصغير" ص: 27.
- 30 - "الفوائد البهية في تراجم الحنفية" ص: 248-249. و يلاحظ أيضا "النافع الكبير" ص: 27.
- 31 - "الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام" ج8، ص: 1268.
- 32 - "تذكر علماء نند" (التذكرة عن العلماء الهنود) للأستاذ رحمان علي.
- 33 - "حسرة العالم بوفاة مرجع العالم" ص: 15.
- 34 - "حسرة العالم بوفاة مرجع العالم" ص: 17-18.
- 35 - "حسرة الفحول بوفاة نائب الرسول" ص: 5.
- 36 - "آثار الأول من علماء فرنحي محل" ص: 23.
- 37 - "الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام" (نزهة الخواطر ..) ج8، ص: 1268.
- 38 - "تذكرة الراشد برد تبصرة الناقد" ص: 95.
- 39 - "تحفة الأخيار" ص: 46، نقلا عن "المنهج الفقهي للإمام اللكنوي" للأستاذ الدكتور صلاح محمد سالم أبو الحاج، ص: 34.
- 40 - "كنز البركات في سيرة أبي الحسنات"، أبو الفضل محمد حفيظ الله البندوي، ص 36، المطبع العلوي، لكهنو، 1305هـ.
- 41 - الملاحظة: لقد عثر هنا العلامة الحسني في ضبط هذا التاريخ، وذلك لأنه وقعت وفاته في الليلة الأولى من ربيع الثاني كما يظهر من قول تلميذه الرشيد محمد حفيظ الله البندوي: "وكان الفراغ من دفنه في يوم الاثنين غرة ربيع الثاني..." وكذلك ضبطت سنة وفاته خطأ على غلاف "الهداية شرح بداية المبتدي للمرغيناني مع شرح العلامة عبد الحي اللكنوي" 1303هـ. (يلاحظ ذلك الكتاب الذي قامت بطبعه "إدارة القرآن والعلوم الإسلامية" كراتشي، باكستان، الطبعة الأولى - 1417هـ.

- 42 - "الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام" (نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر)،
للعلامة عبد الحي الحسني، ج8، ص: 1268.
- 43 - "مولانا عبد الحي فرنكي محلي _ حيات اور خدمات" (مولانا عبد الحي الفرنجي
محلي - حياته وخدماته العلمية) للأستاذ غلام مرسلين، ص: 28.
- 44 - سورة النمل، الآية: 59.
- 45 - "الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام" (نزهة الخواطر) ج8، ص: 1269.
- 46 - "الرفع والتكميل في الجرح والتعديل" (تحقيق وتخريج: عبدالفتاح أبو غدة) ص: 31.
- 47 - "الآثار المرفوعة في الأخبار الموضوعة" للعلامة عبد الحي الفرنجي محلي (تحقيق:
أبوهاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول) ص: 145.
- 48 - "حسرة الفحول بوفاة نائب الرسول" ص: 14.
- 49 - "الرفع والتكميل في الجرح والتعديل" (تحقيق: الشيخ عبد الفتاح أبو غدة) ص: 15.
- 50 - "تحفة الأخيار في إحياء سنة الأبرار" (تحقيق: الشيخ عبد الفتاح أبو غدة) ص: 37.
- 51 - "تذكرة الراشد برد تبصرة الناقد" للعلامة الفرنجي محلي، ص: 2، 66.

الثقافة الهندية: تنوعها وشمولها وعالميتها

محمد شميم النظامي*

قولا شك أن نظرية التناسخ نظرية هندية خالصة، تولدت في أذهان الهنود أول مرة في العالم، ثم انتقلت إلى أهل اليونان، ولأجل ذلك نرى كثيرا من مؤرخي الفلسفة اليونانية يعتقدون أنها مأخوذة من الهند وفيثاغورس، وأمبيدكاس وأفلاطون، كلهم أخذوها من فلسفة الهند.

إن كلمة "الثقافة" تستوعب النشاط البشري بأسره، بما فيه النشاط الفكري والذهني وفلسفة الذوق والنشاط الروحي والشعور الأخلاقي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي؛ لأن الثقافة منبعها ذهن البشر فهي مطمورة و راسخة الأقدام في ذهن الإنسان، وتسمو فوق جميع الاعتبارات في الحياة السياسية المتقلبة التي تخبط دائما الشعور الأخلاقي العام الساري في جسد الشعب كله،¹ ثم إن الثقافة والدين اصطلاحان متميزان بتميزات مختلفة، فالثقافة اصطلاح جامع، ويشمل صلة المرء بجمال الطبيعة وسحرها وعلاقته ببهجة الحياة ونعيمها، وضلعه بالقوة الإبداعية ومقدرته عليها، وما يجد من لذة وطعم في الحصول على العلم والعرفان، ومن نشوة وطرب في إحرار القوة والمناعة، وملخص القول أن الثقافة عبارة عن جميع المظاهر والمشاهد التي تضعها شعوب مهذبة وتمدنة موضع التقدير والاحترام في الحياة الدنيوية، وهناك يوجد اتزان غير مستقر بين وجهات النظر الدنيوية والدينية التي

* الباحث في الدكتوراه في قسم الأدب العربي، بجامعة اللغة الإنجليزية واللغات الأجنبية، حيدرآباد، الهند.

الثقافة الهندية: تنوعها وشمولها وعالميتها

تختص بالذهن البشري، فالدين إذا ما أخلع من لباسه الثقافي سيصبح شيئاً أجوف مجرداً عن المعنى، وكذلك الثقافة إذا انعدم فيها هذا الأثر السامي الذي يفيض به عليها الدين، فإنها لن تسمو وترتفع إلى تلك القمة التي تتمكن فيها من تحقيق منزلتها الكاملة واحتلال مكانتها المرموقة، ثم إذا أمعنا النظر في اصطلاح الثقافة في مدلوله الواسع ومفهومه الشامل، وجدنا أن هناك تركيباً جذرياً ثقافياً في الهند، وهذا التركيب الثقافي لم يكن متغلغلاً في الحياة الهندية في الماضي فحسب، بل لا يزال يجري فيها حتى اليوم، رغم هتافات التفرد و رغم تسرب عوامل السوء في العلاقات الطائفية والخلافات اللغوية والمنافسات الإقليمية والمنازعات الأخرى، فهناك تركيب عنصرى، ولغوي، وتجانس في الفن المعماري والبناء، تشابه في العلوم والآداب والموسيقى والرقص، وكما أن هناك اقتباس في الفلسفة أو توافق من بعض الجهات.

الهند جنة الشرق و مطلع النور المشرقي:

إن الهند وحدة شاملة وانسجام لا يستهان به في التنوع بين مختلف الشعوب وعديد من القبائل، فالثقافة الهندية فسيحة الأرجاء مترامية الأطراف مربوطة بتنوع معالمها الطبيعية واختلاف أوضاعها الدينية والسياسية وتباين مظاهرها الاجتماعية بالإضافة إلى ذلك ما يوجد من الشعور الملحوظ في تعدد اللغات و تنافر المؤلفات وتعارض التقاليد و تباين الطقوس و اختلاف الأعراف.

إن الطرق الثقافية كما تمثلها التقاليد التي يتمسك بها الشعب الهندي و الأديان التي يعتنقها، والآداب التي جادت بها أفلام كتابها، والفنون التي أوحى بها طبيعته الفياضة، توضح لنا جلياً بؤادر ملموسة لهذه الوحدة الشاملة التي تتميز بها الثقافة الهندية، والتي انبرت صورتها المألوفة في أعقاب مساهمة قيمة أسدت إليها مختلف الأجناس البشرية واللغات المتعددة والآداب المتنوعة والديانات ذات المنشأ الهندي أو التي يدين بها الشعب الهندي على اختلاف أوجهها ومسالكها، وكذلك التربة الهندية التي تزخر بحياة نابضة بالروعة والجمال يسودها فكر من نوع مثالي، انتعش

وترعرع عبر القرون والأجيال، وأصبحت هذه الحياة والفكر بمثابة أكبر مساهمة أسدتها الهند للعالم كله وهذا الفكر والحياة التي كانت مادة مشتركة يستلهم منها المسلمون والهندوس والمسيحيون وأعضاء الطائفة المجوسية وأفراد الطبقة السيخية على حد سواء.

كما أنه من الواضح البين أن ثقافة الهند تُعد من إحدى الثقافات الموعلة في القدم استمد منها العالم واغترف من حياضها، كذلك نجد أن الفلسفات التي تبلورت على أرض الهند من فلسفات البوذية والجينية وذاع صيتها في الآفاق أخذها الناس بإقبال زائد وتأثروا بهذه النظريات على مدى موسع وقد انتشرت معتقدات هذه الفلسفات في الصين وبورما والدول المتجاورة للهند كما أن العالم أخذ أشياء كثيرة من فلسفة فيداننت مثل حرية الفكر والكلام حيث يوجد في كتب التفسير للفيداننت لفظ خاص "أبهيا" بمعنى لا خوف ولا خطر، كما أن بعض الباحثين يقولون أن نظرية الارتقاء الإنساني الجديدة التي تسمى بنظرية "دارون" فإنه يوجد في "ويد" لفظ "رت" ومعناه الارتقاء المسلسل والحياة التي لا نهاية لها والحياة التي لا تبدأ بالولادة ولا تنتهي بالموت، بل لها قوانين خاصة من قبل أن يخلق الزمان والمكان، فهي حياة مسلسلة غير منقطعة. وكما نجد نظرية أن الإنسان مظهر من مظاهر الله عز وجل، الإنسان والإله ليسا بشيئين مختلفين، بل إنهما افترقا من جسم واحد أو مادة واحدة، وهذا الذي هو موضوع البحث عند الصوفية تحت عنوان "وحدة الوجود" كما أننا نجد التشابه في الأشكال والمعابد في بعض الدول مثل ميكسيكو وبيرو وكمبوديا وغيرها من الدول وهذا يدل على أنه كانت هناك أثر بالغ وأصل جذري لثقافة الهند على العالم في العصور القديمة، ومن جهة أخرى كانت بعض الكلمات من السنسكريتية تستخدم في هذه الدول مثل أرجن وبرهما، هذا وقد يوجد تشابه ملموس في الطراز المعماري في هذه الدول.²

ولا شك أن نظرية التناسخ نظرية هندية خالصة، تولدت في أذهان الهنود أول مرة في العالم، ثم انتقلت إلى أهل اليونان، ولأجل ذلك نرى كثيرا من مؤرخي الفلسفة

الثقافة الهندية: تنوعها وشمولها وعالميتها

اليونانية يعتقدون أنها مأخوذة من الهند وفيثاغورس، وأميدكاس وأفلاطون، كلهم أخذوها من فلسفة الهند.³

وأما تأثيرات الثقافة الهندية على دول الشرق الأوسط والعالم العربي فهي تتبلور في اللغة والثقافة العربية من ثلاث النواحي إجمالياً:

الأول: كلمات هندية دخلت في العربية بسبب الاحتكاك التجاري والاقتصادي، لأن التجار العرب كانوا يحملون من الهند السلع التجارية الهندية ويحملون معها أسماءها مثل زنجبيل وكافور والفلفل والقرنفل وغيرها من أسماء النباتات والحيوانات. **الثاني:** القصص الهندية، قد ترجم بعض من هذه القصص الهندية مثل "كليلة ودمنة" إلى اللغة العربية.

الثالث: الحكيم، إن الهنود اشتهروا بأنهم أصحاب النكت والحكم، فاستفاد الأدب العربي من حكم الهنود كما يقول ابن قتيبة: قرأت في كتاب من كتب الهند "شر المال ما لا ينفق منه"، "شر الإخوان الخاذل" و"شر السلطان من خافه البرئ"، و"شر البلاد ما ليس فيه خصب ولا أمن"، هذا وقد نجد أن أبا العلاء المعري كان يأخذ من النظريات الهندية ويعمل بها كعدم أكل اللحم والبيض.⁴ وكذلك لعبة الشطرنج جاءت من الهند وتعلمها العرب. كما اقتبسوا وأخذوا في البلاغة من أهل الهند.⁵

انهيار الثقافة الهندية بفقد الاستقلال السياسي:

وظلت الثقافة الهندية تؤثر وترسخ قدمها في أقطار العالم وتترك بصمات روعتها وجمالها في الثقافة العالمية منذ نعومة أظفار التاريخ المدون إلى أواخر الإمبراطورية المغولية، ثم وهنت وضعفت بفقد الاستقلال السياسي واختفت وراء الأستار حينما أنشبت الاستعمار البريطاني أظفار الاحتلال، فلم تكن بريطانيا تعمل لصالح البلاد وتغذية الثقافة الهندية بالقوة والنبض والحياة ولا تترك للثقافة الهندية أن تدفع عجلتها إلى الأمام ولا أن تشجع إلا انكماش علاقة الهند مع البلاد التي كانت هناك علاقة وطيدة بينها وبين الهند قبل النفوذ البريطاني، فالتبادل الثقافي والتفاهم الفلسفي بين الهند وبلاد آسيا الوسطى وبلاد آسيا الشرقية والشرق الأوسط وبلاد

إفريقيا وجيرانها في آسيا الجنوبية الشرقية قد ذبل بهاؤه ورواؤه، وغاض ماؤه وذوى عشبه.

فقد تضاعلت العلاقات الهندية العربية في هذا العصر إلى حد كبير وتسرب الانحطاط في كل من الجزيرة العربية والهند مع استنابات الحكم البريطاني وزحف الاستعمار إلى الشرق الأوسط،⁶ وبالتالي تأخرت الثقافة الهندية في إعطائها وتغذيتها للثقافة العالمية وخاصة الدول العربية، وكل من يتصدى لفحص العلاقات الهندية العربية في هذه الفترة يتوجب عليه أن يأخذ بعين الاعتبار الخلفية الاجتماعية والسياسية والثقافية وروح العصر الحقيقي، فقد كان على العرب خلال هذه المدة أن يحاربوا شرين: مواجهة الاستعباد السياسي على يد الغرب وفي طليعتهم فرنسا وبريطانيا من جهة، ومقاومة التحدي الداخلي في مجتمع إسلامي متأخر وهذان النوعان كانا مرتبطين أحدهما بالآخر من جهة أخرى.⁷ ولم يكن وضع الهند يختلف عن ذلك كثيرا، ففي النفوذ البريطاني كان هناك يسود الاستعباد في كافة المجالات عقليا وروحيا وفكريا وسياسيا وثقافيا، ومن الناحية الدينية أيضا انحل التمسك بروح الشريعة النقية ومقتضى الدين الخالص إلى حد غرقوا في آفات العقل وما اخترعت لهم البدعة، فتشكل الشعب في شكل التخلف عقليا وفكريا إلا أنه لم تخل الهند من المصلحين واعين وعيا تاما للأسباب التي جرت بالمجتمع إلى التأخر، وفي آخر الزمان ظهر اسم الإمام محمد قاسم النانوتوي والشيخ رشيد أحمد الجنجوهي وشيخ الهند محمود حسن الديويندي ومولانا حسين أحمد المدني ومولانا أشرف علي التهانوي والسير سيد أحمد خان ومولانا أبو الكلام آزاد وبقية الزعماء مثل البانديت جواهر لال نهرو ومولانا حفظ الرحمن السيوهاروي وشري شنكر وراو ديو ودكتور تارا شند وغيرهم من رجال الثقافة الهندية وقادة الفكر ومن ثم قامت فعلا بعض الحركات الإصلاحية الاجتماعية والدينية في هذه الفترة لتقاوم هذا التأخر والتخلف.⁸

الأثر السلبي لانقسام الهند:

الثقافة الهندية: تنوعها وشمولها وعالميتها

حينما لمع بريق الحرية وتلألأ أمل الاستقلال، وفعلا نالت الهند حريتها انقسمت إلى دولتين: الهند وباكستان، الهتافات والشعارات التي كانت ترفع في سبيل مطالبة دولة مستقلة للمسلمين لم تكن إلا خيبة لآمال المسلمين وحدث في تلك الآونة أن هاجر عدد هائل من المسلمين إلى باكستان تاركين وراءهم كل ما كانوا يملكون من ثروات الحياة، ولكن الذين آثروا الحياة والبقاء في الهند لم يكن عددهم قليلا، فكانوا يشكلون أكبر أقلية، وأدى هذا التقسيم إلى الاضطرابات الطائفية شوهت سمعة الهند وما كان تتمتع به من سمو الاسم وطيب الذكر للثقافة الهندية في العالم وخاصة في البلدان العربية.

إن القرار بعدم الهجرة إلى باكستان كان قرارا واعيا بل صعبا لجل أفراد وأسر هذه الجالية، والذين بقوا في الهند عانوا مشاكل عويصة في وجه موجات عنف وتهديدات طائفية عمت البلاد. ومع ذلك، اختار المسلمون وبشكل عام التحالف مع قوى علمانية. إلا أن التمييز والركود الاجتماعي والتهميش التعليمي المتراكم أسفر عن تخلف اقتصادي مطرد للمسلمين في كثير من أنحاء البلاد فيما انتقص نصيب المسلمين في الوظائف الحكومية بشكل متزايد.

العلاقات الثقافية تأتي بالتفاهم العام:

تضاءلت لوامع الثقافة الهندية بدافع فقدان القوة السياسية والاقتصادية جراء الاحتلال البريطاني الغاشم فتأخرت الثقافة الهندية في ضمنها الثقافة الإسلامية في فترة الحكم الإنجليزي، فساد الركود على الحياة الأدبية والثقافية والأخذ والعطاء في مجالات الحياة المختلفة من الدبلوماسية والسياسة المحلية والاحتكاك في الاقتصاد والتبادل في الأدب والثقافة والعلم. وهذا ما لمسناه قادة الفكر ورجال السياسة وزعماء الشعب الهندي الذين كانوا يعدون على أصابع اليد؛ ولكنهم نشطوا إلى استعادة المجد الغابر وتوجهوا إلى تأسيس مراكز الثقافة ومعاهد العلوم، وقاموا فعلا، فعاد النور الذي كان يتلألأ ضئيلا. وبالتالي هذا الشعور ووجهة التفكير والواقع الحالي للشعب، لفت انتباه الزعماء والساسة إلى تأسيس المراكز الثقافية لتطوير العلاقات

الودية وإرسال البعثات الثقافية وتنظيم اللقاءات العلمية والأدبية والثقافية والدبلوماسية؛ لأن التعاون الثقافي ضروري من وجهة النظر الأممية وقد وهنت هذه الأواصر بفقد الاستقلال السياسي، فأصبحت روابط الهند مع الجيران ضعيفة متقطعة، وقد كانت هناك تجربة صادقة أن الروابط الثقافية تعمل في سبيل توحيد الشعوب أكثر مما يعمل الاتحاد السياسي، لأن الاتحاد السياسي قوامه النفع الذاتي بينما العلاقات الثقافية تأتي بالفهم العام، وأما بالنسبة للهند فالحاجة إلى هذا الفهم أشد لما أن الشرق قد شاهد اليقظة الجادة وعمت في الشرق حركة التجدد العلمي والثقافي، تستحق أن تدرس بعناية بالغة، وفي أعقاب نيل الهند حريتها وكرامتها بدأت العلاقات تتوطد مع الدول الأوربية وأمريكا، ودعت الضرورة إلى إيجاد هذا الفهم في شكل أوسع من ذي قبل فيما بين بلدان الشرق وإفريقيا خاصة وأقطار أوروبا عامة، فكانت ثمة داعية إلى تأسيس مجلس يؤدي دورا فعالا في إنعاش العلاقات الثقافية وتطويرها. وتأسست اللجنة الهندية - الإيرانية على إثر قدوم البعثة الثقافية من إيران، وكانت الخطوة سديدة الجهة جلبت النفع الكثير في توطيد العلاقات الدبلوماسية؛ ولكنها كانت تختص بإيران فقط، فنظرا لإيجاد وتوثيق العلاقات الثقافية مع الدول العالمية أوجد الزعماء الهنود "المجلس الهندي للعلاقات الثقافية"، ومنذ إنشائه يقوم المجلس بخدمات جليلة في مجال التبادل الثقافي بين الهند ودول العالم وتخرج مجلات دورية في مختلف اللغات الكبيرة العالمية منها اللغة العربية.

الهوامش:

- ¹ الموسوعة الأردنية الجامعة، المجلد الثامن، ص: 180، ط المجلس القومي لتنمية اللغة الأردنية، وزارة الطاقة البشرية وتنميتها الهندية، دلهي الجديدة الهند 2003 م.
- ² مجلة "ثقافة الهند" المجلد الثالث عشر، العدد الثالث يوليو عام 1962م ص: 52 - 55.
- ³ الدكتور طه حسين: تجديد ذكرى أبي العلاء، الطبعة السادسة، مطبع دار المعارف بمصر عام 1963 م، ص: 78.

الثقافة الهندية: تنوعها وشمولها وعالميتها

-
- الإمام محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية، المذاهب السياسية الإسلامية الدينية، (الطبقة الشيعية)، دار الفكر العربي بالقاهرة مصر، ص: 34 - 35.
- ⁴الدكتور أحمد أمين: ضحى الإسلام، الجزء الأول، المطبع: الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة - مصر، 2003 م، ص: 258 - 261.
- ⁵أبو عثمان عمرو بحر الجاحظ: البيان والتبيين، الجزء الأول، ص: 71، الطبعة السابعة، بالقاهرة، 1998م.
- ⁶د. بي. ن. تشوبرا: العلاقات الثقافية بين الهند والجمهورية العربية المتحدة، مجلة ثقافة الهند" المجلد الثالث عشر، العدد الرابع، أكتوبر عام 1962 م، ص: 106 - 107.
- ⁷د. سيد مقبول أحمد: الخاتمة، العلاقات العربية الهندية، ص: 227 - 229، الدار المتحدة للنشر، بيروت لبنان ط: 1974 م.
- ⁸المصدر نفسه، ص: 223 - 230

الدكتور محمد اجتباء الندوي من أعلام القرن العشرين في الهند

د. محمد قاسم العادل*

يقام الأستاذ الندوي بتقديم دراسات وبحوث علمية في اللغتين العربية والأردوية في أسلوب سهل ممتع جذاب رشيق، يبلغ عددها حوالي خمسة عشر كتاباً، معظمها في اللغة العربية ومطبوعة في سوريا والهند، وحوالي مائتي مقالة منشورة، علاوة على نشراته العلمية والفكرية من إذاعة المملكة العربية السعودية، وإذاعة عموم الهند بدلهي. ومن أهم مؤلفاته العربية "أبو الحسن علي الندوي: الداعية الحكيم والمربي الجليل" و"الأمير سيد صديق حسن خان: حياته وآثاره" و"الإمام ولي الله الدهلوي" و"التعبير والمحادثة العربية" وما إلى ذلك. ومن أهم مؤلفاته الأردوية "تاريخ فكر إسلامي" (تاريخ الفكر الإسلامي)، و"نقوش تانبده" (المعالم المشرقة)، اسلام اور حقوق انساني (الإسلام وحقوق الإنسان)، عورت اسلام كي نظر مين (المرأة في الإسلام) وما إلى ذلك.

نبذة عن حياته: تفتحت زهرة حياة الأستاذ محمد اجتباء الندوي في 29 / 09 / 1933م في قرية "مجهوا مير" بمديرية "بستي" من ولاية أترابرايش بشمال الهند، في أسرة دينية متميزة بكرامتها وحسن سمعتها. وهي أسرة الشيخ جعفر علي نقوي الذي ترجع سلسلة نسبه إلى حفيد الرسول سيدنا حسين بن علي -رضي الله عنهما- وكانت لهذه الأسرة علاقة وطيدة مع الإمام سيد أحمد الشهيد وأسرته الشيخ إسماعيل الشهيد حفيد الإمام الشاه ولي الله الدهلوي.¹

* الأستاذ المساعد ورئيس قسم اللغة العربية، كلية ذاكر حسين دلهي، جامعة دلهي

الدكتور محمد اجتباء الندوي من أعلام القرن العشرين في الهند

فأسرة الأستاذ الدكتور محمد إجتباء الندوي هي أسرة دينية علمية كريمة لها خدمات عظيمة في مجال الدعوة والإرشاد ونشر تعاليم القرآن والسنة عن طريق إنشاء المدارس والكتاتيب في القرى والأرياف.²

دراسته: بدأ الدكتور محمد اجتباء الندوي دراسته الابتدائية في كُتاب قريته ثم التحق بـ "مدرسة هداية العلوم" بـكرهي من ولاية أترابرايش، ثم التحق بدار العلوم لندوة العلماء بلكناؤ وحصل على شهادة العالمية بدرجة ممتازة. ثم أُرسِل إلى سوريا في بعثة علمية للدراسة في كلية الشريعة بجامعة دمشق في عام 1956م وقضى هناك أربع سنوات وحاز على شهادة الليسانس، ثم رجع إلى وطنه الهند وتعين أستاذاً في دار العلوم لندوة العلماء بلكناؤ، ولكنه واصل دراسته في جامعة عليجراه الإسلامية حيث حصل على شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها بتقدير جيد جداً، ونال ميدالية ذهبية. ثم حصل على شهادة الدكتوراه من نفس الجامعة حول الموضوع "الأمير صديق حسن خان ومساهمته في العلوم الإسلامية بالهند"، وقد نشرت تلك الرسالة في صورة كتاب مع التلخيص والتهديب وجعل عنوانه "الأمير سيد صديق حسن خان - حياته وأثاره"³

أساتذته: قد تلمذ الدكتور محمد اجتباء الندوي على جهاذة العلماء والأدباء والمحدثين والمفكرين من الهنود والعرب، واستقى من منابعهم العلمية والثقافية واللغوية والأدبية والدعوية والفكرية، وقائمتهم طويلة، ومن أشهرهم في الهند سماحة الشيخ أبو الحسن علي الندوي صاحب "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين"، والدكتور عبد الله عباس الندوي والسيد محمد الرابع الحسني الندوي والشيخ عبد الحفيظ البليايوي و الشيخ محمد إسحاق السنديلوي⁴. وأما أساتذته من العرب فمن أشهرهم الشيخ علي الطنطاوي، والدكتور مصطفى السباعي والأستاذ محمد المبارك. والشيخ عبد الفتاح أبوغدة. والشيخ محمد بهجة البيطار، والشيخ مصطفى الزرقاء⁵ والدكتور محمد معروف الدواليبي⁶. ومجدد القرن العشرين الشيخ ناصر الدين الألباني وغيرهم. ولايسعني الحديث عن تفاصيل استفادة الدكتور اجتباء الندوي من

هؤلاء الأعلام البارزين في العصر الحديث في هذه الورقة المختصرة. والمعلوم أن الأساتذة لتلميذ بمثابة الآباء في الاعتزاز والافتخار، وللدكتور اجتباء الندوي حق أن يعتز بهم ويفتخر ويقول:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جريير المجامع

خدماته التدريسية: في دارالعلوم لندوة العلماء: وبدأ الدكتور حياته التدريسية، بعد ما رجع من سوريا، كأستاذ اللغة والأدب والشريعة الإسلامية في دارالعلوم لندوة العلماء بالهند في شهر ديسمبر سنة 1960م، فوجد هناك أفاقا واسعة وميدانا خصبا لتنمية مواهبه العلمية وتعبئة قدراته واستثمار صلاحيته تحت رعاية أستاذه ومربيه الشيخ أبي الحسن علي الندوي، ولكن خلال إقامته في رحاب هذه الجامعة واصل دراسته العالية والتحق بجامعة عليجراه الإسلامية لشهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها، وفاز مع وسام التفوق العلمي الجامعي سنة 1965م⁷.

في الجامعة المليية الإسلامية بنبو دلهي: ثم انتقل الأستاذ إلى الجامعة المليية الإسلامية وتولى تدريس اللغة العربية في المدرسة الثانوية أولا، ثم في المدرسة الثانوية العالية، ثم تعين كمحاضر في القسم العربي ثم تولى رئاسة القسم وخلال مدة عمله في هذه الجامعة حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة عليجراه الإسلامية لرسالته البحثية المعنونة بـ"الأمير صديق حسن خان ومساهمته في العلوم الإسلامية بالهند"، وفيما بعد نشرت هذه الرسالة بعنوان "الأمير سيد صديق حسن خان: حياته وآثاره" مع مقدمة إضافية للسيد أبي الحسن علي الحسيني الندوي من دار ابن كثير دمشق⁸.

في المملكة العربية السعودية: ثم سئحت له فرصة ذهبية إذ قدمت جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض له عرضا للعمل كأستاذ بالجامعة. فانتزها واستغلها وشد رحاله إلى الأرض المقدسة المباركة، حيث اشتغل في التدريس كأستاذ مشارك وقضى فيها سنتين كاملتين من سنة 1979م إلى 1982م، ثم أسدى خدماته كأستاذ في "الجامعة الإسلامية" بالمدينة المنورة إلى سنة 1987م.

الدكتور محمد اجتباء الندوي من أعلام القرن العشرين في الهند

في جامعة كشمير: بينما كان الدكتور يتمتع بسمعة واسعة لدى أهل العلم والثقافة في المنطقة كلها، إذ تلقى دعوة رسمية من جامعة كشمير لمنصب الأستاذ فقبلها، وكان له مشاركة فعالة وجهود مشكورة في إعداد المقررات الدراسية ومناهجها، وتطوير وتحسين مستواها العلمي. وكان له نشاطات دعوية وخطابية في المسجد الجامع لكشمير أيضا، فكان ينصح الناس ويعظهم مواعظ حسنة، يدعوهم إلى الإسلام من جديد⁹.

في جامعة إله آباد والتقاعد منها: وبعد "جامعة كشمير" انضم إلى هيئة التدريس "بجامعة إله آباد" في نفس السنة كأستاذ ثم أصبح رئيسا للقسم العربي والفارسي، وقضى أربع سنوات بكل نشاط وحيوية حتى تقاعد في شهر أبريل سنة 1994م¹⁰. وبعد التقاعد انتقل الدكتور إلى مقره وأهله بدلهم وتفرغ للتصنيف والتأليف وإلقاء المحاضرات والدروس الخاصة حول الأدب والفكر الإسلامي في داخل البلاد وخارجها. و خدم اللغة والأدب حتى أصيب بأمراض القلب في أواخر عمره ولم يبرأ منها ولبى نداء ربه يوم الجمعة 15 / 6 / 1429 هـ الموافق 20 / 6 / 2008م. ودفن بمقبرة الجامعة الملكية الإسلامية. أهدق الله عليه شأبيب رحمته ورضوانه (أمين).

فما كان قيسٌ هللكه هلك واحد ولكن بنيان قوم تهدما

رحلات الدكتور العلمية والدعوية: قال الله عز وجل: سيروا في الأرض....¹¹ وقال نبيه محمد (ص): من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع....¹² وقال باب العلم علي بن أبي طالب (رض):

تغرب عن الأوطان في طلب العلى وسافر ففي الأسفار خمس فوائد
تفرج همٌ واكتسابٌ معيشة وعلمٌ وأدابٌ وصحبةٌ ماجد

وقد ظهر من الكلمات السابقة حول دراسة الدكتور محمد اجتباء الندوي وخدماته التدريسية أنه قام برحلات علمية ودعوية وفكرية في الهند وخارجها. وله أحاديث وآراء ورسائل عن هذه الرحلات والمدن والبلدان التي زارها. ومن أهمها

دمشق والرياض والمدينة المنورة وباكستان والإمارات العربية المتحدة والمغرب وتركيا والكويت ومصر والأردن وفلسطين وغيرها.

وإضافة إلى هذه الخدمات التعليمية والإدارية قام الأستاذ الندوي بتقديم دراسات وبحوث علمية في اللغتين العربية والأردوية في أسلوب سهل ممتنع جذاب رشيق، يبلغ عددها حوالي خمسة عشر كتاباً، معظمها في اللغة العربية ومطبوعة في سوريا والهند، وحوالي مائتي مقالة منشورة، علاوة على نشراته العلمية والفكرية من إذاعة المملكة العربية السعودية، وإذاعة عموم الهند بدلهي.

ومن أهم مؤلفاته العربية "أبو الحسن علي الندوي: الداعية الحكيم والمربي الجليل" و"الأمير سيد صديق حسن خان: حياته وآثاره" و"الإمام ولي الله الدهلوي" و"التعبير والمحادثة العربية" وما إلى ذلك. ومن أهم مؤلفاته الأردوية "تاريخ فكر إسلامي" (تاريخ الفكر الإسلامي)، و"نقوش تابنده" (المعالم المشرقة)، إسلام اور حقوق انساني (الإسلام وحقوق الإنسان)، عورت اسلام كي نظر مين (المرأة في الإسلام) وما إلى ذلك.

دراسات تحليلية لمؤلفاته العلمية والأدبية:

"أبو الحسن علي الحسني الندوي: الداعية الحكيم والمربي الجليل"¹³

إن سماحة الشيخ العلامة أبا الحسن علي الحسني الندوي من الأعلام البارزين الذين أنجبتهم الهند في مطلع القرن العشرين، والذين أدوا دوراً هاماً في نهضة المسلمين، فقد تالّأ في سماء العلم والمعرفة لقرن ونور بنوره العالم، وأغنى المكتبات، وأثرى المجامع، فعرفه الناس في مشارق الأرض ومغاربها، داعية وقائداً حكيماً، ولشخصيته جوانب عديدة حيث كان عالماً ربانياً، ومفكراً إسلامياً عظيماً في جانب، وفي جانب آخر كان عالماً مرشداً، وخطيباً بليغاً، ومجدداً كبيراً، فلما تجتمع هذه الصفات في شخصية واحدة ويندر نظيرها في شخص آخر:

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

الدكتور محمد اجتباء الندوي من أعلام القرن العشرين في الهند

فكانت حياته حياة نموذجية للعلماء والعاملين والمصلحين في مجالات العلم والمعرفة، والتعليم والثقافة، والتربية الإجتماعية، والدعوة والإرشاد، وكان يحمل معه رسالته الإنسانية رسالة المودة والأخوة، ورسالة الإئتلاف والاتحاد. ويتحدث عن هذا الكتاب، الشيخ محمد واضح رشيد الندوي في مقدمته: "أما ما كتبه أخونا وحبيبنا الدكتور محمد اجتباء الندوي بعد وفاة سماحته، فقد كان ثمرة تأثره الشخصي به، وانطباعه عنه بعد ملازمة طويلة وأخذ عنه ونهل من مورده العذب"¹⁴.

ويعدُّ الشيخ محمد واضح رشيد الندوي سماحة الشيخ الندوي ويعتبره صاحب مدرسة خاصة في الأدب المعاصر، وقال الدكتور تقي الدين الهلالي بعد إحدى محاضراته "إن لك لأسلوباً يا أبا الحسن" وكتب خورشيد أحمد في مقاله "إن كلامه يصل إلى القلب مباشرة، وأما العلامة المودودي فكان يصل إلى القلب عن طريق الفكر"¹⁵.

وهذا الكتاب موزع في فصلين ما عدا كلمات الناشر وتقديم محمد واضح رشيد الندوي وتقديم المؤلف بعنوان "بين يدي الكتاب". ففي القسم الأول يتحدث عن حياة العلامة الندوي وعن أسرته الطيبة وميلاده ونشأته الصالحة وتربيته المؤمنة وتعليمه وثقافته وتركيبته وعمله ودعوته، وأعماله الدعوية والإصلاحية، ورحلاته وانطباعاته وتأثيراته، ومنهجه وأسلوبه وحسن الختام. وفي الفصل الثاني تناول الخصائص والمميزات التي تتسم بها مؤلفات العلامة وتحدث عن أبرز سماته، فيقول الدكتور:

"إن أبرز ما احتوته مؤلفات الشيخ الندوي هو تعريفه المسلمين من جديد بقيمة دينهم وحاجة الناس إليه، وحثهم البالغ على أن يحملوا رسالة هذا الدين من جديد للبشرية التي هي أحوج ما تكون إليه، لقد عاش عمره المديد ينادي بهذا الأمر، ويدعو إليه، ويلهج بذكره والإلحاح عليه. ويقدم للناس نماذج عملية لرجالات في تاريخ الإسلام، تمثلوا الإسلام في سلوكهم، وطبقوه في جميع أحوالهم، وعاشوه في مجتمعاتهم، وكأنه كان يود أن يقول للناس: هاكم الإسلام متمثلاً في حياة هؤلاء الرجال الأبرار"¹⁶.

وفي خاتمة الكتاب يقول: "لقد قدمت للقراء الكرام في الفصل الثاني من هذا الكتاب تعريفا موجزا لحوالي عشرين كتابا سطرّتها يراعتها القديرة، وأودعت فيها علما جما، وفكرا نيرا، وتربية قوية، وتركت المجال للقارئ أن يمتاح المزيد من فضل الشيخ من قراءة بقية كتبه الكثيرة"¹⁷.

"الأمير سيد صديق حسن خان: حياته وأثاره"¹⁸

في الحقيقة يعد هذا الكتاب للمؤلف من أروع وأشهر التأليفات، فالكتاب متزين ومتحل بمقدمة علمية قيمة وأدبية للشيخ أبي الحسن علي الحسيني الندوي. إنما الكتاب مشتمل على أربعة أبواب ومقدمة وخاتمة البحث، ثم مراجع البحث والمؤلف في سطور وفهرس الموضوعات، وتم طبعه من دار ابن كثير، بيروت، سنة 1999م.

وكما هو المعلوم لدى الجميع أن شخصية الأمير سيد صديق حسن خان هي شخصية فذة عبقرية نابغة احتلت مكانة مرموقة عالية ونالت صيتا كبيرا وعلما وافرا وثقافة واسعة، أسدت خدمات جليلة لإصلاح مسلمي الهند وإرشادهم، ولنشر الإسلام وإشاعته، وشقت طرقا جديدة للبحث والدراسة والتحقيق، وأثرت الهند بالذخائر العلمية والدينية والأدبية وأغنى المكتبات والمراكز علما وفكرا، بحثا ودراسة، بمجهوداتها الدائمة المتواصلة، ونشاطاتها وحيويتها الضخمة. ولا ريب في ولا مرء أن هذا الكتاب جيد ممتاز بمواضيع منسقة، ولغة سهلة مستساغة، وبعبارة شيقة أنيقة. وهاكم بعض النماذج منه. فالدكتور يتكلم عن الأمير صديق حسن خان قائلا: "أوتي (سيد صديق حسن خان) من الله العلي القدير ذكاء وقادا، ومواهب نادرة، وذاكرة قوية، وبصيرة نافذة، وقريحة فياضة، وعلما جما، وفضلا وافرا، فلقى حظوة وقبولا، وحبا وتقديرا، واعترافا به، فتقدم وازدهر، وارتقى إلى مراتب عالية رفيعة في الوظائف الحكومية، حتى صار المعتمد المهام (رئيس الوزراء) إلى أن تقدمت إليه الأميرة شاه جهان بيكم بيدها، وتزوجت منه فأصبح نائبا لها ومستشارا"¹⁹.

وقال مزيدا:

الدكتور محمد اجتباء الندوي من أعلام القرن العشرين في الهند

"كان قد جُبِلَ على العلم والفكر، مطبوعاً بالبحث والدراسة، والأدب والشعر، فأكتب على نشر كتب التفسير والحديث والفقهِ والعلوم الأخرى، وتوزيعها من أقصى الدنيا إلى أقصاها، وإعداد مؤلفات في هذه المواضيع، حتى بلغ العدد مئات، فازدانت بها مكتبات العالم الإسلامي واستفاد منها كل عالم وجاهل، ولا تزال تلك المؤلفات ذخائر فكرية عظيمة ليس لها مثل ولا بديل"²⁰.

ويكلمة العلامة الشيخ أبي الحسن الندوي قد ازدادت أهمية هذا الكتاب، فيقول الشيخ الندوي عن الكتاب وصاحبه: "وقد التقى في تأليفه لهذا الكتاب عوامل من البحث والتحقيق، والجد والعناء، والحب والعاطفة، وقد أعان المؤلف على إتمام هذا العمل وإيفائه حقه معرفته للغة الفارسية التي فيها عدد كبير من مؤلفات الأمير، وكان كاتباً قديراً رقيقاً فيها، كما كان من الكتاب المعدودين في العربية في الهند الذين لا يجاوز عددهم رؤوس الأنامل. وأشعر وأنا أقرأ هذا الكتاب بغبطة وسرور، وكنت من ضمن المختبرين لهذه الرسالة والحمد لله أولاً وآخراً وصلى الله على نبيه وصفيه محمد وآله وصحبه"²¹. وفي الأخير أريد أن أقول بأن هذا الكتاب هو دراسة شاملة قوية في حياة الأمير، والمؤلف قام بالاستعراض بأسلوب علمي حديث وبلغة عربية فصيحة.

"الإمام أحمد بن عبد الرحيم المعروف بالشاه ولي الله الدهلوي"²²

من منا لا يعرف هذه الشخصية العظيمة العبقريّة النابغة الفريدة شخصية الشاه ولي الله الدهلوي صاحب "حجة الله البالغة"، وولدت هذه الشخصية حينما كانت الهند تزداد حالتها الدينية والسياسية والاجتماعية سوء فأسوأ، والسكان كانوا يعيشون في جو حالك بالكفر والبدعة، وكان الاستبداد والفوضى مسيطرًا، وظهرت الفتن وكثر السلب والنهب، وكان الملوك والحكام مصابين بالحروب الداخلية مما أنهك قواهم وأضعف دولتهم، وبدأت القوات المختلفة الخارجية تهجم عليهم من كل جانب حتى تم سيطرة الإنجليز على الهند، ففي هذه الأوضاع والظروف جاء الشاه ولي الله الدهلوي وقام بانهاض المسلمين.

إنما الكتاب يشتمل على 16 فصلا مع مقدمة وخاتمة، والكتاب إنما هو مقال طويل كتبه الدكتور بأمر من "سماحة العلامة أبي الحسن علي الحسيني الندوي" بمناسبة مهرجان ندوة العلماء المنعقد بين 31 أكتوبر إلى 3 نوفمبر 1975م. فقد ذكر المؤلف في الفصول المعلومات عن حياة العلامة الدهلوي بصورة موجزة وحاول استقصاء مجهوداته ومساهمته في طريق الدعوة والإرشاد، والحديث عن اشتغاله في الدرس والتدريس، ومنهجه في التعليم ورحلته إلى الحجاز، ومرضه ووفاته وضريحه، وهكذا سرد بشيء من التفصيل خدماته العلمية، والإصلاح والتجديد، وموقفه ونبوغه في الشعر والأدب، ومراكز التربية وأجله وتلامذته ومؤلفاته. والمؤلف له قدرة فائقة على اللغة العربية. والكتاب في أسلوب رائع وبسيط ونكتفي هنا بنقل إقتباس من الكتاب دليلا على الأسلوب الجميل للكاتب، فهو يقول:

"شخصية الإمام الدهلوي شخصية عظيمة فريدة، قل أن يُنجبَ الزمان بمثها، شخصية ممتازة فذة، آية من آيات الله تعالى، عبقرية نابغة من نوابغ الإسلام، استطاعت بذكائها الوقاد، وعقلها النادر، وقوتها الفكرية، وقلمها السيل، ولغتها البليغة البديعة المشرقة، ونفحاتها القدسية، وأفكارها النيرة وآرائها السديدة، وسيرتها المثالية، وأخلاقها النبيلة، ومعرفتها الواسعة العميقة للعصر والمجتمع ودراستها الغائرة، ومنابرتها الطويلة على الكفاح وعملها الدائب، وبالإشارات الربانية والعناية الإلهية أن تنهض بالأمة الإسلامية الهندية من الحضيض والانحطاط إلى رفعة العلم والفهم والثقافة والحضارة، وجعلتها تحتل مركزا حيويا ممتازا في البلاد، وإن سبق بها الزمان، لعد من الأئمة المجتهدين العظام كما قال الأمير السيد صديق حسن خان أمير بهوبال: "لو سبق به الزمان وكان في القرون المتقدمة لعد من كبار الأئمة المجتهدين في الإسلام"²³.

"التعبير والمحادثة العربية"²⁴

إن اللغة العربية لغة حية نشيطة يتداولها عشرات ملايين كلغة رسمية ومئات الملايين كلغة دينية، فاللغة العربية ليست لغة القرآن والحديث فحسب، بل هي

الدكتور محمد اجتباء الندوي من أعلام القرن العشرين في الهند

أصبحت اليوم لغة العلم والمعرفة، والثقافة والتقدم، ولغة الصحافة والإذاعة، ولغة التكنولوجيا والكمبيوتر والعلوم المختلفة، وهي لغة رسمية لعشرات من الدول، وتحتل مكانة مرموقة بين لغات العالم، ومعترفة لدى الأمم المتحدة ومنظمات دولية أخرى، إن تعلمها وتعليمها يعد ويعتبر مجالاً خصبا اليوم بعد تحسن أوضاع العرب الإقتصادية مما جعلت العرب في مكانة مركزية في الأسواق العالمية التي سببت أيضا إلى ازدياد أهمية هذه اللغة، ولهذا نرى أن هناك مجالاً موفورا للعمل والترجمة، فنظرا إلى أهميتها ألف الأستاذ هذا الكتاب المهم في تعليم التعبير والمحادثة العربية لغير الناطقين بهذه اللغة.

فهذا الكتاب محاولة جيدة مشكورة لإرشاد الطلبة إلى التكلم والكتابة عن طريق ذكر عناصر الموضوع والعبارات المساعدة والمواضيع المتنوعة المختلفة، وقد نال الكتاب قبولا حسنا بين الأوساط العلمية والثقافية، وتلقاه الناس بكل شوق ولهف، وأدخله بعض الجامعات الهندية و العربية السعودية في مقرراتها الدراسية. والمعلوم أن المؤلف يحظى بالإتقان والتضلع في اللغة العربية لقضائه سنوات عديدة في العالم العربي وبملازمته بكبار العلماء البارزين، ولتمتعه بخبرة طويلة ومعرفة واسعة لطول مراسه في جامعات الهند والعرب بمؤهلات الطلاب غيرالعرب، وفي فهم نفسياتهم وملكتهم وعقلية المبتدئين ومستواهم ومشكلات الناشئين، وله تجربة ناجحة في تقديم حل مناسب. وهو كان يشعر بمسئولية الحاجة إلى كتاب حامل في طيه خير ما كتب في القديم والحديث، ولسد هذا الفراغ تم تأليفه بالدقة والمهارة.

وحاول المؤلف توفير مجموعة من الكلمات العربية التي تستخدم في الحوار اليومي ويتحدث بها عادة، ونهج على مبدأ التكرار والتساؤل، والتدريب والتمرين، وبالإضافة إلى ذلك إنه جمع الجمل والتعبيرات الخاصة التي تستعمل كل يوم حول موضوعات مختلفة مثل "المدرسة" "كيف تقضي يومك" "يوم العيد"، "حديقة

شاليمار"، "دراستي" "عند الطبيب"، "في الملعب"، "جولة في السوق"، "في حديقة الحيوانات"، "القطار" وغير ذلك من الدروس.

وتنوع موضوعات الكتاب مثل "عمر بن الخطاب" و"عمر بن عبد العزيز" و"السلطان صلاح الدين الأيوبي" في جانب، و"الصحف" و"الإذاعة المسموعة" و"الجار" و"النظافة" و"النظام" في جانب آخر، يدل على سعي الدكتور لتزويد الطلاب بالتاريخ الإسلامي والثقافة الإسلامية واهتمامه بغرس حب الخير والفضيلة والنصح لكافة البشرية في قلوب الدارسين. وإضافة إلى ذلك اهتم الدكتور بفن كتابة الرسائل مع ذكر بعض النماذج لتوليد ملكة المراسلة في الطلاب.

وملخص القول إن هذا الكتاب "التعبير والمحادثة العربية" مفيد ونافع جدا للطلبة، وانتفع المؤلف في تأليفه من بعض الكتب القيمة في التعبير، واستفاد في التنسيق والترتيب وتحديد بعض المواضيع من زميله الكريم "الأستاذ الفاضل عبد الله أحمد النيل" و"الدكتور عبد الرحمن حسين" و"الأستاذ مصطفى الناي" من الأساتذة العرب.

"الصلاة أهميتها وتأثيرها في الحياة الإنسانية"²⁵

إن الصلاة لها أهمية كبرى وفوائد عظيمة وتأثيرها المباشر في الحياة الإنسانية، ولا يمكن أن تقدر أهمية الصلاة، فقيمتها تفوق كل مقياس وتصور، وليست هذه عملاً تقليدياً بل في الحقيقة إنها صلة وثيقة تربط العبد بخالقه وبمالكه، وتقربه إليه إلى أقصى درجات القرب، وبدونه تصبح الحياة خاوية خاسرة، مملوءة بالمشاكل والمصائب، والاضطرابات النفسية والفكرية والروحية. فهذا الكتاب "الصلاة أهميتها وتأثيرها في الحياة الإنسانية" يؤكد على أهميتها ومدى تأثيرها في الحياة الإنسانية، ويبين أن الإنسان ينحدر يوماً فيوماً إلى الحضيض بسبب تركها وفوتها، وبسبب الصلاة أصبحت الحياة طيبة هادئة مطمئنة مليئة بالسعادة والهناء.

يحتوي الكتاب على 47 صفحة بمقدمة وخاتمة، ألفه "عبد الباسط" في الأردية ونقله إلى العربية "الدكتور سيد محمد إجتباء الندوي"، ويذكر المؤلف سبب التأليف

الدكتور محمد اجتباء الندوي من أعلام القرن العشرين في الهند

وهدفه فيقول: "إن هذا الكتيب أعد لبيان حقيقة الصلاة وفوائدها العظيمة، حيث أن كثيرا من المسلمين اليوم يتكاسلون عن الصلاة وذلك بسبب غفلتهم وقلة علمهم ومعرفتهم، فهم بأداء الصلاة لا يجدون فيها منفعة عاجلة، ولا يجنون ثمارها في التو واللحظة، وبعض من غير المسلمين يعارضون المسلمين على إلتزامهم بالصلاة يوميا، بزعمهم أنه ليس للصلاة تلك الأهمية في أدائها حتى يتركها ويؤخر لها أعمال وواجبات الدنيا"²⁶. وإنما الكتاب مفيد ونافع للقراء وفي أسلوب بين واضح، وإلى هذا أشار العلامة "أبو الحسن علي الحسني الندوي" في مقدمة الكتاب فيقول: "وقد ألفه بلغة سهلة مؤثرة وبأسلوب ممتع جذاب يبين في ضوء الآيات القرآنية وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام أهمية الصلاة القسوى وتأثيرها الفعال الصالح والقويم في حياة الإنسان"²⁷.

تعريف بعض مؤلفات الدكتور محمد اجتباء الندوي في اللغة الأردية:

"تاريخ فكر إسلامي"²⁸ (تاريخ الفكر الإسلامي)

إن هذا الكتاب من أهم وأبرز كتبه بالأردية حيث قدم الاستعراض والتقييم للفكر الإسلامي مع استيعاب وسرد سير العلماء والصلحاء والقواد والزعماء الإسلاميين ونبذة من حياتهم العملية وأعمالهم الجليلة ومآثرهم العظيمة عبر العصور لنهضة المسلمين ونشأتهم. وقد أكد المؤلف أن الفكر الإسلامي هو عبارة عن تفسير للقرآن والأحاديث يجعل القلوب مطمئنة والعقول مقتنعة، واستنباط المسائل والأحكام من مصادر رئيسية للدين ما ينسجم مع العصر ومقتضياته، مع التوكيد على نشر العقيدة الصحيحة وتبليغها.

واستعرض المؤلف في هذا الكتاب الصراع بين الجديد والقديم، وبين الفكر الإسلامي والفكر الغربي استعراضا شاملا، وحاول استيعاب الجهود الجبارة المبذولة من قبل المفكرين المجددين البارزين لنهضة المسلمين للنشأة الثانية من عهد الخلافة إلى العصر الراهن. وتحدث عن الزعماء والقواد الذين كانوا في طليعة لإعادة مجد الإسلام وعظمتهم وفخامته وقداسته مثل الإمام الغزالي، والشيخ ابن تيمية، والشيخ ابن

القيم، وأحمد السرهندي، وعبد الوهاب والسيد أحمد الشهيد، وعلي السنوسي، والشيخ محمد عبده، والإمام حسن البناء، والشاعر محمد اقبال، والسيد محمد قطب الشهيد، وعمر مختار الشهيد، والشيخ قاسم النانوتوي والعلامة شبلي النعماني والدكتور مصطفى السباعي وغيرهم. وكذلك تحدث المؤلف عن الحركات والمؤسسات التي لعبت دورا ملموسا في نشر الفكر الإسلامي وإشاعته وتعميمه.

"نقوش تابنده"²⁹ (المعالم المشرقة)

إن الوقائع والحوادث التي وقعت عبر القرون والعصور، لها جوانب إصلاحية وفكرية تحمل دروسا وعبرا للبشرية الجمعاء، وهذه كلها منتشرة ومتناثرة في كتب التاريخ، فاقتبسها المؤلف وقدمها أمامنا في صورة بسيطة وأسلوب جميل. وهذا الكتاب مجموعة مقالات نشرت في جريدة أردية "تعمير حيات" نصف شهرية صادرة من لكاؤ، ونشر عدد منها في إذاعة المملكة العربية السعودية، إنما الغرض الأساسي لهذا الكتاب هو تقديم صورة موجزة ومعلومات مفيدة عن الإسلام وتاريخه النير المشرق وسير الصحابة وأخلاقهم وجهادهم التاريخي.

ويحتوي الكتاب في جانب على واقعات العدل والإنصاف، والصدق والأمانة، وحسن السلوك ومكارم الأخلاق، ففي جانب آخر مشتمل على واقعات التضحية والإيثار، والجود والسخاء، وقد حاول المؤلف إبراز الدروس والعبر للإنسانية كلها، وتقديم ميزات الإسلام والتعريف بما أدى المسلمون من خدمات جليلة في تاريخ الإسلام.

"عورت اسلام كي نظر مين"³⁰ (المرأة في الاسلام)

هذا الكتاب "المرأة في الإسلام" من تأليفات "محمد المعروف الدواليبي" في اللغة العربية البسيطة ومنهج سهل وأسلوب رائع، وشخصية الدواليبي شخصية علمية وسياسية معروفة في الأوساط العلمية والسياسية معا، قد خرج من لسان قلمه كتب قيمة لا يستطيع أحد غض النظر عنها، وألف هذا الكتاب ردا على أعداء الإسلام وآرائهم في أسباب تخلف المسلمات. فالمؤلف قام باستعراض أوضاع المرأة ومكانتها

الدكتور محمد اجتباء الندوي من أعلام القرن العشرين في الهند

في الإسلام بكل إمعان وتفحص، واستفاد من المصادر العربية والأجنبية حتى أثبت بالدلائل والشواهد أن الإسلام قد منح المرأة عزة وكرامة، وأحلها محلاً رفيعاً.

ونقل هذا الكتاب المهم إلى الأردية الدكتور محمد اجتباء الندوي نظراً إلى أهميته في هذا العصر وتعميم نفعه، وإنما القارئ يشعر خلال مطالعته أنه كتاب مستقل وليس بترجمة، وذلك لأن الدكتور الندوي معروف لإجادته ترجمته وقدرته البالغة في اللغتين الأردية والعربية.

"اسلام اور حقوق انساني"³¹ (الإسلام وحقوق الإنسان)

هذا الكتاب تقرير لمناقشة علمية بين علماء العرب والغرب حول الإسلام وتعاليمه وحقوق الإنسان³²، وفيه سرد المصالح والحكم في كل الأمور والشؤون الدينية في ضوء القرآن والسنة، وفي ضوء التاريخ والشواهد العقلية والمنطقية، ورد على أسئلة العلماء الغربيين وإزالة شكوكهم حول الإسلام وتعاليمه والحقوق الإنسانية الموجودة فيه.

ونظراً إلى أهمية هذه المناقشة اهتم المؤلف بترجمتها من العربية إلى الأردية بدون حذف وإضافة. وفي النهاية أثار المؤلف قضايا المسجد الأقصى ومسلمي فلسطين وشعوبها وما يواجهون من المصائب والمحن، والأزمات والمآسي من قبل أعداء الإسلام وإسرائيل مطالباً بإعادة حقوق المسلمين وأراضيهم.

الهوامش:

1 انظر للتفصيل : الأمير سيد صديق حسن خان - حياته وآثاره، للدكتور محمد اجتباء الندوي، ص: 46-48

2 انظر للتفصيل : سوانح مولانا سيد مرتضى نقوي مظاهري وتذكره سادات مجهوامير للشيخ عبيد الله الأسعدي.

3 انظر مقالة للدكتور مجيد أشرف الندوي، نشرتها مجلة تعبير حيات الأردية الصادرة من لكتاؤ، عدد 10/ يوليو/2008م

- 4 - مجلة البعث الإسلامي الصادرة من لکناؤ - ع/12 ج/41- رمضان 1416- ص96 .
- 5 - مجلة البعث الإسلامي الصادرة من لکناؤ - ج/44- ع/9- سبتمبر 1999
- 6 - مجلة البعث الإسلامي الصادرة من لکناؤ - ج/49- ع/6- ربيع الأول 1425، ص 98-99
- 7 - 48 سال شفقتون کی سائی مین للدكتور سعيد الرحمن الأعظمي الندوي- ص 832
- 8 - آزاد هندوستان مین عربي زبان و ادب - د/ إرشاد أحمد ندوي نوغانوي، ص 306
- 9 - انظر: 48 سال شفقتون کی سائی مین، للدكتور سعيد الرحمن الأعظمي الندوي- ص 833
- 10 - المصدر السابق: ص 833- والسيد صديق حسن خان- حياته وآثاره للدكتور السيد محمد اجتباء الندوي، ص 305
- 11 سورة الروم : 2
- 12 سنن الترمذي : باب العلم
- ¹³ أبو الحسن علي الحسيني الندوي: الداعية الحكيم والمربي الجليل للدكتور محمد اجتباء الندوي، دار القلم، دمشق، بيروت، 2001م
- 14 - أبو الحسن علي الحسيني الندوي: الداعية الحكيم والمربي الجليل للدكتور محمد اجتباء الندوي ص 14-15
- 15 - أبو الحسن علي الحسيني الندوي: الداعية الحكيم والمربي الجليل للدكتور محمد اجتباء الندوي ص 11
- 16 - أبو الحسن علي الحسيني الندوي: الداعية الحكيم والمربي الجليل للدكتور محمد اجتباء الندوي ص 154
- 17 - أبو الحسن علي الحسيني الندوي: الداعية الحكيم والمربي الجليل للدكتور محمد اجتباء الندوي ص 153
- ¹⁸ الأمير سيد صديق حسن خان - حياته وآثاره، للدكتور محمد اجتباء الندوي، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، 1999م

- 19 - الأمير سيد صديق حسن خان حياته وأثاره للدكتور محمد إجتباء الندوي ص 293
- 20 - الأمير سيد صديق حسن خان حياته وأثاره للدكتور محمد إجتباء الندوي ص 294
- 21 - شخصيات وكتب للسيد أبي الحسن علي الندوي، ص: 243
- 22 الإمام أحمد بن عبد الرحيم للدكتور محمد إجتباء الندوي، مركز الدراسات العربية، جامعة نغر، دلهي الجديدة، الهند، سنة الطباعة غير مذكورة
- 23 - الإمام أحمد بن عبد الرحيم للدكتور محمد إجتباء الندوي، ص: 31
- 24 التعبير والمحاذثة العربية للدكتور محمد إجتباء الندوي، المطبعة الندوية، ندوة العلماء، لكتاؤ، 1990م
- 25 الصلاة: أهميتها وتأثيرها في الحياة الإنسانية للدكتور محمد إجتباء الندوي، الخبر، المملكة العربية السعودية، سنة الطباعة غير مذكورة.
- 26 الصلاة أهميتها وتأثيرها في الحياة الإنسانية للدكتور محمد إجتباء الندوي: ص 12
- 27 - الصلاة أهميتها وتأثيرها في الحياة الإنسانية للدكتور محمد إجتباء الندوي: ص 3
- 28 تاريخ فكر اسلامي للبروفيسور محمد إجتباء الندوي، المركز العلمي، جامعة نغر، نيو دلهي، 1998م
- 29 نقوش تابنده للدكتور محمد إجتباء الندوي، دار عرنوس، جامعة نغر، نيو دلهي، 1994م
- 30 عورت اسلام كي نظر مين للدكتور محمد إجتباء الندوي، المركز العلمي، جامعة نغر، نيو دلهي، 2006م
- 31 اسلام اور حقوق انساني للدكتور محمد إجتباء الندوي، جمال بريس، دلهي، 1973م.
- 32 وتم عقد هذه المناقشة العلمية في شهر صفر المظفر 1392 للهجرة الموافق شهر مارس 1972 للميلاد في المملكة العربية السعودية.

المراجع والمصادر:

1. أبو الحسن علي الحسيني الندوي: الداعية الحكيم والمربي الجليل للدكتور محمد إجتباء الندوي، دار القلم، دمشق، بيروت، 2001م

2. اسلام اور حقوق انساني (الإسلام وحقوق الإنسانية) (الأردنية) للدكتور محمد إجتباء الندوي، جمال بريس، دلهي، 1973م
3. الإمام أحمد بن عبد الرحيم للدكتور محمد إجتباء الندوي، مركز الدراسات العربية، جامعة نغر، دلهي الجديدة، الهند، سنة الطباعة غير مذكورة
4. الأمير سيد صديق حسن خان - حياته وآثاره، للدكتور محمد إجتباء الندوي، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، 1999م
5. تاريخ فكر اسلامي (تاريخ الفكر الإسلامي) (الأردنية) للبروفيسور محمد إجتباء الندوي، المركز العلمي، جامعة نغر، نيو دلهي، 1998م
6. التعبير والمحادثة العربية للدكتور محمد إجتباء الندوي، المطبعة الندوية، ندوة العلماء، لكاناؤ، 1990م
7. 48 سال شفقتون كى سائى مين، للدكتور سعيد الرحمن الأعظمي الندوي، مكتبة فردوس، لكاناؤ، 2012م
8. سوانح مولانا سيد مرتضى نقوي مظاهري وتذكره سادات مجهوامير، لعبيد الله الأسعدي، مكتبة إحسان، لكاناؤ، 2013م
9. شخصيات وكتب للسيد أبي الحسن علي الندوي، كلية اللغة العربية وآدابها، ندوة العلماء بلكاناؤ، 1985م
10. الصلاة: أهميتها وتأثيرها في الحياة الإنسانية للدكتور محمد إجتباء الندوي، الخبر، المملكة العربية السعودية، سنة الطباعة غير مذكورة.
11. عورت اسلام كي نظر مين (المرأة في الإسلام) (الأردنية) للدكتور محمد إجتباء الندوي، المركز العلمي، جامعة نغر، نيو دلهي، 2006م
12. مساهمة محمد إجتباء الندوي في الأدب العربي، رسالة ما قبل الدكتوراه، للباحث محمد إدريس، قسم الأدب العربي، جامعة اللغة الإنجليزية واللغات الأجنبية، حيدرآباد، 2010م
13. نقوش تابنده (المعالم المشرقة) (الأردنية) للدكتور محمد إجتباء الندوي، دار عرنوس، جامعة نغر، نيو دلهي، 1994م

الدكتور محمد اجتباء الندوي من أعلام القرن العشرين في الهند

14. مجلة "تعمير حيات" الأردنية الصادرة من دارالعلوم لندوة العلماء بلكناؤ، عدد 10/ يوليو/2008م

15. مجلة "البعث الإسلامي" الصادرة من دارالعلوم لندوة العلماء بلكناؤ - ع/12 ج/41- رمضان 1416 هـ ، ج/44- ع/9- سبتمبر 1999م، ج/49- ع/6- ربيع الأول 1425هـ.

.16

تاريخ وجيز لإنشاء المدارس العربية – الإسلامية في الهند

عبد الرحمن*

فلما أسرع الإسلام انتشاراً في شبه القارة الهندية وتملك في أعماق نفوس الهندوس لمس المسلمون الجدد الحاجة إلى التعلم بالإسلام وعماد الدين الحنيف وافتقروا إلى تعلم القرآن الكريم وأقوال الرسول - صلى الله عليه وسلم - فأقيمت الكتاتيب والمدارس الابتدائية في المدن التي فتحت على أيدي المسلمين حيث كان أطفال المسلمين يحفظون القرآن الحكيم والأدعية الماثورة ويتعلمون مبادئ الإسلام من التوحيد والرسالة ومكارم الأخلاق ويتمرنون على الفرائض الدينية من الصلاة وغيرها وكانت تعقد هذه الكتاتيب عامة في المساجد والزوايا ومنازل العلماء حتى تحت الأشجار وأحياناً في الكهوف ولكنها قد تطورت على مر الأيام.

يرتبط تاريخ إنشاء المدارس العربية-الإسلامية في الهند بمجيئ الإسلام إليها حيث تشرفت بنوره في زمن الصحابة الأخيار -رضي الله عنهم- وأدخل الإسلام تعديلات كبيرة على المستوى الشعبي في الهند من خلال توجيهاته القيمة وأدواره الباهرة لصلة الناس بالله سبحانه وتعالى وللحفاظ على الإنسانية ولتعميم صلة الرحم فيما بينهم على أساس العدالة والمساواة حتى تحولت حياتهم من الظلمات إلى النور ومن جور الأديان إلى ظل الإسلام، ومع مضي الوقت تقوت العلاقات الودية

* الباحث في الدكتوراه في مركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهر لال نهرو، نيودلهي، الهند.

تاريخ وجيز لإنشاء المدارس العربية - الإسلامية في الهند

والتجارية بين العرب والهند كالجسر لنشر الدين القويم ولشق طرق جديدة لأهل الدعوة والإرشاد وإيقاظ الوعي الإسلامي في معرفة القيم الخلقية العليا وأدوارها على الحياة الإنسانية ولل قضاء على ما يعيشونه من القضايا والمشكلات الاجتماعية المختلفة من بينها المنبوذية.

ظهور الإسلام في الهند:

دخل الإسلام أولاً في منطقة "ما لا بار" الساحلية في جنوب الهند مع الوفود التجارية الذين تمتعوا بالروابط الودية والصلات التجارية منذ قرون عديدة قبل الإسلام من جراء تردد البعثات التجارية إلى الهند حتى أن بعضاً من التجار العرب استوطنوا المناطق القريبة من سواحل الهند، فوصف رجال العلم بالتاريخ أن العلاقات العربية الهندية ليست بجديدة بل هي قديمة قدم التاريخ وقد اشتهر أنه لما تم طرد آدم وحواء عليهما السلام من الجنة وبعثهما الله تعالى في هذه الدنيا فهبط آدم في سرانديب ونزلت حواء في جدة ثم ارتحل آدم إلى جدة لرؤية حواء فالتقيا واجتمعا، فهذه أول مرة في التاريخ حصل اللقاء بين الهند والعرب وذلك يدل على الصلات الضخمة القوية بين البلدين حتى يتباهر المواطنون في الهند بقدم آدم في أرضهم وتجمعهم مع اختلاف المعتقدات والديانات ثم أتى عهد الملك سليمان - عليه الصلاة والسلام - وذلك من الأهمية والخطورة بمكان كبير فإنه تم انشاق سبل جديدة للاتصالات بالهند في هذا العهد فرفع الملك سليمان - عليه السلام - العرف التجاري. تعود بداية علاقات التجارة فيما بينهما كما صرح بذلك الدكتور تارا شاندي: "إن الروابط التجارية بين الهند والبلاد العربية الغربية كالقطر العربي وفلسطين ومصر قديمة جداً فالملك سليمان كان يستورد الذهب من "أدنير" (بيئ بورا الحاضرة) وكذلك الفضة والعاج والقرود والطواويس من بلاد الهند وكان الفينيقيون يتجرون مع الهند وأنشأ البطالسة موانئ على البحر الأحمر لتنشيط التجارة الهندية"¹.

وعلى نحو ذلك نالت الأقمشة الهندية قبولا حسنا في الدول العربية حتى إن موميات مصر القديمة كانت تكفن في الأقمشة المنسوجة في الهند كما أودع ذلك العلامة السيد سليمان الندوي -رحمه الله تعالى-: "إن المنسوجات الهندية الرقيقة كانت معروفة جدا ومن تصريحات شعوب مختلفة تظهر أن الأقمشة المنسوجة في الهند كانت أكثر رقة وأناقة وكذلك كانت تكفن موميات مصر في القماش الرقيق المنسوج في الهند"².

وبعد ما إنتشر الإسلام في العرب فتقلب حياتهم لأنهم وجدوا مرآة ناصعة صافية في شكل تعاليم الإسلام الأصلية من الصدق والأمانة والعفو والعدل والعز والكرم والحب والأخوة بالإضافة إلى السجود لله وحده فجرت المداولة بينهم بالحماسة الإيمانية في - رسول الله صلى الله عليه وسلم- ورسالاته القيمة الخالدة حتى خلقوا الظروف المؤاتية لنشر كلمة الحق والإسلام في كافة أنحاء العالم وقد حكى الشيخ زين الدين المعبري قصة شهيرة عن ملك من ملوك مليبار الذي دخل في الدين القويم بعد ما سمع عنه وعن صاحبه -عليه الصلاة والسلام-: "إن جماعة من فقراء المسلمين معهم شيخ قصدوا زيارة قدم أئبنا آدم -عليه السلام - بسيلان وصل هؤلاء إلى مليبار وعندما سمع الملك بوصولهم طلبهم وأضافهم وسألهم عن الأخبار فأخبره شيخهم عن ظهور نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم- ودين الإسلام ومعجزة انشقاق القمر فأدخل الله سبحانه في قلبه صدق النبي صلى الله عليه وسلم فأمن به ثم سافر الملك معهم حتى وصل إلى شحر ونزل فيها هو ومن معه وبعد مدة طويلة رافقته جماعة في السفر إلى مليبار لعمارة المساجد وإظهار دين الإسلام فيها وخلال الطريق إلى مليبار اشتد مرض الملك حتى توفى وكان معه حينئذ من المسلمين شرف بن مالك وأخوه من الأم مالك بن دينار وابن أخيه مالك بن حبيب بن مالك وغيرهم وبعد ذلك بسنتين قام برحلة مليبار مرة أخرى شرف بن مالك ومالك بن دينار ومالك بن حبيب وزوجته قمرية وغيرهم مع الأولاد والأتباع ونزلوا فيها وعمروا مساجد عديدة في أماكن مختلفة بمساعدة أهلها فحمدوا الله تعالى لانتشار الإسلام في أرض

تاريخ وجيز لإنشاء المدارس العربية - الإسلامية في الهند

ممتلئة كفرا وهذا خبر عن أول ظهوره في الهند ثم توطن المسلمون في مليبار وتزوجوا النساء الهنديات وبدأوا يدعون الناس إلى دين الإسلام والصدقة وهم نالوا الاحترام من قبل ملوك الهند وشعوبهم و رعايتهم³.

ويغايير دخول الإسلام في شمال الهند دخوله في جنوبها وفي الحقيقة بدأ الملوك الهندوس الحرب مع المسلمين منذ زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وتواصلت حيناً بعد حين وكخطوة أولى لها جاء حكم بن أبي العاص إلى الهند عن طريق البحر وهاجم على غوجرات وبروج وفي عهد عثمان - رضي الله عنه - بسط عبد الرحمن بن سمرة سيطرته على سجستان وكابل حتى توصل إلى مناطق دواركا الكائنة في السند وكان يدير المناطق المحتلة من سرحد والسند وفي عهد معاوية بن أبي سفيان شنت غارات كثيرة على الهند لإطفاء نار الثورة وللإستيلاء على مناطق أخرى وفي شهر رمضان عام 93 من الهجرة شن جيش محمد بن قاسم الغارة على ديبيل بأمر الحجاج بن يوسف حتى قتل داهر بأيدي المسلمين.

ويعد عام 293 من الهجرة جعل يتجه الغزنويون والغوريون واللوهيون والمغول وغيرهم إلى الهند وفي عام 591 من الهجرة عين السلطان محمد شهاب الدين الغوري عبده قطب الدين أيبيك حاكماً على الهند وبعد وفاته سمح ابن أخيه السلطان محمود لقطب الدين أيبيك أن يذكر اسمه في الخطب كسلطان ويحكم بنفسه الهند بالعدل فاختر قطب الدين أيبيك لقب السلطان وتوج في 15 يونيو، عام 1206 من الميلاد ومنذ تلك السنة بدأت الحكومة المسلمة في الهند حقيقة⁴.

فمهدت الظروف الحربية الدائرة حول الهند والأوضاع المعشوية من الحكم الإسلامي عليها السبل إلى التبادل الثقافي والحوار بين الأديان حتى اضطر الكثير من الهندوس إلى العلم بالإسلام ومعرفة الرسول صلى الله عليه وسلم منجم تفاهم طيب بين الأمتين المتضادتين واقتربوا إلى الإسلام وتقلت الخلافات بين وجهتي النظر من الإيمان بالله وحده والشريك له ومارس بهذا الخصوص المجاهدون البارون والصوفية المخلصون والعلماء الصالحون دوراً ملموساً وقاموا بالروح المعنوية العالية

ضد القوى المعادية للإسلام حتى بعد السعي الحثيث والجهد الكثيف توصلوا إلى غرس الإسلام في قلوبهم وتركوا الإنعكاسات الحسنة والنفوذ المتعظمة الإيجابية على جميع مجالات الحياة.

وإذا كان الإسلام دين الله وحده من عنده لعباده ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة لمن الخاسرين حقا، بجميع عباداته يعزز على قيم الجماعية و يعمل لتوحيد المسلمين و إيجاز التكافل والتراحم والانسجام والتوادد بينهم ويؤكد على قيم الحب والمواساة والأمن والسلام لهم ولغيرهم ممن حولهم وأن الأمة الإسلامية أمة متماسكة يأخذ بعضها بحجز بعض إذا اشتكى منها عضو تداعى له الكل بالسهر والحمى⁵. ونظرا إلى هذه التعليمات الإسلامية النبيلة والدعوات السليمة جعل الناس يدخلون في ربة الإسلام ليتمتعوا بظله المديد من الأمانة والديانة والسلامة والصداقة فإن المجتمع الهندوسي آنذاك كان يعافى من المس المنبوذ والعصبية الدينية و افتراق العقائد و تشتت الطبقات وتعدد الإلهات وبلغوا في ذلك إلى ما لم يمكن لهم العودة إلى الوراء بل كانوا على وشك الدمار والخراب فأنقذهم الإسلام من عبادة الأوثان إلى عبادة الله وحده لا شريك له وأعطاهم العدل والمساواة والطمأنينة والسكينة على بناء الإنسانية كما ينطق به القرآن الكريم "ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر" وفي موضع آخر يقول الله سبحانه وتعالى وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها وأيضا قال النبي صلى الله عليه وسلم لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأبيض على أسود ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى، الناس من آدم وآدم من تراب⁶.

واتخذ الإسلام بهذه التعليمات الشاملة العادلة السمحة طريقا إلى الإزدهار والرقي وجعل يسيطر على خواطر الفئات المنبوذة حتى تسلل إلى فؤاد الأشراف والنواب والملوك.

تاريخ وجيز لإنشاء المدارس العربية - الإسلامية في الهند

كيفية المدارس في البداية ومناهجها الدراسية:

فلما أسرع الإسلام انتشارا في شبه القارة الهندية وتملك في أعماق نفوس الهندوس لمس المسلمون الجدد الحاجة إلى التعلم بالإسلام وعمار الدين الحنيف وافتقروا إلى تعلم القرآن الكريم وأقوال الرسول -صلى الله عليه وسلم- فأقيمت الكتاتيب والمدارس الابتدائية في المدن التي فتحت على أيدي المسلمين حيث كان أطفال المسلمين يحفظون القرآن الحكيم والأدعية المأثورة ويتعلمون مبادئ الإسلام من التوحيد والرسالة ومكارم الأخلاق ويتمرنون على الفرائض الدينية من الصلاة وغيرها وكانت تعقد هذه الكتاتيب عامة في المساجد والزوايا ومنازل العلماء حتى تحت الأشجار وأحيانا في الكهوف ولكنها قد تطورت على مر الأيام وتحسنت وانصرفت إلى المدارس حيث تدرس القواعد الإسلامية من الفقه والحديث والتفسير والمنطق والفلسفة والدراسات الإسلامية العليا وبالإضافة إلى العلوم الطبيعية والسياسية والإدارية العامة والطب والحكم وكانت توفر المدارس السكن والطعام والتسهيلات الأخرى من غير رسوم لها فأصبحت مراكز التعليم يتوجه إليها كل من يرغب في تحصيل العلوم الإسلامية ويعود الفضل في ذلك إلى العلماء والصوفية الذين تشرفوا بمقدمهم أرض الهند ولكن لا توجد تفاصيل عن تلك المدارس الأولى التي أدت دورا ملحوظا في محاربة الشرك والكفر وفي محو الأمية من الهند.

ولما ازداد عدد المسلمين يوما فيها وجعل الإسلام ينتشر سريعا فاشتدت الحاجة إلى إنشاء المدارس على أوسع نطاق لمعالجة المشاكل الإسلامية لخدمة المصالح الشعبية ولدحض الأباطيل ولمواجهة التحدي الحضاري والاجتماعي لجميع شؤونه وسمومه وفنونه ومكره ونفاقه وجنونه وللتعبير عن الفكر الإسلامي الأصيل المتوارث عن الصحابة والتابعين - رضي الله عنهم - أجمعين.

والصحيح في ذلك أن الله سبحانه وتعالى كتب هذا السبق والسعادة بإقامة المدرسة للملك الأفغاني الشهير السلطان محمود الغزنوي (361 - 421هـ / 972 - 1030م) فقد قام الغزنوي بإقامة مسجد بعروس الفلك حسنا وجمالا وروعة في

عاصمة بلاده غزنة كما بنى بجوار المسجد مدرسة تحتضن مكتبة زاخرة بالكتب والمصادر النادرة العزيزة المنال و أقطع على المسجد والمدرسة قرى كثيرة وذلك عام 410هـ / 1019م⁷.

وهذا ما يقوله أهل العلم بالتاريخ الإسلامي بمن فيهم المؤرخ المعروف "بفرشته" أنشأ (محمود الغزنوي) مدرسة بالقرب من المسجد حوت كتباً قيمة نادرة وأقطع لهما قرى عديدة⁸. ويؤيد ذلك الدكتور سوسوغبتا (Susu Gupta) أن السلطان محمود الغزنوي لم يقم بالنظام الإسلامي في الهند فحسب بل ركز أيضاً على تزيين المسلمين بالعلم بعد ما سيطر عليها. رغم كونه أمياً كان مولعاً بالعلم و رجاله فكان يتمتع بجمع من العلماء المهرة في قصره وقيل كان السلطان يبذل 400000 دينار على العلماء سنوياً⁹ وأيضاً صرح بذلك الدكتور مسعود عالم الفلاحي أنه أنشأ مختلف المدارس والمساجد والمتاحف والمكتبات وأنشأ أيضاً جامعة رائعة قرب مسجد جميل في عاصمته وكانت توجد كتب كثيرة في مختلف الموضوعات في تلك الجامعة حيث وجدت 300 غرفة للسكن فيها الطلاب والأساتذة وتدفع الدولة رواتب الأساتذة و منحاً للطلاب لا ينافسه ملك من الملوك في جمع العلماء البارزين في قصره¹⁰.

ولما توسع نفوذ المسلمين في شمال الهند حتى خضعت بنجاب لهم، صارت منطقة لاهور مقراً للدعاة والغزاة ورجال الدين وبقيت كذلك في أثناء عهد إبراهيم الغزنوي أيضاً.

وهذه كانت بدايات المحاولات لترويج العلوم الإسلامية والفنون الدينية عن طريق إنشاء المعاهد والمراكز لها والحفاظ عليها ثم جاء مسعود الغزنوي فاهتم اهتماماً بالغاً بنشر العلوم الإسلامية وترويجها وتنقيف الأجيال بها فإنه كان محباً للعلم والتعليم فأقيمت المعاهد والمراكز الإسلامية على نطاق كبير خلال عصره¹¹.

تاريخ وجيز لإنشاء المدارس العربية - الإسلامية في الهند

عهد الغوريين:

استمرت المحاولات لإنشاء الكتاب والمدارس الدينية في عهد الغوريين ولقيت العلوم الدينية إزدهارا كبيرا ونموا واسعا في مجال التربية الدينية وأدت دورا ملموسا في محو الأمية من بلاد الهند وأتاحت للهنود وأقامت للهنود أسلوب الحياة الرائع وعرفتهم بحقوقهم وواجباتهم الأولية نحو البلاد والإنسان حتي خلقت بين المسلمين والأمم الأخرى التعايش السلمي والمحبة والوداد. وهذه المدارس وفرت فرص التعليم للمسلمين وكذلك الهندوس حيث حصلوا العلوم مع بعض وعاشوا آمنين مطمئنين.

الدولة المملوكية:

ثم أتى عهد الدولة المملوكية في الهند على رأسه كان قطب الدين أيبك عبدا من عبيد شهاب الدين الغوري رحمهما الله تعالى، إنه كان رجلا عالما بالدين القويم محبا للعلم والعلماء فبنى مساجد كثيرة خلال حكمه وأنشأ مئات من المدارس حيث تلقى الطلاب العلوم والمعارف إلى جانب العلوم الدينية و فنونها. ويعود قيام الحكومات الإسلامية المستقلة في وسط الهند إلى عهد الملك قطب الدين أيبك رحمه الله تعالى في بداية القرن السادس الهجري فقام ناصر الدين قباجه حاكم ولاية ملتان بتأسيس مدرسة بها ويشير إليه العالم الكبير منهاج سراج قائلا: إنه في شهر ذي الحجة عام 624هـ ولى هذه المدرسة في آتشه وكان ذلك في بداية عهد الشيخ بهاء الدين زكريا يشهد صلاة الفجر في هذه المدرسة ويواظب عليه ولم يغفل التاريخ مدرستين من مدارس ذلك العصر وهما: المدرسة المعزية والمدرسة الناصرية¹².

حذا حذوه عبده السلطان شمس الدين ألتتمش فبذل قصارى جهوده في ذلك فإنه كان فاضلا كبيرا وحريصا على ترويج العلوم الدينية وتزيين الناس بها وتنافس في بناء المساجد والمدارس والرباطات ويقوم بالنشاطات العلمية الضخمة بشوق كبير.

فأنشأ كثيرا من المراكز التعليمية في دولته وأنشأ مدرسة بارزة عرفت بالمدرسة المعزية باسم مولاه السلطان معز الدين محمد شهاب الدين الغوري ووجدت هناك مدرسة أخرى بنفس الاسم في مدينة بدايون وهي الآن في ولاية أترابرايش¹³. ثم ابنه السلطان ناصر الدين محمود وبنته سلطنة رضية استمرا في تعميم التعليم الإسلامي و توصيله إلي جميع أنحاء الهند. ان كل فرد في الأسرة أحب العلوم وبذل جل مجهوده في نشرها فتبارى الإبن في مكافحة الأمية ودحض الجهالة فأقام باسمه "المدرسة الناصرية" وجاء بعده عبد أبيه السلطان غياث الدين بلبن نو المباديء السامية الهمة والعالية.

الدولة الخلجية:

ثم أتى عهد السلطان جلال الدين الخلجي والسلطان علاء الدين الخلجي والسلطان محمود الخلجي فالأول قام بمجهودات مشكورة في تيسير طرق العلم وتحسين أسلوب الدراسة وإيجاد منهج تعليمي جديد. انه قدم تسهيلات لجميع المواطنين وأبرز خدماته العلمية يتمثل في إنشاء مكتبة مشهورة في دهلي. ويضاف أنه قام بإنشاء عديد من المعاهد الدينية والمساجد في تشنور (CHITOR)¹⁴.

الدولة التغلقيه:

تأسست الدولة التغلقيه في سنة 1320 من الميلاد علي يد السلطان غياث الدين تغلق. يصرح التاريخ أن خلفاءه نصبوا عناياتهم على ايجاد التوعية حول دراسة القرآن الكريم و السنة وعلى إيجاد مناخ علمي ملائم في ضوء تعليمات القرآن والأحاديث النبوية الشريفة، فكانت الدولة التغلقيه تدار وفقا للشريعة الإسلامية. يعد السلطان "محمد بن تغلق" عالما كبيرا بالعلوم الإسلامية وفصل الخصومات بين الناس في ضوء ما ينطق به القرآن والسنة. كما قال فيه ابن بطوطة: "كان السلطان شديدا في إقامة الصلاة آمرا بملازمتها في الجماعات يعاقب على تركها أشد العقاب ولقد قتل على تركها في يوم واحد تسعة أنفار كان أحدهم مغنيا. وكان شديدا في إقامة الشرع ومما فعل في ذلك أنه أمر أخاه "مبارك خان" أن يكون قعوده بالمشورة

تاريخ وجيز لإنشاء المدارس العربية - الإسلامية في الهند

مع القاضي "كمال الدين" في قبة مرتفعة هناك مفروشة بالبسط وللقاضي بها مرتبة تحف بها المخاد كمرتبة السلطان و يقعد أخو السلطان عن يمينه¹⁵.

إن السلطان محمد تغلق قد شهدت دهلي في عهده مدارس بلغ عددها ألف مدرسة وأجرى على المدرسين فيها الأرزاق والجرايات من بيت المال وقد عم العلم إلى حد أن تلقى حتى الإماء العلم وحفظن القرآن الكريم وكانت هذه المدارس تعلم طلا بها المعقولات و الرياضيات بجانب العلوم الدينية¹⁶.

ثم جاء عهد السلطان فيروز شاه تغلق. إنه كان رجلا سعيدا موقفا سموا الفكر عالي الهمة يكن صدره الغايات النبيلة للشعب الهندي أحب العلوم والعلماء وتلهف برغبة لا يستهان بها إلى المدارس الإسلامية ونشر العلوم والمعارف الدينية المتوارثة عن الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه -رضي الله عنهم- كما يقول عنه رجل التاريخ الضياء البرني: "إن مدرسة فيروزشاهي بداهلي عز مثلها رونقا وبهاء وموقعا وإدارة موقفة وعناية بالعلوم وأجرى الملك عليها جرايات تغطي ميزانيتها ولم يدان بناء في عاصمة البلاد دهلي حسنا وحصانة ورونقا وموقعا مبنى "مدرسة فيروز شاهي". هو بناء ضخم عظيم يتوسط حديقة غناء يطل على بركة فيها ويعمرها مات من الطلبة وأهل العلم ليلا ونهارا¹⁷.

وتشير بعض السجلات أن السلطان فيروزشاه تغلق حفر حوضا خاصا بداهلي وأنشأ بجانبه مدرسة تسمى ب-"مدرسة حوض خاص". ومن قبل أنشأ مدرسة فيروز شاهي في فيروزآباد بداهلي في 1354 للميلاد وأنها كانت مركز العلم في ذلك العصر حيث اتجه الناس من كل صوب وحذب و وجدت لها دارالإقامة للطلاب والمدرسين وكذلك أنشأ مدرسة قرب مقبرة ابنه فتح خان في 1374 للميلاد وكان اسم هذه المدرسة مدرسة قدم شريف¹⁸. ومما يجب ملاحظته فيما قام به فيروزشاه من خدمات علمية أنه حرص حرصا شديدا على تزويد العبيد وأولادهم بالعلوم النافعة وفرص تحفيظ القرآن الكريم¹⁹.

الهوامش:

- 1- "ثقافة الهند" (مجلة فصلية) ص: 19، لشهر مارس سنة 1950م، الصادرة من المجلس الهندي للعلاقات الثقافية (ICCR) دلهي الجديدة.
- 2- "عرب و هند كي تعلقات" باللغة الأردية (العلاقات بين الهند والعرب)، ص: 11، الناشر: دارالمصنفين، أعظم جراه، أوترابرايش، الهند، الطبعة الجديدة سنة 1993م.
- 3- القصة مأخوذة بالإيجاز من الكتاب: "المدارس الإسلامية بالهند نشأتها وتاريخها" للدكتور مسعود عالم الفلاحى، ص: 29 - 31.
- 4 نفس المصدر، ص: 38 - 39.
- 5- مجلة "الداعي" ص: 34، الصادرة من الجامعة الإسلامية دارالعلوم بديوبند، لشهر ذي الحجة 1431هـ.
- 6- المسند لأحمد بن حنبل: على الموقع
- 7 - مجلة "الداعي" لشهري جمادي الأول والثاني سنة 1433هـ، ص: 29.
- 8- "تاريخ فرشته" لملا محمد قاسم فرشته، ج 1، ص: 30، الناشر: مطبعة نول كشور، لكتاؤ، الهند.
- 9- Elliot & Downson: History of India as told by its own historians. 63.-Calcutta, 1964, Vol-11, P
- 10- "المدارس الإسلامية بالهند نشأتها وتاريخها": للدكتور مسعود عالم الفلاحى، ص: 68 - 69.
- 11- "آب كوثر" للشيخ محمد إكرام، ص: 64. و Elliot & Downson, op cit, vol. PP-138-139
- 12- مجلة "الداعي" لشهري أبريل و مايو، سنة 2012م، ص: 31-32.
- 13- مآثر و علمي تاريخ: ص، 432.
- 14- المدارس الإسلامية بالهند، ص، 71.
- 15- المدارس الإسلامية بالهند، ص: 73. و"تحفة النظر في غرائب الأمصار و عجائب الأمصار" لمحمد ابن عبد الله المعروف بأبن بطوطة، ص: 1-2، 52-53.

تاريخ وجيز لإنشاء المدارس العربية - الإسلامية في الهند

- ¹⁶- "مجلة الداعي" لشهري أبريل-مايو، سنة 2012م، ص: 31.
- ¹⁷- تاريخ فيروز شاهي، لضياء الدين بن مؤيد الملك بارسكبرلاس البرني: ص، 559.
- ¹⁸- المدارس الإسلامية بالهند، ص، 74.
- ¹⁹- مجلة الداعي، أبريل- مايو، 2012، ص، 31

العلامة عبد الحي الحسني الذي عرّف الهند إلى العالم العربي

غياث الإسلام الصديقي الندوي*

{ لا يمكننا إلا أن نقول إن الله سبحانه وتعالى كما قيّض للأندلس الإسلامية مؤرخاً وصافاً وأديباً رساماً وهو محمد لسان الدين بن الخطيب الذي ألف كتابه الفريد "الإحاطة في أخبار غرناطة" في ثلاثة أجزاء، والعلامة أحمد المقرئ المغربي الذي ألف "نوح الطيب لغصن الأندلس الرطيب"، وكما قيّض لمصر العربية العلامة تقي الدين أحمد بن علي المعروف بالمقرئ الذي ألف كتابه العظيم "كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار" المشهور بخط مصر في جزئين، وبلاد الشام ابن عساكر الذي ألف كتابه الشهير "تاريخ دمشق"، والأستاذ محمد كرد علي الذي ألف كتابه القيم "خطط الشام"، كذلك قيّض سبحانه وتعالى لشبه القارة الهندية مؤرخاً مثالياً وكاتباً قديراً وهو العلامة الطبيب عبد الحي الحسني الذي ألف "تزهة الخواطر" في تراجم أعلام المسلمين الهنود عبر القرون الهجرية من القديم إلى الحديث و"الهند في العهد الإسلامي" في تاريخ الهند الإسلامية وجغرافيتها وخطتها وآثارها، و"الثقافة الإسلامية في الهند" في تاريخ العلوم الإسلامية في الهند وإنتاج المسلمين فيها وكل كتاب من هذه الكتب الثلاثة موسوعة في ذاته. }

*باحث في قسم اللغة العربية، جامعة دلهي، نيودلهي، الهند. ghayasul17@gmail.com

العلامة عبد الحي الحسني الذي عرف الهند إلى العالم العربي

الشيخ عبد الحي الحسني الراي بريلوي رئيس جمعية ندوة العلماء لکنؤ بالهند سابقا كان كاتباً قديراً وناقداً بصيراً ومتضلعا من اللغة العربية وآدابها والعلوم الإسلامية معاً إلى جانب تضلعه من اللغتين الأردية والفارسية. إنه خلف آثاراً أدبية قيمة وضخمة في ترويج فكرة ندوة العلماء الوسطية ونشر الثقافة الإسلامية وتقديم دار علومها إلى الأمام كجامعة عربية إسلامية نموذجية متزنة. خلفه نجلاه وحفيده علي التوالي وهم الدكتور عبد العلي الحسني والشيخ أبو الحسن علي الحسني - رحمهما الله -، والشيخ محمد الرابع الحسني -حفظه الله- في تحمل هذه الأمانة التربوية بصفة متتالية، فأدوا واجباتهم خير أداء، من غير تطلّعهم إلى منافع مادية.

ولد الشيخ عبد الحي الحسني بن فخر الدين بن عبد العلي 22 من ديسمبر عام 1869م في زاوية الشيخ علم الله بمدينة راي بريلي على بعد 80 كيلومتراً من لکنؤ. ودرس العلوم العربية من الصرف والنحو والفقه والأصول والتفسير والعلوم العقلية على أشهر علماء لکنؤ، ثم سافر إلى بهوبال وهو محط رحال العلماء والطلبة حينذاك، فقرأ جميع الكتب الدراسية مثلاً قرأ الحديث على العلامة المحدث الشيخ حسين بن محسن الأنصاري اليماني، والأدب على ابنه الشيخ محمد، والطب على الطبيب الشهير عبد العلي، ثم قام برحلة علمية فزار دلهي وباني بت وسهارنپور وسرهند وديوبند وكنكوه وهي المراكز العلمية الدينية الكبرى في الهند يومئذ، واجتمع بالعلماء والمشايخ، منهم الشيخ رشيد أحمد الكنكوي والشيخ المحدث نذير حسين الدهلوي، والشيخ عبد الرحمن الباني بتي والشيخ فضل الرحمن الكنج مراد آبادي والشيخ الإمام إمداد الله المهاجر المكي.

نشأ سيد عبد الحي منذ صباه على حب العلم والمطالعة والولع بالكتابة والتأليف، حتى أصبح قادراً على الجمع بين الدين والعلم والذوق الأدبي وفهم الشعر ونقده وبين الوقار وخفة الروح ورقة الشعور. وعندما بلغ أشده شاهد المجتمع الإسلامي في خضم الخلافات والنزعات التي كانت تعم العالم الإسلامي بوجه عام، وشبه القارة الهندية بوجه خاص، فبدأ دعوته الإصلاحية من أعضاء أسرته امتثالاً

للآية الكريمة "وأندرك عشيرتك الأقربين" وبعد ذلك جمع قومه ودعاهم إلى الوئام والاتحاد¹. ومن ثم تكونت جمعية للإصلاح الاجتماعي والتوعية الإسلامية في رأي بريلي. عندما انتقل الشيخ الحسني إلى لکنؤ، انضم إلى جماعة الشيخ محمد علي المونكيري التي وقفت لتأسيس جمعية باسم ندوة العلماء سنة 1311هـ، من أهدافها الرئيسية التقريب بين المذاهب وأهلها ورفع النزاعات الفقهية وتقليل الفجوة بين الطوائف الإسلامية وتنسيق الجهود في إصلاح التعليم والمسلمين وتطوير المناهج الدراسية، فصادف ذلك رغبته وذوقه فشارك في نشاطاتها وأعمالها منذ نشأتها وأصبح علماً من أعلامها، ثم تفرغ لخدمتها وخدمة الإسلام والمسلمين بواسطتها وحاز ثقة أعضاء الندوة فاختروه أميناً عاماً لندوة العلماء سنة 1333هـ الموافق 1915م فركز جهوده على تطوير هذه الحركة فبفضل جهوده الحثيثة نالت حركة الندوة شهرة عالمية في إبان حياته وتخرج في دارعلومها كثير من العلماء والأدباء الذين خدموا اللغة العربية وآدابها والدراسات الإسلامية وأثروا بإنتاجاتهم العلمية والأدبية والثقافية.

توفي رحمه الله 15 جمادي الآخرة 1341هـ الموافق 2 فبراير 1923م في لکنؤ، ونقل جثمانه إلى رأي بريلي مسقط رأسه وصلي عليه في جمع حاشد ودفن بجوار قبر الشيخ علم الله في زاويته مخلصاً وراءه ابنتين وابنين وهما الدكتور عبد العلي الحسني والشيخ أبو الحسن الندوي.

والواقع أن جهود العلامة عبد الحي لم تقف عند حدود إصلاح العشيرة وعند جهوده في ندوة العلماء بل اتسعت رقعتها بمرور الأيام، وذلك لأنه كان يشعر بمسؤوليته تجاه عامة المسلمين وبوجه أخص مسلمي الهند. وكان هدفه أن تكون حياته حافلة بالعطاء، ممتدة الجذور والأعماق، فانطلاقاً من هذا الشعور توجه العلامة إلى خدمة العلم والأدب وقضى جُل أوقاته في مطالعة الكتب وتأليفها، وسرعان ما أصبح خبيراً بطبقات الرجال وخصائصهم ودقائق أخبارهم ومتضلعا من مختلف العلوم والفنون وبارعا في آداب اللغة العربية والفارسية والأردية وعكف بوجه

العلامة عبد الحي الحسني الذي عرف الهند إلى العالم العربي

أخص على قراءة تاريخ الهند العلمي والسياسي فلم يكن له نظير في العلم بأحوال الهند ورجالها في عهد الدولة الإسلامية وترك آثارا علمية وأدبية ذات أهمية بالغة، وهذه الآثار تميّز اللثام عن صلاحيته العلمية وعقليته العميقة ودراسته الواسعة وبحوثه الدقيقة. فمؤلفاته العربية التي حظيت ولا تزال تحظى باهتمام العلماء ولها دوي في الأوساط العلمية والأدبية هي:

1- نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر (الإعلام بمن في تاريخ الهند

من الأعلام)

2- الثقافة الإسلامية في الهند

3- الهند في العهد الإسلامي

فهنا ألقى ضوء يسيراً على كلّ منها. فكتاب " نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر" المعروف بطبعته الجديدة : الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام بتحقيق ابنه العلامة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي في موضوع تراجم الرجال والأعلام المسلمين في الهند، ذكر فيه المؤلف تراجم أعيان الهند وعلمائها فيمن قدم الهند من أعيان المسلمين ومآثرهم وكلّ ما انتهى إليهم علمه من تعلمهم وأعمالهم وألقابهم وأنسابهم وسنوات وفياتهم وأخبارهم وكذلك كيف درسوا ومن قرأوا عليهم، واستوعب كلّ عصر منذ بدء الإسلام حتى سنة وفاته، ويقع الكتاب في ثمانية مجلدات، ضمّ الأوّل منه أعلام القرون السبعة الأولى، واختص كلّ مجلد من بعده بقرن من القرون السبعة الباقية. فهو في ثمانية أجزاء لخصّ فيها المؤلف واقتبس من ثلاث مائة كتاب في العربية والفارسية والأردية من المخطوطات والمطبوعات حتى يحتوي الكتاب على تراجم أكثر من أربعة آلاف وخمس مائة ونيّف فصدرت له حتى الآن ثلاث طبعات، الطبعة الأولى من دائرة المعارف بحيدرآباد في جنوب الهند والثانية من لكنؤ باسم "الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام" والثالثة من بيروت. ويقول نجل المؤلف العلامة الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي في وصف هذا الكتاب:

"ووفق والدي العلامة السيد عبدالحى الحسني _رحمه الله تعالى_ لوضع أكبر كتاب يعرف في شبه القارة الهندية بتراجم الرجال الذين نبغوا في الهند من القرن الإسلامي الأول إلى سنة وفاة المؤلف سنة 1341هـ (1923م) يغطي المساحة الزمنية من القرن الأول إلى القرن الرابع عشر الهجري، والمساحة المكانية من ممرخيبر في الشمال الغربي من الهند إلى خليج بنغال في الشرق، ومن قتل كشمير إلى "مالابار" و "كالي كوت" في الجنوب، والأعيان من كل طبقة على اختلاف مذاهبهم الفقهية واتجاهاتهم العلمية، واختصاصاتهم الفنية، فجاء في ثمانية مجلدات كبار يحتوي على أكثر من أربعة آلاف وخمسة مائة من التراجم، وهو أشبه في أسلوب الكتاب ومنهجه وتعبيراته بأبن خلّكان في الدقة والأمانة وتحري الصدق والقياسات اللائقة والدقيقة في تخير الأوصاف والنوعت"².

ويلقي العلامة الشيخ الضوء على إفادية هذا الكتاب وأسلوبه فيقول :

"إن أكبر ثروة للتاريخ العلمي والديني والإسلامي في الهند كانت موجودة في البيت، وكان ذلك كتاب والدي "نزّهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر" في ثمانية مجلّدات، فقرأتها أكثر من مرّة، وبذلك تمثّل تاريخ الهند الإسلامي العلمي في شبه القارة الهندية فقد دخلها الإسلام في صورة حياة واقعية، واطّلت على أوضاع الملوك والأمراء، وأرباب الكمال وحملة راية الإصلاح والتجديد، والمؤلفين الكبار والكتاب البارعين وعثرت على نكتهم اللطيفة وفرائدهم الدقيقة، ولم يكن من الممكن أن ألمّ بها إلا بالبحث الدقيق وبمتابعة المؤلفات والكتب التي تعد بالمئات، وذلك بمثابرة مستمرة وجهد بالغ، إنّما كان هذا كنزاً ثميناً للمعلومات والثقافة، لا يمكن لمن يبحث في موضوع يتصل بالهند وعهدها الإسلامي أن يغض البصر عنه، وقد وجدت في هذا الكتاب دائماً متعة روحية ولذة أدبية وفائدة علمية، وهو من الكتب المعدودة التي لا أملّ قراءتها على كثرتها وتكرارها. وقد صبّ المؤلف في هذا الكتاب مواهبه وسجاياه، فجاء قطعة من نفسه، ونسخة من روحه، صفاءً حسّ ورقةً شعور واندفاعاً إلى الجمال والكمال أينما وجداء، واعترافاً بالفضل أينما حلّ واستقر،

العلامة عبد الحي الحسني الذي عرف الهند إلى العالم العربي

واقصداً في المدح والنقد، وتبنيهاً لمواضع الضعف ومما لا يخلو منه بشر، وعذوبةً عبارة، وخفة روح وتنوع مادة. كان من سوء حظي أنني ما قدر لي أن أستفيد من والدي مباشرة لصغر سنّي ولكن رحم الله والدي، وأغدق عليه شأبيب رحمته إذ ترك لنا ثروة علمية زاخرة، سنحت - بفضلها - لنا فرصة للاستفادة من علمه ومجهوده طيلة حياتي"³.

ونجد أن العلامة عبد الحي الحسني لا يقتصر في كتابته لتاريخ الأدب على الترجمة وأخبار المترجم، أو على سرد الحقائق والوقائع التاريخية، بل يقدم آراءه النقدية في بعض الأمور التي أثّرت فيها الشكوك وحامت حولها الشبهات، فقام بتحليلها تحليلًا دقيقًا يظهر براعته في فن التاريخ، ولاريب أن كتابة التاريخ والسير وتراجم الرجال تحتاج إلى بحث عميق ودراسة متأنية لكي تتجلى المحاسن والمعائب وتظهر الصورة الحقيقية، وكل ذلك يتطلب التفحص عن الأحداث التاريخية ونقدها، ولذا استخدم العلامة عبد الحي الحسني ملكته النقدية لتحقيق الوقائع واستخراج الحقائق عن شخصيات التراجم، إذ كان العلامة يؤمن تماماً بأن التاريخ يجب أن يكون بريئاً من الترهات والأباطيل، ونقدم فيما يلي بعض النماذج في هذا الصدد لتدعيم هذا الرأي فيقول مثلاً في ترجمة شاه عالم بهادرشاه الدهلوي :

"الملك الفاضل الحليم محمد معظم بن أورنك زيب التيموري شاه عالم بهادرشاه بن عالمكير الدهلوي سلطان الهند..... ولكنه كان سيئ التديبير والسيادة، غلب في عهده عظيم "المرهته" فتغلب على أكثر بلاد المسلمين فسلم له شاه عالم ريع الخراج من بلاد "الدكن" وهو أول وهن ظهر منه فأدى إلى زوال شوكته ثم انقراض ملكه من أولاده. وكان عادلاً رحيماً بارعاً في العلوم لم يزل يشتغل بمطالعة الكتب والمذاكرة، وكان شيعياً أمر أن يدخل في خطب الجمع والأعياد لفظ الوصي عند ذكر سيدنا علي المرتضى - كرم الله وجهه - فارتفع الصخب وكثر الضوضاء بمدينة "لاهور" فأمر بإحضار العلماء بين يديه وباحثهم في ذلك وقرأ بعض ما روي في إثبات الوصاية لسيدنا علي - رضي الله عنه - وبعض أقوال الفقهاء

والمجتهدين في ذلك حتى كثر اللغط ورغب الناس كافة إلى العلماء سرا حتى أن ولده عظيم الشأن أيضا مال إليهم، فلما علم السلطان رغبة الناس أمر أن يرجع الأمر إلى الأول حسبا كان جاريا في عهد عالمكير. مات في التاسع عشر من المحرم سنة أربع وعشرين ومائة وألف⁴.

اعتنى المؤلف رحمه الله اعتناء كبيرا بتصريح سني المواليد والوفيات بالتقويم الهجري النبوي وقد ذكرنا هذه التواريخ بالكلمات وقام بترتيب تراجمه حسب الأسماء والأنساب وتاريخ الولادة واسم الوطن، ثم صرح بالتعليم والمرحلة الدراسية، والوفاة ومكان الدفن ثم الخصائص المميزة، وأخلاق المترجم وأثاره.

وكان رزق الله المؤلف دقة الملاحظة وعمق النظر ومتانة الفكر وسلامته، فكان يضع الرجل في طبقته ويصفه بصناعته، فقد اقتدى فيه بابن خلكان في الدقة والاقتصاد، ووضع الرجال في منازلهم، مثلا يعرف شخصية الملك المغولي شاجهان كمايلي :

"السلطان الفاضل الباذل شهاب الدين محمد شاهجهان بن جهانكير بن أكبر شاه الكوكاني ملك ملوك الهند"⁵.

وكذلك يقول في مفتح ترجمة المحدث الشيخ عبدالحق بن سيف الدين البخاري:

"الشيخ الإمام العالم العلامة المحدث الفقيه، شيخ الإسلام، وأعلم العلماء الأعلام، وحامل راية العلم والعمل في المشايخ الكرام، الشيخ عبدالحق بن سيف الدين بن سعد الله البخاري الدهلوي المحدث المشهور"⁶.

والجدير بالذكر أن المؤرخين لتراجم الرجال وأحوالهم لم يلتفتوا إلا قليلاً إلى تحقيق الحوادث ونقدها حتى بدت كتاباتهم كأنها محشوة بالخوارق ومكشوفات الصوفية والسير التي لا يظهر منها شيء حقيقي من الحياة، فكان هذا النقص عاما في أكثر تراجم علماء الهند ، هذا، وإن دلّ على شيء فإنما يدلّ على الإبهام والغموض والضعف في الفن إلا أن العلامة عبدالحق الحسني قد قام بتحقيق الوقائع

العلامة عبد الحي الحسني الذي عرف الهند إلى العالم العربي

واستخراج الحقائق عن شخصيات التراجم فكتابه "نزهة الخواطر" أصبح موسوعة تاريخية كبيرة تشتمل على تراجم العلماء والأدباء والشعراء والسلاطين والمشائخ الهنود، ويمتاز من بين جميع كتب التاريخ والسير والتراجم التي ألّفت داخل الهند وخارجها بغزارة مادته وأتزانه واعتداله في التقيد والتقريب وذلك لأنه لايتحيز إلى فئة من فئات المسلمين ولا يفضل عصرا على عصر آخر، ولذا نجد في هذا الكتاب ذكر الأعيان والمشاهير الهنود من أول عهد المسلمين حتى سنة وفاة المؤلف فيعدّ هذا الكتاب تحفة غالية ودائرة معارف في تراجم الشخصيات الهندية البارزة يكاد لا يوجد لها مثيل في المكتبات التاريخية الحديثة.

أمّا كتابه "معارف العوارف في العلوم والمعارف" الذي اشتهر فيما بعد بـ"الثقافة الإسلامية في الهند" فهو أيضاً كتاب لا يوجد نظيره في موضوعه ودليل مستوعب لإنتاج علماء الهند في مختلف العلوم الإسلامية والأدبية عبر القرون والأجيال، بحث المؤلف في مقدمته عن مناهج التعليم في هذه البلاد وما حدث فيها من التغيير في كل عصر منذ أن فتح المسلمون الهند إلى عصر المؤلف، وألقى ضوء وافياً على تاريخ النشاطات الدينية والأوساط العلمية والأدوار التربوية في القرون المتتالية. ثم قسمه إلى أربعة أبواب وخاتمة. فالباب الأول في علوم اللغة والأدب والتاريخ وفيه تسعة فصول تشتمل على فن النحو والصرف واللغة والبلاغة والعروض والشعر والتاريخ والسير والطبقات والجغرافيا. والباب الثاني في العلوم الشرعية وفيه سبعة فصول تشتمل على علم الفقه وأصوله، والفرائض والحديث والتفسير والتصوف والكلام. والباب الثالث في العلوم العقلية والفنون النظرية، وفيه ستة فصول تشتمل على آداب المناظرة، والمنطق والطبيعات والرياضة والسياسة المدنية والطب. أمّا الباب الرابع فهو في الشعر والشعراء الهنود وفيه أربعة فصول تشتمل على معنى الشعر وتقسيمه، والشعر الفارسي والأردني والهندي ثمّ الخاتمة في أسماء بعض الكتب العلمية المنقولة من الكتب الدينية والتاريخية والطبية.

أوضح العلامة الحسني في هذا الكتاب أهمية توافد المسلمين على الهند إذ جعلوها بعد الاستيطان فيها مركزاً هاماً للعلوم والفنون، خاصة بعد أن انعكست أشعة العلم على الهند من جهة خراسان وماوراءالنهر فأصبح هذا الكتاب غزير المادة في هذا الموضوع، وخالصة دراسات طويلة واسعة دقيقة، وقد طبعه المجمع العلمي العربي بدمشق باسم "الثقافة الإسلامية في الهند". ومما لا يرب فيه أن استعراض هذا الكتاب "الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام" يعكس بوضوح المنزلة التي كانت تحظى بها الهند في الأوساط العلمية والخدمات التي قام بها علماءها وأدباؤها في تنشيط حركة التأليف والنشر باللغة العربية. يقول المؤلف - رحمه الله - في مقدمة هذا الكتاب :

" تصفحت كتباً كثيرة من تاريخ الملوك والشعراء وطبقات المشايخ ومكتوباتهم وملفوظاتهم وأخذت شيئاً شبيهاً منها حتى أحطت بمالم يحط به أحد قبلي"⁷.

ألقى العلامة الحسني ضوء على الأدب العربي في شبه القارة الهندية فقال:

" فمن أدياء الهند الشيخ سعد بن مسعود بن سلمان اللاهوري ، وهو أول من برع في العلوم العربية من أهل الهند، وأكثر في الشعر وجمع ديواناً له.

ومنهم الأمير خسرو بن سيف الدين الدهلوي، فإنه مع براعته في لغة الفرس كان ماهراً بالعلوم العربية من النحو والمعاني والبيان والبديع والعروض والقافية وغيرها ومن مستخرجاته نوع في البديع ، وله أبيات رائقة بالعربية منها قوله :

يا عاذل العشاق دعني باكياً ان السكون على المحب محرم

من بات مثلي فهو يدري حالتي طول الليالي كيف بات متيم"⁸

وذكر الشيخ تاريخ كل فن مطلقاً، ثم ذكر تاريخ الفن في الهند و ما وضع فيه علماء الهند من الكتب ، ومن برع فيه منهم، مثلاً عرفنا بعلم التاريخ والسير والطبقات فقال:

"علم التاريخ هو معرفة أحوال الطوائف وبلدانهم ورسومهم وعاداتهم وصناعة أشخاصهم وأسابهم ووفياتهم إلى غير ذلك ، وموضوعه أحوال الأشخاص الماضية

العلامة عبد الحي الحسني الذي عرف الهند إلى العالم العربي

من الأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء والملوك والشعراء وغيرهم، والغرض منه الوقوف على الأحوال الماضية، وفائدته العبرة بتلك الأحوال والتنصح بها وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن ليحترز عن أمثال ما نقل من المضار ويستجلب نظائرها من المنافع ، وهذا العلم كما قيل عمر آخر للناظرين والانتفاع بمنافع تحصل للمسافرين.⁹

واستعرض ورود علم الحديث النبوي الشريف في بلاد الهند فملخصه كما يلي :
"اعلم أن محمد بن القاسم الثقفي فتح بلاد السند في عهد الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي وتمكنت فيها دولة العرب كسائر البلدان ودخلها أتباع التابعين ورجال من أهل بيت النبي - صلى الله عليه وسلم - مخافة الخلفاء من الأمويين وبنو العباس وتتابع الناس بعد ذلك من أهل العلم وسكنوا بها وتوالدوا وتتاسلوا وسافروا من بلاد إلى بلاد أخرى وأخذوا الحديث ورووها بالحفظ والإتقان مدة أربعة قرون وسارت بمصنفاتهم الركبان إلى الآفاق، أشهرهم إسرائيل بن موسى البصري نزيل الهند ومنصور بن حاتم النحوي وإبراهيم بن محمد الديلمي. ولما انقرضت دولة العرب من بلاد السند وتغلبت عليها الملوك الغزنوية والغورية، وتتابع الناس من خراسان وماوراءالنهر، صار الحديث فيها غريبا كالكبريت الأحمر حتى من الله تعالى على الهند بإفاضة هذا العلم، فورد به بعض العلماء في القرن العاشر كالشيخ عبد المعطي بن عبد الله باكثير المكي المتوفى بأحمدآباد سنة 989هـ والشهاب أحمد بن بدر الدين المصري المتوفى بأحمدآباد سنة 992هـ ثم وفق الله سبحانه بعض العلماء من أهل الهند أن رحلوا إلى الحرمين الشريفين وأخذوا الحديث وجاءوا به في الهند وانتفع بهم خلق كثير كالشيخ عبد الله بن سعد الله السندي والشيخ رحمة الله بن عبدالله بن إبراهيم السندي المهاجرين إلى الحجاز فإنهما قدما الهند ودرسا بغجرات مدة طويلة ثم رجعا إلى الحجاز، والشيخ يعقوب بن الحسن الكشميري المتوفى سنة 1003هـ، والشيخ جوهر الكشميري المتوفى سنة 1026هـ. ثم جاء الله سبحانه بالشيخ عبدالحق بن سيف الدين البخاري الدهلوي المتوفى سنة 1052هـ ، وهو أول

من أفاضه على سكان الهند ، وتصدى للدرس والإفادة بدار الملك دهلي، وقصر همته على ذلك وصنّف وخرّج ونشر هذا العلم على ساق الجد ، فنفع الله به وبعلمه كثيراً من عباده المؤمنين حتّى قيل إنه أول من جاء بالحديث بالهند وذلك غلط كما علمت. ثمّ جاء الله سبحانه بالشيخ الأجل والمحدث الأكمل ناطق هذه الدورة وحكيمها وفائق تلك الطبقة وزعيمها الشيخ ولي الله بن عبدالرحيم العمري الدهلوي المتوفى سنة 1176هـ ، فإنه رحل إلى الحجاز وأخذ عن الشيخ أبي طاهر وعن غيره من أئمة الحديث، ورجع إلى الهند، وشرّع عن ساق الجد والاجتهاد لنشر ذلك العلم، فدرّس وأفاد، وخرّج وصنّف، وقد نفع الله بعلمه كثيراً من عباده المؤمنين، ونفى بسعيه المشكور من فتن البدع ومحدثات الأمور، لأنه بنى طريقته على عرض المجتهدات على الكتاب والسنة، وتطبيق الفقهيات بهما، وقبول ما يوافقهما من ذلك، وردّ ما لا يوافقهما كائناً ما كان ومن كان¹⁰. وهكذا يستمر المؤلف في ذكر كثير من علماء الحديث النبوي من أهل الهند.

وبعد ذلك استوعب مصنفات أهل الهند في الحديث الشريف فيقول في البداية :
 "أما مصنفات أهل الهند في الحديث الشريف وأصوله وما يتعلق به فهي كثيرة، أشهرها مشارق الأنوار للشيخ الإمام حسن بن محمد بن الحيدر الصغاني اللاهوري وهو مقبول متداول في أيدي الناس، ومصباح الدجى في حديث المصطفى والشمس المنيرة كلاهما للشيخ حسن بن محمد المذكور ... وكنز العمال في سنن الأقوال والأفعال للشيخ علاء الدين علي بن حسام الدين المتقي الهندي المهاجر إلى مكة المشرفة المتوفى سنة 975هـ، وهذا الكتاب في أربع مجلدات، رتب فيه جمع الجوامع للسيوطي ، كترتيب جامع الأصول، ومنهج العمال في سنن الأقوال للشيخ علي المتقي المذكور رتب فيه الجامع الصغير للسيوطي"¹¹.

وبعد استيعاب مؤلفات العلماء الهنود في الحديث النبوي الشريف ذكر المؤلف جهودهم مستقلاً في كلّ من الأربعينات، وشروح المؤطا، وشروح صحيح البخاري، وشروح ثلاثيات البخاري، وشروح صحيح مسلم، وشروح جامع الترمذي، وشرح

العلامة عبد الحي الحسني الذي عرف الهند إلى العالم العربي

السنن لأبي داود، وشرح السنن للنسائي، وشرح السنن لابن ماجه، وشرح الشرائع للترمذي، وشرح مشكاة المصابيح، وشرح مشارق الأنوار، وشرح الحصن الحصين، وشرح بلوغ المرام، وشرح الأربعين للإمام النووي، وشرح عين العلم، وشرح غنية الطالبين، وكتاب الآثار للإمام محمد، ومصنفاتهم في غريب الحديث، ومصنفاتهم في الموضوعات، ومصنفاتهم في التخريج، وكتبهم في أصول الحديث، وكتبهم في أسماء الرجال، وفي الأسانيد. وكل ذلك ذكره العلامة بإسهاب وتفصيل. وكذلك شأنه في جميع الأبواب والفصول.

ويلقي الأستاذ الطنطاوي ضوء على أهمية هذا الكتاب في ذكرياته حيث يقول: "وقرأت الكتابين اللذين وصلا إليّ ممّا ألفه والد السيد أبي الحسن، كتاب "تزّهة الخواطر" الذي جمع فيه من سير أعلام الهند، ومن نشأ فيها، ما لم يجمعه كتاب غيره، فهو يغني في هذا الباب عن كل كتاب ولا يغني عنه كتاب، وكتابه الآخر الذي نشره المجمع العلمي في دمشق وسماه المجمع (ثقافة الهند) والذي أودعه المؤلف ما لا يستطيع مثلي أن يجده في خزنة كاملة، يكتب عليه، يطالع ما فيها"¹².

أما كتابه "جنة المشرق ومطالع النور المشرق" الذي اشتهر فيما بعد بـ "الهند في العهد الإسلامي" فهو في الحقيقة كتاب الخطط والآثار الذي تتباهى به الهند في مجموع كتب الخطط التي ألّفت عن مختلف البلدان والأقطار، وإنه عصارة دراسات المؤلف الطويلة التي استمرت طول حياته. ويبين العلامة غاية تأليفه في المقدمة فيقول:

" وإنني لم أقصد بتأليفه، ولا جهدت نفسي لتصنيفه لهواً، ولا لعباً، ولا رغبةً سرت إليها، ولا رهياً، ولكن رأيت التصدي له واجباً، والانتداب له مع القدرة فرضاً لازماً، مع أنّ الوطن المألوف بمنزلة الأمّ، لها حقّ لا يضاع، وإليها حنين لا ينكر، فوجب لذلك علينا إعلام المسلمين بما علمناه، وإفادتهم بما أفادنا الله بفضلته فأنتقناه"¹³.

قسم المؤلف هذا الكتاب إلى ثلاثة فنون، **فالفن الأول** في جغرافية الهند وفيه مقدمة في الألفاظ المتكررة في ذكر الأقاليم والبلدان، وأربعة أبواب، ذكر فيها جغرافية الهند وموقعها الأرضي، وجبال هذه البلاد وأنهاؤها وهواءها وحاصلاتها الزراعية والمعدنية وأشجارها ونوادرها وحرف أهلها وأديانها وصناعاتها ولغاتها وبيان حيواناتها وأجناسها، واستقصاء عقاير بلاد الهند والفواكه التي لا توجد خارج هذه البلاد، وأقطاع الهند المشهورة وأشهر مدنها وقراها في الدولة الإسلامية، وتقسيم بلاد الهند إلى الولايات المختلفة.

والفن الثاني في أخبار ملوك الهند وفيه عشرة أبواب ذكر فيها ظهور الإسلام بأرض الهند، واستيلاء الملوك الغزنوية والغورية عليها، ومن ملكوا الهند واتخذوا مدينة دلهي عاصمة حكومتهم، وملوك الولايات الهندية، وكيف تسلط الإنكليز على الهند، وثورة الشعب الهندي للتخلص من سلطة الإنكليز الغاشمة، وأمراء الهند في ذلك الوقت.

وأما **الفن الثالث** فهو في الخطط والآثار وفيه ثلاثة أبواب ذكر فيها خطة الملوك الهنود في الأحكام السياسية، وترتيب العساكر ونظامها، وأهل المناصب ورواتبهم، ونظام المملكة وعادات الملوك الهنود في الجباية والعدل والقضاء، وقصورهم، والأعياد والمواسم، وآداب التحية بين أيدي السلاطين، ثم ألقى الضوء على السنين والشهور والساعات، والنقود والموازين وتقسيم الأرض بحسب المساحة وأصنافها، وأحكام العشر والخراج ومالية الدولة الإسلامية والجوامع والمساجد والمدارس بالهند وما إلى ذلك.

بدأ المؤلف هذا الكتاب وهو يلقي الضوء على جغرافية الهند وموقعها الأرضي، ودخول المسلمين أرض الهند وولاتهم من بدء الخلافة الأموية إلى آخر الخلافة العباسية واستيلاء الملوك الغزنوية والغورية على الهند وتاريخ الملوك والأمراء حتى عصره، و فن الخطط والآثار حيث يرى فيه القارئ صورة واضحة القسمات وظاهرة

العلامة عبد الحي الحسني الذي عرف الهند إلى العالم العربي

الملاحح للعهد الإسلامي الزاهر الذي كان ولا يزال موضع الغفلة والاستهانة عند كثير من مؤرخي المسلمين والمشتغلين بالعلم والدراسات في الجامعات والمجامع العلمية. وينتهي الكتاب بذكر الأمور النافعة التي قام بها الملوك المسلمون، والآثار المعمارية والتحف الفنية التي خلفوها وراءهم، وزينوا بها هذه البلاد من شوارع عامة، وتنظيم البريد، والحياض والأنهار، والحدائق والبساتين، والمستشفيات والملاجئ للفقراء والعجزة، واستطرد المؤلف في هذا الصدد إلى ذكر المقابر العظيمة والمشاهد الأثرية، وذكر النوادر التي صنعها المسلمون في الهند. مثلا يقول العلامة في ذكر الحدائق والبساتين:

" لم يكن بالهند في عهد الهنادك (الهندوس) من الفواكه والأشجار المثمرة غير "الأنبه"، و"الجامن"، و"الكتهل"، و"التمر الهندي" وأمثالها فلما جاء الإسلام، وعمر الملوك الإسلاميون بلادها وقراها وحفروا الآبار والأنهار جلبوا من البلاد البعيدة أثمارا وفواكه وغرسوا أشجارها بأرض الهند وأسّسوا الحدائق والبساتين، فإنك كلّ ما ترى من الفواكه والرياحين في أرض الهند كالنخيل، والتفاح، والخوخ، وأصناف الليمون، وأقسام النارج، والأعنان، وأمثالها من الفواكه فإنها من آثار الملوك الإسلاميين، والأمراء فإنهم اعتنوا بها أشدّ اعتناء حتى صارت الهند كلها حديقة غناء، ممثلة من أصناف الفواكه وأقسام الرياحين لا يقدر أحد منا أن يضبط ذلك ويحصر ولو كان مؤرخا كبيرا، وبارعا في التاريخ والجغرافيا"¹⁴.

ويذكر العلامة الحسني الجوامع والمساجد بالهند فيقول:

"اعلم أن الملوك الإسلاميين قد أسّسوا الجوامع والمساجد بالهند ولا تكاد تضبط كثرة، وكذلك الأمراء، قد أسّسوا في كل بلدة، وعمالة، وقرية وبذلوا عليها أموالا طائلة، لا يقدر أحد أن يضبط كل ذلك، فلنذكر المعروف هاهنا، ولنطو ذكر الباقي، فأول جامع أسس بمدينة دهلي - على ما أحفظ - الجامع الذي يسمونه قبة الإسلام أو قوة الإسلام، بناه قطب الدين أيبك سنة 587هـ. شرع في بناء الجامع الكبير بأمر السلطان شهاب الدين الغوري من حمر الحجارة المنحوتة أبدع نحت، ثم لما ولي

الملك بعده شمس الدين أيلتمش (النتمش)، أضاف إلى جانبه أبنية كثيرة من بيض الحجارة، وفي أحد جانبيه المنارة العظيمة، لا يكاد يوجد مثلها في الدنيا في الحسن والامتانة¹⁵.

ولذا يعتبر هذا الكتاب موسوعة صغيرة للعهد الإسلامي في الهند إذ تتجلى فيه صورة العهد الإسلامي في الهند بكل جلالها وجمالها، وبمنظرة واحدة يتبلور لنا جميع مآثر الملوك المسلمين وأهل الفن والصناعة الحضارية والبنائية والإدارية، وهو أيضا كتاب الخطط والآثار التي تتباهى بها الهند بين كتب الخطط التي ألفت من مختلف البلاد والأقطار ويطلعنا هذا الكتاب على جغرافيا الهند وموقعها في الكرة الأرضية وما يتعلق بها من الأحوال والأخبار بما في ذلك ذكر منتجات ومعادن الهند الثمينة. وبجانب ذلك، له مؤلفات أخرى في العربية و الأردية يبلغ عددها ستة عشر كتابا أهمها "تلخيص الأخبار" الذي اشتهر فيما بعد "بتهذيب الأخلاق" في الحديث النبوي الشريف و"كل رعنا" في تاريخ شعر اللغة الأردية وشعرائها الذي لقي بالقبول الحسن وقررتة عدة جامعات للتدريس في الدراسات الأدبية العليا، و "ياد أيام" في تاريخ ولاية غجرات، وحضارتها وعهدها الذهبي الإسلامي، وهو نموذج رائع لتدوين التاريخ على النمط العلمي المفيد، ومثال جميل للتعبير الأدبي التاريخي.

وقد أشاد العلامة محمد تقي الدين الهلالي الحسيني المغربي - رحمه الله - بفضل العلامة عبد الحي ونوه بنصاعة بيانه إذ يقول في رسالة موجهة إلى تلميذه الشيخ أبي الحسن الندوي :

"أما ما شهدت به وأعجبت به من علم والدكم، وفصاحته، وحسن تصنيفه وبلاغته وجمال أسلوبه، فقد جاء عفوا، ولم أقصد به المدح والثناء وسرني مجيئه في الوقت المناسب، والعجب من الذين شكوا في علمه وتحقيقه، ولا شك أن الحامل لهم على ذلك هو قصورهم في اللغة العربية"¹⁶.

العلامة عبد الحي الحسني الذي عرف الهند إلى العالم العربي

وقد صدق الدكتور السيد قدرت الله الحسيني في كتابه "العلامة السيد عبد الحي الحسني مؤرخ الهند الأكبر ومن كبار مؤلفي القرن الرابع عشر الهجري" حين قال فأجاد:

"وإذا نظرنا إلى حياته العلمية وجدنا أنه ابتكر كثيرا من الأمور العلمية التي لم يلتفت إليها العلماء والأدباء من قبل، فهو أول عالم كتب تاريخ الحياة العلمية والعقلية لمسلمي الهند، وجمع أحوال علماء الإسلام الذين نبغوا في الهند، جمع تراجمهم وأحوالهم ، ونقد مؤلفاتهم حتى أصبح كتابه "نزهة الخواطر" (1-8) موسوعة علمية كبيرة مشتملة على آلاف من الصفحات، محتوية على تراجم نحو خمسة آلاف، ولا يوجد كتاب في هذا الموضوع مثله، وهو المرجع الوحيد الكبير لأهل العلم والتحقيق في هذا الموضوع. أما كتابه "الثقافة الإسلامية في الهند" فهو أيضا كتاب لا يوجد نظيره في هذا الموضوع، فهو للهند ككتاب "كشف الظنون" للجلبلي وهو دليل مستوعب لإنتاج علماء الهند في مختلف العلوم الإسلامية والأدبية عبر القرون والأجيال ، ويليه كتاب "الهند في العهد الإسلامي"، فهو حلقة ذهبية في سلسلة كتب الخطط والآثار التي وضعت لمختلف البلاد والأقطار"¹⁷.

وفي نهاية المطاف، لا يمكننا إلا أن نقول إن الله سبحانه وتعالى كما قيض للأندلس الإسلامية مؤرخا وصافا وأديبا رساما وهو محمد لسان الدين بن الخطيب الذي ألف كتابه الفريد "الإحاطة في أخبار غرناطة" في ثلاثة أجزاء، والعلامة أحمد المقرئ المغربي الذي ألف "نفح الطيب لغصن الأندلس الرطيب" ، وكما قيض لمصر العربية العلامة تقي الدين أحمد بن علي المعروف بالمقريزي الذي ألف كتابه العظيم "كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار" المشهور بخط مصر في جزئين، وبلاد الشام ابن عساكر الذي ألف كتابه الشهير "تاريخ دمشق"، والأستاذ محمد كرد علي الذي ألف كتابه القيم "خطط الشام" ، كذلك قيض سبحانه وتعالى لشبه القارة الهندية مؤرخا مثاليا وكاتباً قديراً وهو العلامة الطيب عبد الحي الحسني الذي ألف "نزهة الخواطر" في تراجم أعلام المسلمين الهنود عبر القرون

الهجرية من القديم إلى الحديث و "الهند في العهد الإسلامي" في تاريخ الهند الإسلامية وجغرافيتها وخطتها وآثارها، و"الثقافة الإسلامية في الهند" في تاريخ العلوم الإسلامية في الهند وإنتاج المسلمين فيها وكل كتاب من هذه الكتب الثلاثة موسوعة في ذاته فأولها موسوعة ضخمة شاملة لأربعة عشر قرناً، ولأكثر من خمس مئة وأربعة آلاف ترجمة للمسلمين الهنود. أما ثانيها وثالثها فهما أيضاً موسوعتان ولكنهما صغيرتان في الكمية وكبيرتان في الكيفية، وتقدمان معلومات وفيرة يعجز عنها كتاب آخر يشبههما في الكمية. ويمكن أن نقول بعد هذا التفصيل إنه كان ابن خلكان الهند في فن التراجم وحاجي خليفه جلي في استعراض التاريخ والمقريزي في وصف البلاد.

فخلاصة القول إننا نجد في الهند شخصيات بارزة في اللغة العربية في كل عصر مثلاً العلامة السيد غلام علي البلكرامي، والأمير صديق حسن خان بهوبالي، والدكتور زبيد أحمد، والقاضي أظهر المباركبوري وغيرهم الذين ألفوا كتباً قيمة باللغة العربية وقاموا بأعمال بحثية وتأليفية فيها، لكن العلامة عبدالحق الحسني فاقهم بتأليف كتب موسوعية لم يؤلف مثلها حول الهند قديماً وحديثاً فلم يزل ولا يزال ينتفع بها أجيال من الباحثين والمثقفين والمتعلمين، ولا يستغني عنها أحد ممن يريد البحث عن تاريخ الهند ورجالها وعلومها وفنونها.

الهوامش:

- 1- الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي : حيات عبد الحقي (باللغة الأوردية)، مجمع الإمام احمد بن عرفان الشهيد، راي بريلي ، 2004 م، ص141.
- 2- الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي : شخصيات وكتب أثرت في حياتي ، دارالقلم، دمشق، 1410هـ/1990م، ص8.
- 3- المرجع السابق، ص159-160.
- 4- الشيخ عبدالحق الحسني: الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، دار الحزم، بيروت، لبنان، 1999م، ص 6/729.

العلامة عبد الحي الحسني الذي عرّف الهند إلى العالم العربي

-
- ⁵ - المرجع السابق، ص 536/5.
- ⁶ - المرجع السابق، ص 5/553.
- ⁷ - الشيخ عبدالحى الحسني: الثقافة الإسلامية في الهند، مجمع اللغة العربية، دمشق 1983م، ص 9.
- ⁸ - المرجع السابق، ص 44.
- ⁹ - المرجع السابق، ص 57.
- ¹⁰ - المرجع السابق، ص 135-142.
- ¹¹ - المرجع السابق، ص 142.
- ¹² - الشيخ عبدالحى الحسني: الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، ص 6 نقلا عن "الذكريات" للأستاذ الطنطاوي: ص 106/8
- ¹³ - الشيخ عبدالحى الحسني: الهند في العهد الإسلامي، مجمع الإمام احمد بن عرفان الشهيد، رائي بريلي، 2001م، ص 29.
- ¹⁴ - المرجع السابق، ص 343.
- ¹⁵ - المرجع السابق، ص 349.
- ¹⁶ - السيد محمد الرابع الحسني الندوي: رسائل الأعلام، مطبعة ندوة العلماء، لکنؤ، 1984م، ص 28-29.
- ¹⁷ - السيد قدرة الله الحسيني: العلامة السيد عبد الحي الحسني مؤرخ الهند الأكبر ومن كبار مؤلفي القرن الرابع عشر الهجري، دارالشروق للنشر والتوزيع والطباعة، جدّة، 1983م، ص 29-30

*

**

:

{...كنت حديثة السن حين قدمت بيتها كما ذكرت لكم. عشقت بيغم جان كما كنت حبيبة لديها. وتصادف أن شددت أُمي الرحال إلى آخرة و بما أن كانت تعرف أنني سأتشاجر مع أشقائي طول الوقت و أتسكع هناك وهناك، فأرسلتني إلى بيغم جان. طرت فرحا وانبسظت هي كذلك. وهنا طرح السؤال: أين أنام؟ في غرفة بيغم جان طبعاً..... ففرش سرير صغير لصق سريرها وقبل أن آوي إلى فراشي جرت المحادثات بيننا حتى الحادية عشرة في الليل، لعبنا خلالها لعبة الورقة، وريو ماانفكت تحك ظهرها، "ما أقبحها!"، فكرت في قلبي...}.

كلما تغطيت باللحاف في الشتاء شعرت بأشباحه تتهادى على الجدران المجاورة كالأفيال وهرول ذهني على خط الذكريات إلى الوراء..... طرقت رأسي ذكريات غريبة مضحكة.

سامحك الله! لا تظن بي الظنون. فلست أنوي الحكاية عن ذكريات رومانسية للحافي أنا، وهل تمت الرومانسية إلى اللحاف بصلة؟ أظن أن البطانية ولو مريحة لا تكون أشباحها مخيفة كأشباح اللحاف إذا ترنحت على الجدران. كنت في سن مبكرة في تلك الأيام. أفني كل أوقاتي في شجار وعراك مع أشقائي وأصدقائهم. أحيانا أفكر "تبا لي! لماذا كنت مشاكسا إلى ذلك الحد!..... في وقت كانت

* قاصة وروائية شهيرة باللغة الأردوية

** باحث، مركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهر لال نهرو، نيودلهي، الهند.

الملحاف

شقيقتي يجمعن العاشقين كنت أنا أضيع أوقاتي الثمينة من عمري في مشاجرات مع كل ولد وبنت من الأقرباء أو من الأجانب.

ولهذا السبب وحده، تركتني أمي عند سيدة حين قصدت الذهاب إلى "آغره" لأسبوع. كانت تبنتها أختا لها وكانت تعرف جيدا بأن لا توجد في بيتها حتى فارة صغيرة، فلن أجد متسعا للعراك. ما أشد العقاب! هذه هي السيدة المسماة ببيغم جان" التي علقت ذكرى لحافها بذهني كوصمة الحديد المسخن. وكان اختار أبواها الفقيران السيد الأمير زوجها لها، لأنه كان ناضجا سنا وعقلا. نعم كان غاية في الكرامة، لم تلوث عتبهته أقدام مومس أو فاجرة قط. كان متشرفا بأداء فريضة الحج وساعد الكثيرين في الحصول على هذا الشرف كذلك. بيد أن كانت له هواية مثيرة للغرابة. وللناس مذاهب في الهواية. يمارس بعضهم هواية إقتناء الحمامات، ويحب البعض الآخر لعبة مصارعة السمان والديوك. ولكن عافت نفس النواب من أمثال هذه الهوايات والألعاب..... سكن في بيته كثير من الطلاب ذوي البشرة البيضاء والخصر الدقيق. وتحمل الأمير كل مصاريفهم. وأما زوجه بيغم جان فكان قد نسيها تماما ضمن كل الأثاث التي وفرها لها في بيته. وذابت المسكينة الهزيلة حزنا وكما من وحشة العزلة.

لا أعرف من أين يبدأ باب حياتها.... منذ أن ساء الحظ أن تولد. أو منذ أن دخلت هذا البيت عروسا للأمير و بدأت حياتها على سرير في زاوية. أو منذ أن تزاحم الطلاب في بيتها، وتلاحقت لهم الأطعمة الشهية والحلويات اللذيذة. وتململت بيغم جان على الجمر حين رأت من شقوق الصالون خصورهم المهترزة في القمصان الفضفاضة العطرة وسيفانهم المكتنزة.

أو منذ أن باعت كل آمالها ونذورها بالفشل، ولم تتجع نفعا التعاويذ والأوراد ليلا في الأمير الذي لم يلن كالحجر الذي يستحيل استخراج الماء منه..... فانكسر قلبها وأقبلت على العلوم ولكن لم يستتم إليها أيضا ولشد ما انهارت نفسها. وزادت عليها هوانا على هوان قراءة الروايات الجنسية والأبيات العاطفية المثيرة. ففقدت

حتى نومها في الليالي، وأمست حزمة من الآلام والحسرات متخفية عن آمالها ووظموحاتها. لا طموح لها في الملابس والزينة. ولمن ترتدي الملابس وتأخذ الزينة؟ فليس عند الأمير وقت لأن يصرف نظره عن القمصان الحريرية ويوجهه إليها ولا سمح لها قط أن تخرج من البيت. منذ أن دخلت هذا السجن، جاء الأقرباء ومكثوا شهورا قبل أن غادروا ولكنها ظلت سجينة طوال الوقت. وازدادت حنقا وتمللا على الجمر حين رأتهم يبذرون أموالا ويستمرؤون الخوالص من السمن ويندفؤون باللحف الدافئة. وكانت هي رغم لحافها المحشو بالقطن الجديد تتقلب وترتجف بالشتاء القارس. وفي كل تقلب، لاحت أشباح اللحاف على الجدران في صور جديدة. غير أن لا شبح كان يكفي أن يمنيها بالحياة. ما أشق الحياة! كانت مقهورة عليها بالنصيب..... ثم بدأت تتمتع بالحياة..... وأمعنت فيها!

أنقذتها "ربو" وكانت على وشك الانهيار. سرعان ما بدأ جسمها الهزيل يخضر. لاحت الحمرة في خدودها، والرونق في وجهها. ونفخ في حياتها روحا تدليك زيت غريب لا تجد وصفته في أية جريدة من أفضل جرائد العالم.

إذا لقيتها أول مرة كانت في الأربعين أو ما يزيد قليلا من عمرها، شبه متمددة في كنية بكبرياء، وكانت ربو تكبس خصرها ملتصقة بظهرها. وشال أرغواني مبسوط على قدميها. تبدو في هيئتها كأنها ملكة من الملكات. أحببت وجهها جما، وراقني أن أرمق إلى وجهها من قرب لساعات. كان لونها أبيض لا تشوبه حمرة. وشعرها حالك السواد. و ظل دائما مشبعا بالدهن. لم يتح لي أن أرى عطلا في مفرق رأسه قط. لم يعجبها أن تميل شعرة من مكانتها من الرأس. عيناها دعجاوان، وتقوس حاجباها بعد أن نتفت شعيرات من فوقهما. جحظت عيناها تحت جفون منتفخة، فبدت كأنها غليظة. كان أجذب شبيء في وجهها شفتيها الملونتين بالحمرة في معظم الأحيان. نبتت خطوط شعيرات رقيقة فوقها. واسترسلت على صدغيها اللمم الطويلة. أحيانا أحسست بشعور غريب تجاه وجهها..... كأنه يماثل وجه الغلمان في حداثة السن.....!

اللحاف

كانت بشرتها بيضاء مثل وجهها، وملساء كأنها محبوكة بالغرز. تكشف عن ساقها فأختلس النظر إلى وميضها. جمعت بين طول القامة ووفرة اللحم فبدت طويلة عريضة. ومع ذلك كانت غاية في تناسب الأعضاء وتراخي العضلات. تزين جسمها يدان بيضاوان وخصر ممثلي.....

فربو كانت تحك ظهرها وتحكها لساعات طوال، حتى أصبح الحك من لوازم الحياة، بل أهم منها.

كانت ربو غير مكلفة بأية خدمة عائلية سوى الجلوس على سريرها وكبس رجلها حيناً، أو رأسها حيناً أو أي عضو آخر حيناً آخر. يذعر قلبي في بعض الأحيان حين أرى ربو تكبس أعضائها أو تدلكها بالزيوت طوال الوقت. لا يمكن لأحد أن يتحمل هذا كله. ولا أستطيع حتى أتصور هذا. أظن جسمي سيفنى ذوبا وعفنا إذا مس أحد جزءا صغيرا من جسدي.

ولم يكن هذا التدليك اليومي ليكيها. فيوم كانت تستحم، بدأ التدليك بالزيوت والدهون التجميلية الفواحة قبل ساعتين من ميعاد الاستحمام. تشعل المجامر وتحرق البخور وتتطلق دورات المساج والتدليك خلف الباب المغلق، ولم يبق عندها إلا ربو، وأما الخادמות الأخريات فيقدمن الأشياء المطلوبة من وراء الباب حانقات متذمرات. والواقع أن بيغم جان كانت مصابة بمرض الحكمة. تتناوبها دوراتها فلا تغني الزيوت ولا الدهون المنوعة. وبحسب الأطباء، لا داء فيها. جسمها كالورقة البيضاء. يُحتمل أن يكون داء تحت البشرة.

"كلا، لقد جن هؤلاء الأطباء. والمصابون بالداء هم الأعداء. رعاك الله، تجري الحرارة في شرايين دماغك". أجابت ربو مبتسمة ورامقة إليها بنظرات لطيفة. وربو هذه كانت قبيحة بقدر ما كانت بيغم جان جميلة، وحمراء بقدر ما كانت بيضاء، كأنها حديد مسخن، تنقط جسمها المفتول المكتنز بقايا من الجدي. يدان صغيرتان ولكن خفيفتان، وبطن صغير مشدود، وشفتان واسعتان ومنتفختان يعلوهما البلبل دائما. تتبعث من جسمها روائح مثيرة للإشمزاز. على وجهها خياشيم منتفخة.

ويدها من الخفة بحيث تنزلقان في غمضة عين من العين إلى الورك، ومنه إلى الفخذ، تسعيان إلى الكعوب. كلما جلستُ عندها ثبتت عيني على يديها؟ أين هما؟ وماذا تفعلان؟

ترتدي بيغم جان الفستان الفضفاض الحيدرآبادي من كارغة مع السروال الغامق اللون، شتاء كان أم صيفا. والمروحة دائما تدور وهي تلف حولها شالا خفيفا. أحبت فصل الشتاء، وأنا أحببت الجو في بيتها في الشتاء. لا تتحرك كثيرا. متمددة على طنفسة، والربو تحك ظهرها وهي تتلذذ بالفواكه. حسدتها الخادومات الأخريات. "لا تكاد تنفصل الداهية منها للحظة. تأكل معها وتجلس معها وحتى تنام معها."

أصبحتا حديث المجالس والمجامع. تعالت الضحكات من ذكرهما وتمطقت الأفواه بالنوادر عنها، ولكنها لم تكن لتلتقي أحدا، ظلت وحيدة مع حكمتها. كنت حديثة السن حين قدمت بيتها كما ذكرت لكم. عشقت بيغم جان كما كنت حبيبة لديها. وتصادف أن شددت أُمي الرجال إلى آغرة و بما أن كانت تعرف أنني سأنتسجر مع أشقائي طول الوقت و أتسكع هناك وهناك، فأرسلتني إلى بيغم جان. طرت فرحا وانبسبت هي كذلك. وهنا قام السؤال: أين أنام؟ في غرفة بيغم جان طبعا..... ففرش سرير صغير لصق سريرها وقبل أن أوي إلى فراشي جرت المحادثات بيننا حتى الحادية عشرة في الليل، لعبنا خلالها لعبة الورقة، وربو ما انفكت تحك ظهرها، "ما أقبحها!"، فكرت في قلبي.

طار نومي فجأة في حصة من الليل وشعرت بالذعر من الظلمة المخيمة في الغرفة. ترنح لحافها في سواد الظلمة فبدأ كأن تحته فيلا.

"بيغم جان" أطلقت صوتا مذعورا.

توقف ترنح الفيل، وانكمش اللحاف.

"ما بك؟ نامي...." جاء صوت بيغم جان.

"أشعر بالخوف" قلت بصوت كصوت الفأرة.

اللحاف

"نامي، فلا داعي للخوف، إقرأ آية الكرسي"
"بدأت أقرأ آية الكرسي ولكن تلكأت عند "يعلم ما بين أيديهم" ولم أعد أقرأ ما
بعده، وإن كنت قد حفظتها تماما عن ظهر قلبي"
"أريد أن أنام بجانبك"
"لا.... نامي في مكانك يا بنتي" قالت بحدة.
سمعت عندئذ أصوات تهامس إثنين، فزاد خوفي. يا إلهي! من هو الثاني؟
"بيغم جان!..... سارق في البيت"
نامي.... يا بنتي!..... لا سارق هنا" انبعث صوت ربو، فأخفيت وجهي في
اللحاف واسلمت نفسي للنوم.

استيقظت في الصباح بذهن خال من أي أثر للمشهد المخيف في البارحة. كم
وهمية أنا منذ البداية. الاستيقاظ ذعرا في الليل، والمشي والهديان في النوم من
حوادث عادية حدثت كل ليلة منذ طفولتي. ظنوا أن بي مسا من الجن. لم أعد
أتذكر شيئا من البارحة. وبدا اللحاف كذلك بريئا في الصباح.
وفي الليلة المقبلة، مرة ثانية. أيقظتني مشاجرات وتهامسات بين بيغم جان وربو
على السرير. لم يستوعب رأسي ماذا جري وبم تمت التسوية؟ أجهشت ربو بالبكاء ،
ثم سمعت أصواتا كأن قطة تلحس الصحون. ولم أدر شيئا، فنمت مذعورا.
ذهبت ربو ذات يوم للقاء ابنها المشاكس الفظيع. بذلت بيغم جان كثيرا
لصالحه: مولت دكانا له، أعملته في قرية، ولكنه لم يستقر ولم يلن. عمل خادما في
بيت الأمير أياما، ثم فر منه لأسباب مجهولة فرارا لم يعد حتى للقاء أمه.
فذهبت ربو للقاءه في بيت قريب لها. لم تردها بيغم جان أن تتركها للحظة،
ولكن استسلمت لإصرارها. لم يستقر لبيغم جان قرار كل اليوم، يكاد يتكسر كل
مفصل من مفاصلها وجعا، ولم يعجبها أن تحكها أو تمسها خادمة أخرى. لم تذق
الطعام وظلت ملولة حزينة طوال النهار.
"أسمحيني أن احكك؟" قلت شوقا أثناء توزيع أوراق اللعبة.



عصمت شغناي

تفحصتني بيغم جان بنظرات كأنها تتأكد من جديتي.
 حككت ظهرها برهة وكانت مستلقية صامتة..... كان من المتوقع أن
 ترجع ربو في اليوم التالي، ولكنها لم تعد. فازدادت بيغم جان انفعالا وتهيجا، وآلمت
 رأسها بكثرة دورات الشأي.
 فبدأت أنا أحكها من جديد، أحك ظهرها..... الذي بدا كلوح الطاولة
 المصقولة..... وظللت أحكها بخفة وشعرت بفرح وكم كنت أفرح بخدمتها!
 "حكي بشدة..... افتحي كل سدود" طلبت بيغم جان.
 "هنا..... هنا فوق الكتف..... آه نعم.....ها.....ها....."
 تهتت سرورا و أعربت عن شعورها بالارتياح.
 "إلى هنا.....". استطاعت يدها أن تمتد إليه. ولكن أردتني أنا أن أحكها، و أنا
 بالعكس انتفخت فخرًا.
 "نعم هنا..... أوه..... تدغدغني أنت... ضحكت هي، وكنت أنا أحكها
 وأحادثها معا.
 "سأرسلك غدا إلى السوق..... ماذا تريدان أن تشتري؟..... تلك الدمية
 المتحركة التي تنام وتستيقظ؟"
 "لا.... لا بيغم جان..... لن أشتري دمية..... لم أعد طفلة بعد!"
 صرخت.
 "لست طفلة؟..... فهل صرت شيخة!" أطلقت ضحكة.
 "لا تحبين الدمية..... إذن إشتري "ببوا"¹..... ولك أن تكسوها بنفسك.....
 وسأعطيك ملابس كثيرة" وعدت و تقلبت.
 "أجل...." وافقتها.
 "هنا....." أمسكت بيدي ووضعتها حيثما شعرت بالحكة. وظللت أحكها
 كالماكيئة غارقة في خيال "ببوا" وظلت هي تتحدث وتتحدث.

اللحاف

"إسمعي!..... عندك فساتين قليلة. سأطلب غدا الخياط ليخيط لك فساتين جديدة. فقد أعطتني أمك الثياب"

"لا أريد الفستان من ذلك الثوب الأحمر. ما أقبحه! كملابس الإسكافي....." كنت أثير ووصلت يدي ولا أعرف إلى أين و أين؟ وإذا بها كانت مستلقية على ظهرها..... أف..... سحبت يدي بسرعة.

"إيه البننت! أين تنظرين؟..... تخشين أضلاعي....." رقصت على شفتيها إبتسامة، وطأطأت أنا راسي خجلا.

"هيا..... إستلقي بجانبني...." جذبتني بيدي وجعلتني أستلقي برأسي على ذراعها.

" كم نحل جسمك! كادت أضلاعك تنفصل من جسمك" بدأت تعد أضلاعي بأناملها.

"أوه....." احتججت.

" لن استلهمك..... " قالت بحدة. " ما أضيق كنزتك!..... ولم تلبس سترتك الدافئة أيضا".

بدأت أتمعج، فغيرت مجرى كلامها وسألت.

"كم عدد الضلوع في جسم إنسان؟"

"تسعة في جانب وعشرة في جانب آخر" أجبت متعثرة مستعينة بما حفظته في المدرسة.

"إنزعي يدك..... واحد..... إثنان..... ثلاثة"

أردت أن أتصل ولكنها شدتني إليها"

بدأت أتلوي وأتسلل.... ففقهت بيغم جان عالية.

والى هذا اليوم حينما أذكر وجهها وقتذاك، يبتابني ذعر شديد: تددت جفونها ثقيلة، وتكثف السواد في شفته العليا، والتمعت قطيرات العرق رغم البرد على شفتيها وأنفها. كانت يدها باردة كالثلج ولكن ناعمة كأنها منزوعة الجلد. نزعت شالها فتألق

جسمها في فستانها الفضفاض من كارغة ككرة العجين. وتراخت أزرار الفستان الذهبية مفتوحة في جانب من نحرها. كان الليل يقبل من وراء شفق المساء وبدأت الظلمة تنتشر جناحها على الغرفة. فركبتي وحشة غريبة هلعا من عيون بيغم جان الغائرة. وبكيت في القلب وكانت تضغطني كأني ألعوبة من الطين. ضاق قلبي وبدأت أشعر بالتقزز من حرارة جسمها السخين، ولكنها كانت كأن مسها الجنون. وأصبحت أنا لم أقدر لا على الصراخ ولا البقاء على حالي الذي كنت فيه. وبعد قليل انهارت منهوكة مضنية، مصفرة الوجه وممتعة اللون، تنتفس أنفاسا طويلة. خيل إلي أنها على وشك أن تموت، فوليت هاربا خارج الغرفة.

وأثقتني ربي أن عادت ربو تلك الليلة، وأسرت خوفا إلى الفراش متغطية باللحاف، ولكن لم أستطع أن أنام، وظللت ساهرة لساعات طوال. لم تعد أمني من آغره بعد، وكم اشتقت إلى عودتها! وكم كنت خائفة من بيغم جان! قضيت اليوم كله مع الخادمت وشعرت بأن يفارقني روعي إذا دخلت غرفتها. ولم أستطع أن أقول شيئا لأحد. وماذا سأقول؟ أن أشعر بالخوف من بيغم جان..... التي تقديني بنفسها وروحها.

كان من سوء حظي أن نشب شجار من جديد ذلك اليوم بين بيغم جان وربو. فاقشعر جسمي لأنها تذكرتني تلك الليلة..... تذكرت أنني أروم في الخارج في البرد وخشيت أن يصيبني التهاب رئوي (Pneumonia) فأموت.

"أيا بنت! تريدان أن تخزيني على رؤوس الأَشهاد؟ لو أصابك سوء لكان كارثة لي"

أجلستني بقرب منها وكانت تغسل وجهها وأيديها في الطست، ولوازم الشاي على الخوان.

"إصنعي الشاي وأعطيني فنجانا حال ما أغير ملابسي" طلبتني وهي تمسح وجهها بالمنشفة.

الللحاف

كانت تغير لباسها وأنا أحتسي الشاي. وكنت من قبل إذا طلبتني لأمر وهي في أثناء حك جسمها، ذهبت إليها منكسة الرأس وهربت كذلك بعد إنهاء العمل. والآن كانت تغير لباسها أمامي فارتجف جسمي وارتشفت الشاي مولية عنها. "يا أماه!" استغاث قلبي. ما أشد العقاب! أشد من الجريمة..... جريمة الشجار مع الإخوة. دائما كرهتني أمي أن ألعب مع البنين. فهل هم ضوراي يلتهمون عزيزتها؟ ومن هولاء البنون؟ الأشقاء أنفسهم ويضع أصدقاءهم المهزولين الحقار. غير أنها كانت تؤمن بمبدأ انعزال تام للبنات عن البنين..... ولكن هنا بيغم جان كانت أشد تخويفا لي من أوغاد العالم بأسره. لو استطعت لهرت إلى الشارع..... وإلى المكان البعيد..... ولكن كنت مغلوبة على أمري فظللت جالسة على الرغم مني مقهورة حانقة .

أخذت الزينة الفاخرة بعد تغيير اللباس، وبللت نفسها بعطور فواحة زادت روائحها التهابا كالجمر المتضرمة....ثم بدأت تغمرني بشأبيب حبها الغزير . "أريد الذهاب إلى البيت" كان جوابي المتكرر لكل كلمة نسبت بها ولكل رأي أعربت عنه، وبدأت في البكاء.

"هلمي إلي..... أقربي مني..... سأذهب بك إلى السوق"
أفلت من بين يدها كالبرايم وألححت على عودتي إلى بيتي على الرغم مما كومت حولي من الحلويات والألاعب.

"يوسعك إخونك ضربا هناك.... يا سعلاة!" ربتني على خدي بحنان.
"دعهم يضربوني....." قلت في نفسي متظاهرة بالسخط والزهو.
"لشد ما تحمض المانجو الفجة" ارتأت ربو حانقة ملتية.
ثم ركبها الجنون. فتكسرت القلادة الذهبية التي كانت تكسوني قبيل دقائق، وتمزق الخمار الرقيق وتكدست الأشعار في مفرقها الذي لم أر فيه عطلا من قبل.
"أوه..... أوه..... آه..... أو" صرخت وصاحت منتفضة..... وجريت أنا إلى الخارج.

وبعد حيل كثيرة، أفاق بيغم جان. وفي الليل حينما أطلت خلسة في الغرفة للنوم وجدت ريو تكبس جسمها ملتصقة بخصرها.

"إخلعي الحذاء" قالت لي وهي تحك أضلاعها..... فبسرعة قفزت إلى الفراش واختفيت تحت اللحاف كالفأرة.

وها في الليل "سر...سر كت كج....." كان لحافها يترنح من جديد كالفييل في سواد الليل.

"يا إلهي!...." أطلقت صوتا خافتا.

قفز الفييل تحت اللحاف وسكن، وسكن أنا أيضا.

أعاد الفييل حركته مرة أخرى، فارتجفت أعصابي كلها، وقد صممت الليلة التجروء على إشعال المصباح المثبت في ناحية رأس السرير. وما انفك الفييل ينتفض تحت اللحاف كأنه يحاول الجلوس القرفصاء. وطرق مسامعي صوت اللحس كأن أحدا يستمرئ مخللات شهية.

اوه..... فهمت الآن. لم تتناول بيغم جان الطعام طول النهار فهي تتناوله الآن، وأما ريو فبفطرتها النهمة الشرسة تلتهم الطعام الشهوي وتمطق به. أوسعت خيشومي لأتشمم الهواء، ولكن لم أحس إلا برائحة الصندل والحناء الذكية. وأخذ اللحاف ينتفخ مجددا..... أجهدت نفسي أن أبقى ساكنة صامتة ولكن بدأ اللحاف يأخذ أشكالا مخيفة أطارت لبي ذعرا وخيل إلي أن ضفدعا كبيرا ينتفخ وينتفخ ويكاد يقفز علي.

فتشجعت وتمتمت "آ..... أن.....أمي!...." ولكن لم أرى أي أثر لصوتي، وظل اللحاف يرتفع وينتفخ، وبدأت أشعر أن اللحاف قد تغلغل إلي ذهني وينتفخ في داخله. أنزلت قدمي خائفة حذرة في جانب آخر من السرير وتجسست الزر الكهربائي وأشعلت المصباح..... وإذا بالفييل تشقلب تحت اللحاف وتقلص..... وفي محاولة التشقلب، ارتفع جانب من اللحاف.....

"رباه....." ند عن شفتي و ألقىت بنفسي في الفراش.....

THAQAFAT-UL-HIND : Statement of ownership and other particulars.

FORM IV
(See Rule 8)

1. Place of Publication : Indian Council for Cultural Relations,
Azad Bhavan, Indraprastha Estate,
New Delhi-110 002
2. Periodicity of its Publication : Quarterly
3. Printer's Name : Satish C. Mehta
Whether citizen of India? : Yes
Address : Director-General, Indian Council for Cultural
Relations, Azad Bhavan, Indraprastha Estate,
New Delhi-110 002
4. Publisher's Name : Satish C. Mehta
Whether citizen of India? : Yes
Address : Director-General, Indian Council for Cultural
Relations, Azad Bhavan, Indraprastha Estate,
New Delhi-110 002
5. Editor's Name : S. A. Rahman
Whether citizen of India? : Yes
Address : Indian Council for Cultural Relations,
Azad Bhavan, Indraprastha Estate,
New Delhi-110 002
6. Name and address of
individuals who own the
newspaper : Director-General
Indian Council for Cultural Relations,
Azad Bhavan, Indraprastha Estate,
New Delhi-110 002

I, Satish C. Mehta, hereby declare that the particulars given above are true to the best of my knowledge and belief.

Sd/- Satish C. Mehta
Signature of Publisher

Registered with the Registrar of Newspapers of India: Regd No. 14387/57



Indian Council for Cultural Relations
भारतीय सांस्कृतिक सम्बन्ध परिषद्